





المشروع القومي للترجمة

دولة محمد على

في الوثائق الإيطالية غير المنشورة

المجلد الأول

مصر في عصر الفوضى

(يوليو ١٨٠١ - يوليو ١٨٠٤)

إعداد

أنجلو ساماركو

تصدير

محمد صابر عرب

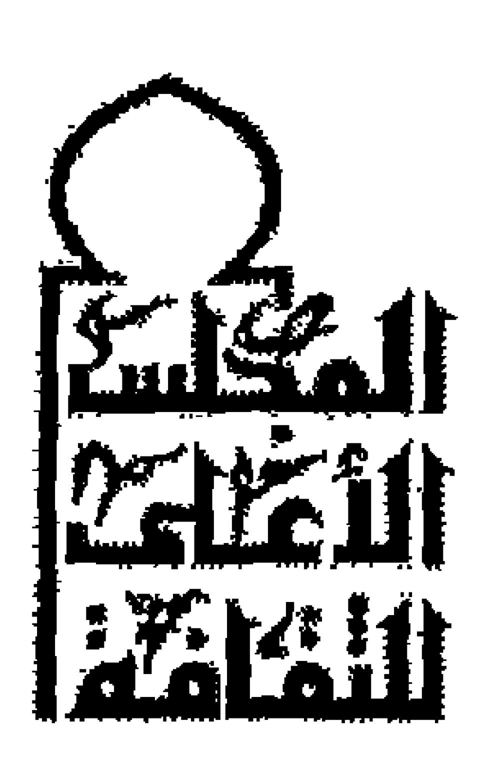
راجع الترجمة

حسين محمود

المراجعة التاريخية والتحقيق

جمال زكريا قاسم

1052





دار الوثائق القومية
إدارة الترجمة

دولة محمد علي
فى الوثائق الإيطالية غير المنشورة

المجلد الأول

مصر في عصر الفوضى
(يوليو ١٨٠١ - يوليو ١٨٠٤)

إعداد
أنجلو ساماركو

تصدير
دكتور محمد صابر عرب

راجع الترجمة
دكتور حسين محمود

المراجعة التاريخية والتحقيق
دكتور جمال زكريا قاسم


مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

ساماركو، أنجلو.
دولة محمد على في الوثائق الإيطالية غير المنشورة/ إعداد أنجلو ساماركو ؛ تصدير محمد صابر عرب؛ راجع الترجمة حسين محمود ؛ المراجعة التاريخية جمال زكريا قاسم . ـ ط ١ . ـ القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، الإدارة المركزية لدار الوثائق القومية، إدارة الترجمة ، 2006 .
مج ١ ؛ 28 سم. ـ (المشروع القومى للترجمة ؛ العدد 1052)
المحتويات : مصر فى عصر الفوضى (يوليو 1801– يوليو 1804)
تدمك 5 - 0468 - 18 - 977

٩٦٢,٠٣

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٦/٢٣٨١٧
I.S.B.N. 977 - 18 - 0468 - 5

المشروع القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٠٥٢
- دولة محمد علي فى الوثائق الإيطالية غير المنشورة (مج ١)
- أنجلو ساماركو
- ولاء عفيفى - هيثم كمال - هدى عبد العاطي
- حسين محمود
- جمال زكريا
- محمد صابر عرب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب :

IL REGNO DI MOHAMMED ALI
NEI DOCUMENTI DIPLOMATICI
ITALIANI INEDITI
VOLUME PRIMO
L'EGITTO NELL' ANARCHIA
(LUGLIO 1801-LUGLIO 1804)

PER
ANGELO SAMMARCO

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel: 7352396 fax: 7358084



راجع الترجمة

د. حسين محمود

المراجعة التاريخية والتحقيق

أ.د. جمال زكريا قاسم

فريق الترجمة

اللغة الإيطالية:

- ولاء عفيفي النحاس

- هيثم كمال سلامة

اللغة الفرنسية:

- هدى صالح عبد العاطي

المراجعة اللغوية

- محمد حسين السيد

المحتويات

على سبيل التصدير

د. محمد صابر عرب

لقد عرفت مصر منذ فترة مبكرة العناية بالوثائق، ووضع اللوائح والتشريعات المنظمة لها، لكن جاءت العناية بالوثائق بوصفها إحدى الوسائل المهمة لضبط الإدارة، وخصوصاً النواحي المالية، ولا أعتقد أن محمد علي حينما أنشأ الدفترخانة المصرية عام ١٨٢٨ كان يستهدف جمع وتنظيم إدارة الوثائق من أجل أن تكون مصدراً للكتابة التاريخية، لكن الرجل بخبرته الإدارية، وبمشورة أصدقائه من الفرنسيين اعتقد أن العناية بالوثائق وضبط إدارتها والسيطرة عليها، يعد أمراً في غاية الأهمية؛ لضبط إدارة الدولة وجباية مواردها. ولم يكن يعلم، وهو يقوم بهذه المهمة، أنه يقدم خدمة جليلة للتاريخ المصري، وأنه بهذا العمل قد حافظ على الذاكرة التاريخية للأمة المصرية.

لم يفكر أحد من أبناء محمد علي وأحفاده في تيسير الاطلاع على الوثائق؛ حتى عصر الملك فؤاد، باستثناء الخديو عباس حلمي الثاني الذي أتاح لأحد موظفي المالية، وهو أجوب فرحيان الأرمني، الاطلاع على بعض الوثائق المدونة باللغة العثمانية، وتمكن من عمل ملخصات لبعضها، وقام بترجمتها إلى العربية، ورتبها ترتيباً زمنياً في ثمان وثلاثين كراسة، وقد أنجز فرحيان عمله هذا عام ١٨٩٧.

وقد قام موظف فرنسي كان يعمل هو الآخر في نظارة المالية، وهو تالامس Talames بترجمة إحدى هذه الكراسات إلى اللغة الفرنسية في عام ١٩١٣، وطُبعت في المطابع الأميرية تحت عنوان «مكاتبات محمد علي»، وبقيت جميع كراسات فرحيان مودعة بدار المحفوظات العمومية، ولا أحد يعرف مصيرها الآن، لعلها تبددت في ظل ظروف الحفظ السيئة، التي مرّ عليها أكثر من قرن.

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى تضاعفت عناية الأجانب بالتاريخ، والحضارة المصرية، وظهرت في أوروبا ـ وخصوصاً في فرنسا ـ كتابات كثيرة اعتمدت في معظمها على الوثائق الفرنسية، وانتقدت معظم هذه الكتابات قسوة محمد علي، وخصوصاً في إدارته للمنافع العامة التي سخّر فيها المصريين في ظل أوضاع اجتماعية وإنسانية غاية في السوء، وهو ما دفع الملك فؤاد إلى العناية بالتاريخ؛ لذا فقد أمر عام ١٩٢٥ بتشكيل لجنة برئاسة حسن باشا نشأت، وكان من بين أعضائها

أدولف قطاي سكرتير الجمعية الجغرافية، وأحمد تيمور باشا وجورج دوان، تحددت مهمتها في جمع وثائق عصر محمد علي من اللغات العثمانية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية وتصنيفها وترجمتها إلى اللغتين العربية والفرنسية. ولعل عناية الملك فؤاد بالترجمة إلى الفرنسية كانت رداً على ما اعتقد أنها حملة مدبّرة لتشويه صورة جده محمد علي.

لقد بُدئ بترجمة وثائق حملة محمد علي على بلاد الشام، ثم بمكاتبات الديوان الخديوي إلى العربية والفرنسية. ويُلاحظ على هذه الترجمات المحفوظة بدار الوثائق القومية عملية الانتقاء؛ حيث ترجمت الوثائق الإدارية و السياسية والعسكرية التي تُظهر عظمة محمد علي، وحُسْن إدارته بينما أغفلت الكثير من الوثائق التي تناولت قضايا كانت مثار اهتمام المؤرخين مثل قسوة محمد علي في حكم رعيته، وسياسته المركزية التي جعلت من الرجل، وكأنه البنّاء الوحيد لكل مشاريع التنمية وإغفال دور الشعب، الذي هو القاطرة الحقيقية لكل إنجازاته، إضافة إلى أن هذه الترجمات جاءت على شكل مختصرات أغفلت سلبيات الرجل، وبالغت في إيجابياته.

واللافت للنظر أن غالبية الباحثين قد اعتمدوا على هذه الترجمات، نظراً لعدم معرفة الكثيرين منهم باللغة العثمانية، وهو ما يضاعف من أهمية العناية باللغة العثمانية، وخصوصاً في أقسام التاريخ في الجامعات المصرية، نظراً لأن مصر كانت جزءاً من الدولة العثمانية طوال أربعة قرون، وكانت مكاتبات الدولة باللغة العثمانية.

لقد أمر الملك فؤاد بنقل الوثائق المتعلقة بتاريخ محمد علي وأبنائه من دار المحفوظات العمومية في القلعة إلى قصر عابدين، وعهد إلى المستشرق الفرنسي ديني Deny بفحص الوثائق العثمانية والفرنسية وتنظيمها بهدف إتاحة الاطلاع عليها، وقد أنهى ديني مهمته عام ١٩٢٦، وقدم تقريراً وافياً بشأنها إلى الملك فؤاد.

وفي السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٣٢ كتب رئيس الديوان الملكي إلى رئيس الوزراء برغبة الملك في تكليف عدد من المؤرخين الأجانب بالقيام بكتابة تاريخ محمد علي وخلفائه؛ حتى عام ١٨٨٠، وكان من بينهم هانوتو وجوجيه وفيت ودوان وفيجان... ، وغيرهم، كما عهد إلى دوان وساماركو بجمع ما حوته دور المحفوظات في إيطاليا والنمسا والولايات المتحدة الأمريكية من وثائق تتعلق بمحمد علي وأسرته، وبهدف تسهيل مهمة هؤلاء المؤرخين، فقد نقل من دار المحفوظات العمومية إلى قصر عابدين حتى عام ١٩٣٤ ما يبلغ ١٦٥٨٩ سجلاً، و٣١٧٦ ملفاً. وقد أودعت هذه الوثائق في قصر عابدين؛ حيث قسمت على النحو التالي :

أولاً : ديوان المعية السنية، أو ما يُطلق عليه محفوظات عابدين، وهي عبارة عن وثائق عثمانية وعربية وفرنسية وإنجليزية وإيطالية، إضافة إلى بعض وثائق الثورة العرابية.

ثانياً : وثائق الدائرة السنية والمجلس الملكي، ومجلس شورى النواب، وديوان الكتخدا والديوان الخديوي وديوان المدارس، وبعض وثائق الجهادية والجفالك.

ثالثًا : الوثائق الإفرنجية، وهي عبارة عن مستنسخات من المحفوظات الأجنبية ابتداء من عصر محمد علي حتى عصر إسماعيل، وقد قام باستنساخها ساماركو ودوان وبنيس.

ومجموعة الوثائق التي نقدمها في هذا المجلد هي من أعمال ساماركو التي استنسخها من أرشيفات نابولي وفلورنسا وتورينو وفينيسيا، وجميعها قد حفظت في قصر عابدين، وقد عني بها وأشرف على تنظيمها وفهرستها: أوجينو بك Eugenio.

لقد عاون ساماركو في الأرشيفات الإيطالية مجموعة من الأرشيفيين من أمثال فتشنزو Vicenzo وجوفاني Giovanni وأوتو برونير Otto Brunner ... وغيرهم. ويذكر ساماركو أنه قام بنفسه بمطابقة المستنسخات على الأصول في أماكنها، وتأكد من دقة النقل، وعدم الوقوع في أخطاء.

إننا، ونحن نقدم هذه الوثائق لا نستهدف إلا خدمة التاريخ المصري الذي كتب في معظمه اعتماداً على الوثائق الفرنسية، أو الإنجليزية، أو العثمانية، بينما لم يتح للباحث المصري الاطلاع على الوثائق الإيطالية؛ لذا فإننا نقدم للباحث المصري وجهة نظر أخرى ظلت غير متاحة منذ أكثر من قرن، لعلها تقدم جانباً مهماً من الحقيقة، سواء لمن بالغوا في قسوتهم على محمد علي، أو لمن أنصفوه لدرجة المبالغة.

أعتقد أن ما ننشره في هذا المجلد يعد على درجة كبيرة من الأهمية، وخصوصاً أن هذه الوثائق تتناول فترة محورية في التاريخ المصري ١٨٠١-١٨٠٤، وهي الفترة التي اتسمت بقدر كبير من الفوضى والاضطراب الشديدين عقب خروج الحملة الفرنسية من مصر؛ حيث بدت عزيمة المصريين أكثر قوة؛ نظراً للتجارب الهائلة التي اكتسبوها، من خلال نضالهم ضد الفرنسيين، وخصوصًا وقد شعروا- وللمرة الأولى منذ العصر الإسلامي الأول- أنهم أصحابُ البلد الحقيقيون، وقد كان لمواجهتهم جيوش بونابرت أكبر الأثر في نمو شعورهم الوطني، في الوقت الذي كانت فيه قوة المماليك قد تراجعت، وتحطمت شوكتهم خلال الحملة الفرنسية، ولم يبق منهم إلا أربعة آلاف مملوك.

لقد كشف رحيل الفرنسيين عن حالة الانقسام التي عمّت صفوف المماليك؛ ففريق منهم رأى أن يستظل بحماية الإنجليز، وقد تزعم هذا الفريق محمد بك الألفي، وفريق آخر فضّل الاعتماد على الفرنسيين، وقد ترأس هذا الفريق عثمان بك البرديسي، وفريق ثالث التزم الحياد أو موالاة الأتراك، وعلى رأسهم عثمان بك حسن، وجميعهم قد ضعفت شوكتهم، وتبددت هيبتهم في عيون المصريين.

لقد نظر المصريون إلى المماليك والعثمانيين بقدر هائل من السخط؛ إذ كانت قسوتهم في معاملة الشعب ومبالغتهم في فرض الضرائب أمرًا في غاية السوء.

وكانت الحملة الفرنسية سببًا مهمًا في ظهور زعامات وطنية حظيت بإجماع المصريين، كما كان للصراعات المملوكية العثمانية أكبر الأثر في أن يتبوأ هؤلاء الزعماء مكانتهم وسط المصريين، من أمثال عمر مكرم، والشيخ السادات، والشيخ الشرقاوي، والشيخ محمد الأمير وغيرهم، في الوقت الذي كان فيه المماليك والعثمانيون قد استنفدوا كل طاقتهم في صراعاتهم الشخصية التي بددت من قوى الجميع.

إن مجموعة الوثائق التي يقدمها هذا المجلد تقدم صورة واضحة عن حالة الفوضى التي عمت أنحاء مصر.

وفي الوقت الذي شدد فيه السلطان العثماني على أهمية استعادة مصر عقب رحيل الفرنسيين، والتخلص من البكوات الذين تسببوا في تدهور الحياة المصرية، إذ بالمماليك كانوا أشد إصرارًا على استعادة نفوذهم؛ لذا أعلنوا تمردهم على السلطان، واستنجد بعضهم بالفرنسيين، والبعض الآخر بالإنجليز.

إن هذه الوثائق تقدم صورة متكاملة عن حجم الصراعات القائمة وقتئذ، والعلاقات المعقدة بين كل القوى المتنافسة، وأثر ذلك على تدهور الحياة المصرية بشكل ملحوظ، بينما عجزت الدولة العثمانية عن القيام بدورها، وخصوصًا حينما فشلت في تثبيت ولاتها على مصر؛ حيث شهدت تلك الحقبة صدور فرمانات تعيين ولاة، جميعهم عجزوا عن القيام بمهامهم، كان بعضهم يُقتل قبل أن يصل القاهرة، والبعض الآخر إذا تمكن من الصعود إلى القلعة؛ لكي يمارس مهام الحكم كان يجد صعوبة في النزول منها إلى القاهرة، في ظل موجة شديدة من القتل والعنف الذي انعكس بشكل ملحوظ على حياة المصريين.

لقد أنهك هذا الصراع كل القوى المملوكية والعثمانية المتنافسة؛ مما أتاح لقوى مثل الأرناؤوط فرصة الاستقواء، وراحوا يعبرون عن سخطهم واستهانتهم بالمماليك. ولجأ البرديسي لإرضاء الأرناؤوط، وكسبهم إلى صفه بمزيد من فرض الضرائب على المصريين، بينما كان المصريون يعيشون في ظروف اقتصادية غاية في التدهور؛ لذا أعلنوا رفضهم دفع الضرائب، وأجمعوا أمرهم على الثورة؛ لدرجة قتلهم العديد من محصلي الضرائب، وأبدى الأرناؤوط تعاطفاً مع المصريين.

هذه الوثائق تقدم صورة مأساوية عن الحياة المصرية، خلال الفترة التي سبقت ولاية محمد علي، وتبدو أهميتها من عدة جوانب :

أولها : أن هذه الوثائق عبارة عن شهادات معاصرين للأحداث، كتبوا تقاريرهم بشكل يومي، واتسمت رؤيتهم بقدر من الحيادية.

ثانيها: أن معظم الكتابات التاريخية عن تلك الحقبة، قد عنيت بالحملة الفرنسية، أو الإنجليزية، وبمحمد علي وعصره، بينما سقطت الفترة التي سبقت ولايته من الذاكرة التاريخية، وجاءت معظم الكتابات على شكل أدبيات، أكثر منها معلومات تاريخية موثقة.

وثالثها: أن هذه الوثائق قد أفردت مساحة كبيرة للواقع المصري بكل مآسيه، لكنها سجلت ملامح الوعي الوطني من خلال رصدها لحركة الحياة المصرية، ونبض الشارع المصري، ونمو الزعامة الوطنية التي خرجت من رحم الشعب المصري معبرة عن مطالبه الحقيقية.

وأخيراً، أعتقد أن هذه الوثائق -في مجملها- تعد بمثابة تسجيل حي للواقع المصري، يصعب الإلمام بتفاصيله في غيبة هذه الوثائق.

ومن الواجب في نهاية هذا التصدير أن أشكر بكل امتنان الدكتور حسين محمود، الذي أشرف على فريق الترجمة الذين أثروا هذا العمل، والأستاذ المؤرخ الجليل الدكتور جمال زكريا قاسم الذي تفضل مشكوراً بمراجعة هذه الترجمة مراجعة علمية دقيقة، وتصويب الكثير مما يتعارض مع الحقائق التاريخية، مما كان سبباً مهماً لإخراج هذا العمل بالصورة اللائقة.

ونقطع على أنفسنا وعداً بأن نواصل إصدارات وثائقية على هذا المستوى من الأهمية؛ تقديراً وامتناناً لشعب عريق يستحق أن نسجل نضالاته، وتضحياته في سبيل وطن جدير بأن يكون كبيراً وعظيماً وقوياً.

مقدمة الترجمة

عصر الفوضى الخلاقة

د. حسين محمود

للمرة الثانية نقدم جهداً وثائقياً مهماً منقولاً عن اللغة الإيطالية، مستفيدين أيضًا من الجهد التصنيفي الذي قام به العالم الإيطالي أنجلو ساماركو، الذي دعاه الملك فؤاد؛ لتجميع وترتيب الوثائق الخاصة بعصر جده محمد علي، بعد أن لمس قلة المنشور من دراسات جادة عن ذلك العصر. وقام ساماركو بتجميع الوثائق من الأرشيفات المصرية والأوروبية، ومعظم الوثائق التي نشرها في هذا المجلد الذي نقدم ترجمة له موجودة بدار الوثائق القومية المصرية. وهو يعرض في مقدماته الضافية منهجه في التجميع والتصنيف، بالإضافة إلى ما واجهه من صعوبات في العثور على هذه الوثائق، وتحريرها، بإضافة لمسات تحديث للغة القديمة المكتوبة بها، سواء في طريقة الكتابة، أو في علامات الترقيم، ولكنه ترك أسماء الأعلام كما هي مكتوبة بشكلها القديم.

والوثائق الخاصة بهذا المجلد، من مجموعة المجلدات التي قام على تصنيفها العالم الإيطالي المذكور، تقدم إرهاصات بناء الدولة الحديثة في مصر، وتغطي الفترة ما بين عامي ١٨٠١ و١٨٠٤؛ أي تبدأ مع رحيل الحملة الفرنسية عن مصر، مع الجنرال مينو، الذي تقدم له الوثائق أوصافًا أقسى من تلك المعروفة عنه، وتنتهي قبل عام من تولي محمد علي مقاليد الحكم في مصر. هذه السنوات الأربع شهدت فيها مصر كل أنواع الفوضى الممكنة وغير الممكنة، ولكنها انتهت بدخول مصر عصراً جديداً مختلفًا تماماً عما كان قبله.

ونستطيع أن نقول من خلال هذه الوثائق: إن هذه الفوضى كانت تحمل آلام مخاض الولادة لمصر الحديثة، ليس فقط بقدوم محمد علي واليًا عليها، وإنما أيضًا للدور الذي لعبته الجماهير في وضع نهاية لهذه الفوضى. لم تكن كل هذه السنوات مجرد صراع بين البكوات، وحكام مصر العثمانيين والجنود الألبان الأرناؤوط، بزعامة محمد علي، وإنما كان للجماهير المصرية - ضحية هذه الصراعات - دور مؤكد عندما ثارت على قرارات هؤلاء الحكام الموصومين بالجبروت والطغيان، حتى إنها عندما فرضت عليها ضرائب باهظة لدفع مرتبات الجنود رفضت دفع الضريبة الظالمة، وطردت العاملين على الجباية وفي بعض الأحيان قتلتهم، دون أن تستطيع السلطات بجنودها المرتزقة في غالبيتهم التدخل لقمع هذه الثورة الجماهيرية.

ويشهد دي روسيتي، صاحب معظم الوثائق المنشورة هنا، والقنصل العام لبعض الحكومات الأوروبية الموجودة في ذلك العصر، على مدى قوة العناصر الأجنبية في مصر، وقدرتها على التحكم في القرارات التي يصدرها أي حاكم على مصر؛ فقد كان القناصل الأجانب يتمتعون بامتيازات كبيرة في مجال التجارة، تصل إلى حد الاحتكار في بعض الأحيان، وعندما كان باشا مصر يصدر قرارًا يمس مصالحهم، كان بمقدورهم الحصول على فرمان من الباب العالي يلغي هذا القرار. كما كانت لهم وسائل أخرى للاحتجاج على هذه القرارات، مثل التهديد بإيقاف حركة التجارة، والانسحاب من الحياة في المدينة التي يعيشون فيها.

كذلك نلحظ من محتوى هذه الوثائق أن ممثلي الدول الكبرى كان لهم رأي في الصراعات الداخلية في مصر، وأن الحملة الفرنسية، وإن كانت قد جلت عن مصر، فإنها تركت تأثيرًا قويًا للفرنسيين في مسار السياسة المصرية، كما نقلت الصراع بين إنجلترا وفرنسا بوصفهما قوتين استعماريتين عالميتين إلى الأرض المصرية، وقد سجل دي روسيتي حالات المطاردة الدبلوماسية بين ممثلي بريطانيا وفرنسا في مصر، والوجود القوي لهؤلاء الممثلين؛ فالممثل البريطاني يحمل لقبًا كان يطلق في العادة على الحاكم العام للمستعمرات البريطانية في الخارج، رغم أن مصر لم تكن في ذلك الوقت مستعمرة بريطانية، ونفس الحال مع الممثل الفرنسي الذي كان يحمل لقب المفتش العام وليس القنصل، أو السفير.

وكانت القاهرة هي المقر الرئيسي للممثليات الأوروبية، ولكل ممثل نائب في الإسكندرية، والممثل الموجود في القاهرة هو الذي يخاطب وزير خارجية بلاده، أما نائبه في الإسكندرية فيخاطب الممثل المقيم بالقاهرة، والذي ينقل فحوى رسائله إلى وزير خارجيته، ومع ذلك ففي بعض الحالات التي انقطع فيها الاتصال بين القاهرة والإسكندرية كان نائب القنصل، أو السفير في الإسكندرية هو الذي يخاطب وزيره مباشرة. كذلك نلحظ من الوثائق أن القنصل، أو السفير لم يكن يمثل بلدًا معينًا، وإنما عدة بلاد في وقت واحد، وأنه لم يكن شرطًا أن يكون السفير، أو المندوب المقيم، أو القنصل يحمل جنسية البلد نفسها التي يمثلها، وهذا هو ما جعل الوثائق التي بين يدينا مكتوبة باللغة الإيطالية، ولكنها تسجل التقارير الدبلوماسية للدولتين النمساوية، والروسية، وأحيانًا السويدية، نظرًا لأن قنصل هذه البلاد في مصر كان إيطاليًا.

ولم يكن التاريخ وحده هو الذي يحمل صفة الخصوصية في تلك الفترة، وإنما الجغرافيا أيضًا؛ فلم تكن الدول الأوروبية هي نفس الدول المعروفة حاليًا، وكذلك إيطاليا التي لم تكن قد

توحدت، فكانت فيها ممالك، وجمهوريات، ودوقيات، وكلها مستقلة. ويبدو أن فيينا عاصمة النمسا كانت من مراكز السياسة الأوروبية المهمة في ذلك الوقت، وكانت لها علاقات عميقة مع الدولة العثمانية التي احتفظت بتحالفات أوروبية لها أهميتها، ومنها تحالفها مع روسيا؛ حيث تشير إحدى الوثائق إلى أسطول عثماني روسي مشترك.

ويبدو أن التحالف البريطاني العثماني، هو الذي أجبر الفرنسيين على الجلاء عن مصر بمساعدة المماليك، الذين تلقوا وعوداً من الإنجليز والفرنسيين معاً، بإعادتهم إلى الوضع الذي كانوا عليه قبل مجيء الحملة الفرنسية، ومع ذلك لم يستطيعوا الإفلات من القرار العثماني بإبادتهم، تلك الإبادة التي لم تكن وليدة قرار منفرد لمحمد علي بعد توليه السلطة، فيما عُرف باسم مذبحة القلعة؛ فالحقيقة أن المماليك وقادتهم من البكوات تعرضوا للعديد من المذابح، قبل وصول محمد علي إلى الحكم، ولم تكن مذبحة محمد علي سوى ذروة هذه المذابح، والقول الفصل في إنهاء عصر المماليك.

وما أثارني حقاً في هذا المشهد الرهيب الذي تعرضه الوثائق للحالة المصرية في السنوات التي تسجل أحداثها، وأنا هنا لا أصدر أحكاماً تاريخية، وإنما أحاول تقديم قراءة لمحتوى الوثائق من وجهة نظر أدبية ولغوية خالصة، هو أنه لم يرد ذكر لزعيم تلك الفترة نقيب الأشراف عمر مكرم سوى مرة واحدة في الوثيقة رقم ٢٩ بتاريخ ٦ مايو عام ١٨٠٣، ويقول فيها دي روسيتي: «أخذ الكلمة عمر أفندي (نقيب الأشراف) منددا بالضرائب الجديدة، والالتزامات الضريبية الباهظة التي ترهق الفقراء والمساكين. وبناءً على كلمته تقرر رفع الضرائب الجديدة عن كاهل الشعب، وحظي الحاضرون بوعد من طاهر باشا، ورجائي أفندي الدفتردار بهذا، وانتهى الأمر بأن تولى مهام منصبه». كانت الكلمة التي ألقاها عمر مكرم في مجلس عُقِد في منزل القاضي، حضره المشايخ، وكبار رجال الولاية. كان هذا المجلس بمثابة برلمان نخبوي يضم صفوة المجتمع، ففيه مشايخ الأزهر، إلى جانب المسئولين الكبار مثل عمر أفندي نقيب الأشراف، وهو ما يعني أن المجلس كانت تحضره فئات مختلفة من المجتمع. وكان من شأن هذا المجلس أن يعين الوالي على مصر، بدليل أنه عين طاهر باشا قائمقاما،أي نائباً للوالي، حتى يصدر له فرمان خاص بالولاية من الباب العالي. وفي رأيي أن وجود مثل هذا المجلس الذي يضم أعيان البلد دليل قوة ذلك العصر، بكل ما يحمل من فوضى وصراعات. وهو أيضاً دليل على أن أطراف الصراع كافة كانت تضع نصب أعينها قوة الشعب الذي يمكنه أن يحاسبها. أما الدلالة التي لا تخفي على أحد من خلال هذه الشهادة أن عمر مكرم كان خطيباً مفوهاً، فقد أثمرت كلمته عن إسقاط الضرائب التي فرضت على

الشعب، وكان ذلك بمثابة الميثاق الذي يجب أن يسير عليه الوالي الجديد. صحيح أن طاهر باشا لم يَفِ بالوعد، وفرض ضرائبَ جديدةً، ولكن هذه قصة أخرى ترويها وثائق هذا المجلد، وتقدم تحليلاً لها من وجهة نظر مراقب أوروبي، ربما لا يكون محايداً فيما يرويه، ولكنه على الأقل صادقٌ في روايته التي كان يعتمد عليها اتخاذ القرار في دوائر صنع السياسة الأوروبية في ذلك الوقت.

بقي أن نقول: إن الجزء الثاني من هذه الوثائق التي تسجل فترة تولي محمد علي للسلطة ربما يكون هو الجزء الأهم؛ لأنه سوف يتناول الفترة التي أمسك فيها محمد علي بزمام الأمور في مصر، مع ما صاحب هذا من أحداث على قدر كبير من الأهمية، أدخلت مصر إلى العصور الحديثة في رأي الكثيرين. ولكننا لم نعثر بعد على هذا الجزء، وربما يكون في الجمعية الجغرافية المصرية، والتي كانت تُسمى الجمعية الجغرافية الملكية، وكانت هي الناشر الرسمي لهذه السلسلة من المجلدات، ولكن ربما لم ينشرها ساماركو نفسه؛ لأنه يشير في تعليق على بعض الوثائق أنه لم يتسنَّ له وضع المجلد الثاني لصعوبة الحصول على وثائقه. وفي هذه الحالة، فإننا نعد بأن نبحث عن الوثائق الإيطالية التي تغطي الفترة التالية من عام ١٨٠٤ سواء وجدناها في مصر أو في أوروبا، حتى يمكننا أن نكمل عمل المؤرخ الإيطالي الكبير، وبنفس منهجه في تصنيف الوثائق وقراءتها. وما يشجعنا على هذا هو الدعم الكبير الذي يحيطنا به عالم تاريخ آخر مصري، في هذه الحالة، وهو الأستاذ الدكتور محمد صابر عرب، والذي كان صاحب فكرة نشر هذه الوثائق بترجمة عربية، تساعد الباحثين على تحديث دراساتهم التاريخية وتعميقها. وهو يستحق الشكر والإشادة: أولاً على فكرته البناءة، وثانياً على دعمه الدائم لمترجمي هذه الوثائق.

صاحب الجلالة فؤاد الأول

ملك مصر*

جلالة الملك

في حياة جلالتكم كأمير، كنتم تعملون جاهدين؛ لتنفتح مصر على تيارات الفكر الأوروبي. وبنظرة ثاقبة كنتم ترون جلالتكم أن بناء نهضة البلاد على أساس قوي ومتين، يتطلب توجيه الشعب نفسه إلى التجديد الروحي، والذي كانت الإصلاحات حتى ذلك الوقت، تفرض عليه من أعلى، أو من الخارج بسبب الظروف المحيطة، وبإرادة قوية من أسلافكم السابقين: إسماعيل، وإبراهيم، ومحمد علي. وبصعود جلالتكم إلى العرش، بدأتم تواصلون بنظرة أوسع وأشمل، وبإمكانيات ووسائل أقوى، العمل على الارتقاء الفكري، مشيّدين العديد من المؤسسات، والمعاهد الثقافية الجديدة، وإعطاء دفعة لتطوير المؤسسات الموجودة بالفعل.

والآن تحت إشراف جلالتكم تزدهر الجامعة المصرية، والجمعية الجغرافية، وجمعية الاقتصاد السياسي، والمعهد المصري، وجمعية علم الحشرات، والجمعية الزراعية، والعديد من المعاهد العلمية، وهذا العمل يكشف يوماً بعد يوم عن مدى أهميته، والنفع الذي يعود به على تحديث الأمة المصرية.

ومن بين المبادرات الثقافية العديدة، خططت دولتكم بذكاء منقطع النظير، وبعمل جاد لتنفيذ هذه المبادرة، والتي، وإن لم تظهر للجمهور مثل باقي المبادرات، سيكون لها آثار نافعة على تطوير البلاد، وتتمثل هذه المبادرة في جمع الوثائق المتعلقة بمملكة محمد علي ونشرها، عن طريق بحث منظم، ليس فقط في أرشيفات مصر وتركيا، ولكن في أرشيفات أوروبا أيضاً، التي سمعت جميع دولها بأعمال هذا الملك العبقري**.

---

* مذكرة مرفوعة من ساماركو إلى الملك فؤاد الأول في ديسمبر من عام ١٩٢٩ تتناول أهمية المبادرة التي قام بها جلالته في تجميع الوثائق التاريخية. «المراجع»

** أسبغ ساماركو على محمد علي لقب ملك رغم كونه والياً عثمانياً، وقد يكون ذلك كناية عن استقلاله بتصريف أمور مصر، رغم تبعيته للدولة العثمانية. «المراجع»

وقد قام محمد علي بإخراج مصر من العصور الوسطى، وبدأ بها العصر الحديث؛حيث اتبع طريق المستقبل موضحًا الهدف الذي يسعى للوصول إليه.

وحول هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر الحديث، يمكن أن نقول: إنه لا توجد أية أعمال علمية؛ حتى أن الكتابات الأشهر حول مملكة محمد علي تتصف بطابع السرد التاريخي، أكثر من اهتمامها بالتحليل التاريخي، وتعج بالأخبار والمعلومات، دون اهتمام بدراسة مجرى الأحداث بفهم وإدراك. ويعود العيب الشائع في جميع هذه الكتابات تقريبًا إلى هذا المنهج الخطير، الذي يتمثل في النهل من يوميات الجبرتي على نحو مبالغ فيه، ودون الإشارة إليه، وأحيانًا نقلاً عن مراجع ثانوية.

وسوف تتيح مجموعة الوثائق الدبلوماسية غير المنشورة، التي أتحتها جلالتكم، الفرصة لأن يحل التاريخ الحقيقي محل الروايات السطحية العشوائية.

ومن المؤكد أن التاريخ ليس مجرد تفسير لغوي للنصوص، ولا يقتصر على النشر المنظم للمصادر، ولكن سوف يكون من العبث أن نعتبر التاريخ غير تفسيري، وأنه بدون دراسة الوثائق، يمكن أن تحدث عملية إعادة البناء للماضي. وعليه، فإن القاعدة العريضة من المواد الأرشيفية، والتي يجري نشرها بناء على رغبة جلالتكم، هي فقط التي سوف تعطى للمؤرخين فرصة إعادة بناء فترة حكم محمد علي المجيدة، بمنتهى الدقة والعمق. وهذا البناء لن يمثل فقط تقدمًا في مجال فن كتابة التاريخ، ولكنه سيحقق منفعة كبيرة في الحياة الأخلاقية والسياسية للأمة المصرية، التي سوف تكتسب، عن طريق المعرفة العميقة للماضي، وعيًا وإدراكًا أكثر يقينًا بكينونتها ومستقبلها. وفي الوقت نفسه، سوف تشعرون جلالتكم بالرضا، لنفسكم وللأمة المصرية، عن ذلك الشعور النبيل من العرفان بالجميل تجاه أسلافكم، والتي يتوافق تاريخها مع تاريخ مصر الحديثة.

ووسط هذا الكم الهائل، تمثل الوثائق الإيطالية طابعًا وقيمة خاصتين جدًا؛ فنظرًا لأن المندوبين الإيطاليين لم يكن لديهم اهتمامات مباشرة وعاجلة يقومون بها، ولأنهم كانوا أشخاصًا متمرسين في البلاد، واعتادوا بحكم التعليم والطبع تأمل الناس، والأشياء بواقعية شديدة؛ حيث قاموا بتدوين بعض التقارير التي لا تعتبر عرضًا بسيطًا لأنشطتهم في أغراض محددة، بل توسعوا في سرد الأحداث، والظروف السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية بنظرة أشمل وأوسع.

وتشكل تلك التقارير صورًا حية للحياة في مصر، ويمكن عن طريقها معرفة مدى التطور والتقدم الذي حدث للبلاد في أثناء مملكة محمد علي.

وحقيقة ما نؤكده تتضح جلية من بداية هذا الجزء الأول الذي يشتمل على تقارير الكونت كارلو دي روسيتي Carlo De Rossetti، الذي كان على مدار نصف قرن، منذ نهاية القرن الثامن عشر، وحتى بداية القرن التاسع عشر، هو الأوروبي الذي يعرف مصر جيداً، ويتمتع بسلطات كبيرة فيها، ونلاحظ أيضاً في كتاباته، فضلاً عن الذكاء والبديهة، نقاء الخطوط وصفاءها، وتوازن النقوش، ودقة العناصر الرئيسة والمجموعات المميزة، ومما يثير الإعجاب أيضاً أن عمله كان مفيداً لمصر وللمستعمرات الأوروبية.

وتمثل المبادرات الثقافية العبقرية التي قمتم بها جلالتكم عهداً جديداً في تاريخ مصر؛ فقد كان الهدف منها العمل بمنتهى الحكمة على أساس قوي لإحياء الأمة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً.

وأنا إذ أتقدم بخالص العرفان والتقدير لجلالتكم على الشرف العظيم الذي شملتموني به عندما استدعيتموني لإعداد الجزء الإيطالي من مجموعة الوثائق الخاصة بمملكة محمد علي، فإنني ألتمس من جلالتكم، بصفتكم صاحب الفكرة، والراعي لعمل قيّم كهذا، أن تسمحوا لي أن أهدي إلى جلالتكم هذا الجزء الأول، وما سيلحقه من أجزاء أخرى. وإذا كنت قد تجرأت، وقد خذلني ضعف قوتي، على أن أقدم هدية لجلالتكم، وأنا لست جديراً بهذا، فإنني من جانبي أستطيع أن أجد عذراً في الجهد الجهيد الذي بذلته في عملي، وفي الاحترام الكامل الذي أكنّه لجلالتكم.

الخادم المتواضع المطيع

أنجلو ساماركو

القاهرة: ديسمبر ١٩٢٩

تمهيد

الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بمملكة محمد علي وأرشيفات الدولة الإيطالية

موجز

- أعمال محمد علي العظمى في المجالات العسكرية والسياسية والمدنية .
- مبادرة الملك فؤاد لجمع المصادر الدبلوماسية التي تشير إليها تلك الأعمال ونشرها .
- الوثائق التركية والفرنسية والإنجليزية .
- أهمية الوثائق الإيطالية .
- الوثائق الإيطالية المأخوذة من أرشيفات الدولة بفيينا، ونابولي، وفلورنسا، وتورينو، وفينسيا .
- خطة النشر.

في معركة أبي قير* الواقعة في ٢٥ يوليو ١٧٩٩، والتي دمر فيها نابليون** تقريباً الجيش الذي أرسله الباب العالي للتصدي للغزو الفرنسي على مصر، حارب محمد علي في صفوف القوات التركية. كان برتبة بمباشي (مقدم)، ويتولى قيادة كتيبة مقاطعة قولة Cavala بمقدونيا، التي ولد بها قبل ثلاثين عاماً أي في عام ١٧٦٩.

وفي هذا الصدام المدمر للجيش العثماني، أدى ملك (والي) مصر المقبل واجبه بشجاعة ولكنه سقط في البحر، وكاد يلفظ أنفاسه غرقًا. وبعد الحملة أعطى محمد علي أعظم الأدلة على القدرة والشجاعة، حتى أنه في نهاية عام ١٨٠١، عندما اضطر الفرنسيون للخروج من مصر، تمت ترقيته إلى رتبة جنرال**. إن الخطة العبقرية لتجديد مصر وتحديثها التي وضعها نابليون، ولم يستطع تنفيذها، استكملها محمد علي وقام بتنفيذها، وبذلك اعتبر هو منفذ وصية نابليون، والمؤسس الحقيقي لمصر الحديثة. ولكن كم من العقبات اضطر لتخطِّيها، وكم من الصعوبات

* الإشارة هنا إلى معركة أبي قير البرية، وليست المعركة البحرية التي دمر فيها الأدميرال نلسن أسطول بونابرت في خليج أبي قير في أغسطس ١٧٩٨ عقب وصول الحملة الفرنسية إلى مصر «المراجع».

** لم يكن نابليون يعرف بهذا الاسم إلا بعد وصوله إلى عرش الإمبراطورية النابليونية في أبريل ١٨٠٤؛ إذ كان يعرف قبل ذلك باسم بونابرت «المراجع».

** حصل محمد علي من الوالي العثماني محمد خسرو باشا على رتبة «سرجشمة»، وهي التي تعادل رتبة الجنرال التي ذكرت في السياق «المراجع».

كان عليه التغلب عليها قبل أن ينجح في هذه المهمة! وكان رأي بول موريبه Paul Mouriez، الذي كتب أحد الأعمال الواعية عن محمد علي، أن حاكم مصر هو وحده التالي لنابليون في حياته العملية، سواء كسياسي، أو كغاز، وأن الظروف التي بدأ محمد علي يجدد فيها مصر، كانت أصعب من الظروف التي عمل فيها نابليون[1]. وربما لا يوجد مثال آخر لوضع سياسي تطلب الوصول إليه كل هذا الكم من العمل والتفاني والفطنة[2].

لقد كانت حالة الفوضى والفقر التي تمر بها مصر بعد رحيل الفرنسيين، تفوق أي وصف. وكان القناصل في هذا الوقت غالبًا ما يصرحون في تقاريرهم بأن وصفهم يقل عن الواقع؛ حتى لا يبدو وصفا خياليا.

والمماليك الذين كانوا دائمًا يحكمون البلاد بالجبروت والطغيان، أصبحوا أكثر قوة بسبب الخلاف القائم بينهم وبين الباب العالي، الذي كان يريد أن يتخلص منهم بأية طريقة. ويمكن أن نضيف إلى الأضرار التي تعرض لها الشعب من جراء هذا الصراع الضاري، ظلم الأرناؤوط والألبان وسوء معاملتهم، وعمليات السلب والنهب التي كان يقوم بها البدو. وفي خضم هذا الاضطراب والقمع الخطيرين، سلك محمد علي سلوك المدافع عن الشعب، وبذلك ظل بمرور الأيام يكتسب مكانة أفضل بين الناس؛ حتى تولى القيادة العليا. وفي يوليو عام ١٨٠٥ اختاره الباب العالي ليكون الباشا*؛ لأنه عرف عنه أنه رجل قادر على إيقاف هذه الحالة من الصراعات والمذابح، وقد كان، وبالفعل نجح في هذا العمل الدال على قدراته، ولم يكن هذا كل شيء، ولكنه قام بعمل آخر أكثر صعوبة؛ ألا وهو الحفاظ على كرسي عرش يعتبر من أكثر العروش هشاشة، وذلك عن طريق حكومة قوية وفعالة. ومن حالة الفوضى والانهيار التي كانت تعيش فيها مصر، عرف كيف ينهض بها خلال أعوام قليلة، ويجعلها تتمتع بالأمن والأمان اللذين هما من صفات البلاد المتحضرة، ثم زاد من قوتها بحيث أصبحت قادرة على أن تمد أراضيها، وأن يكون لها تأثير ملحوظ على الأحداث السياسية والحربية في تلك الفترة. كما عرف أيضًا كيف يكوّن قوة عسكرية

---

(١) بول موريبه، تاريخ محمد علي، باريس، ١٨٥٨، المجلد I صفحة V وما يليها.

(٢) فيليكس مينجين Felix Mengin ، تاريخ مصر أثناء حكم محمد علي(١٨٢٣-١٨٣٨)، ص XXIII ، باريس ١٨٣٩، وهذا هو العمل الثاني لنفس المؤلف بعد تاريخ مصر في ظل حكم محمد علي ، المجلد الثاني ، باريس، ١٨٢٣.

* في التاسع من يوليو من عام ١٨٠٥ أصدر السلطان العثماني فرمانًا بتثبيت محمد علي في الحكم استجابة لاختيار العلماء والرعية له بالولاية على مصر في ١٣ مايو ١٨٠٥ .«المراجع».

برية وبحرية على الطراز الأوروبي، والتي استطاع بها أن يوسع إمبراطوريته، حيث امتدت من طوروس Tauro في آسيا الصغرى إلى حدود الحبشة.Abissina*

وتجرأ مرتين وتصدى للإمبراطورية العثمانية، ملحقًا بها هزائم ساحقة، على الرغم من أنها كانت تلقى العون والتأييد من كبار القوى الأوروبية؛ الأولى في قونية في٢١ ديسمبر ١٨٣٢، والثانية هزيمة ناصب Nasib ** ٢٤ يونيو ١٨٣٩. وكانت تلك الانتصارات تسمح لوالي مصر بالتحرك نحو القسطنطينية، لولا تدخل القوى الأوروبية، التي كانت دائما تشعر بالقلق والخوف من التصفية التامة للنفوذ التركي.

وبسبب هذا التحرك اضطر محمد علي الذي كان يصبو إن لم يكن للاستقلال التام، فللحكم الذاتي للأراضي التي تم غزوها، واضطر إلى الاكتفاء بالملكية الوراثية لمصر والسودان تحت السيادة العليا للباب العالي (١يونيو١٨٤١).

وكان محمد علي مختلفًا تماماً عن الطامحين المبتذلين، حيث كان لا يستخدم السلطة من أجل الإشباع الشخصي للأنانية، ولكنه كان يعتبرها ويستخدمها أداة لتنفيذ الخطط التي وضعها من أجل تجديد مصر وتحديثها. وهو ما يعد صفة رائعة لاسيما في ملك شرقي.

وعلى مدار أكثر من أربعين عاماً عمل محمد علي بنشاط منقطع النظير؛ حتى يعلو بمصر ويصل بها إلى مستوى البلاد المتحضرة. (جيش، خدمات طبية، إدارة مالية، تعليم عام، مدرسة طب عليا، صناعة، زراعة)، وجميعها أمور خلقها أو طورها بفضل سعة أفكاره وروحه المليئة بالتسامح. وتتضح عظمة آرائه ورُقيّها في الحماية التي كفلها للمسيحيين من كافة الطوائف، وفي أنه عين في خدمته بعض الأشخاص من ذوي القدرات دون أي تمييز ديني.

وهذا النهج الحضاري لمحمد علي امتد في آثاره إلى المجال العلمي أيضا. وبدون الأمن والنظام اللذين حققهما، لظلت مصر لفترة طويلة من الوقت مستغلقة على الرحالة والدارسين، ولتأخرت العديد من الاكتشافات الأثرية والعلوم التاريخية لعدة أعوام.

ومنذ السنوات الأولى لحكمه، استطاعت جموع من علماء الآثار والجغرافيين وعلماء الطبيعة التجول بحرية في كل أنحاء البلاد، حتى وصلوا إلى النوبة والسودان وواحة سيوة. كذلك قام محمد علي برعاية العديد من رحلات الاستكشاف العلمية، فأسهم بهذا، إضافة إلى الحملات

* Abyssinia «المراجع».

* الاسم الصحيح للمعركة هو نصيبين، وليست ناصب كما وردت في السياق. «المراجع».

العسكرية، في توسيع المعرفة الجغرافية والتاريخية عن مصر والبلاد التابعة لها. وفي هذا المجال أصبحت بالفعل أعمال الإيطاليين علامات مميزة، حيث انتهى بعضهم في الأعوام الأولى لمملكة محمد علي من وضع أبحاثهم المتنوعة في مصر؛ ومنهم دروفيتي Drovetti، وال بيلزوني Il Belzoni، وال ريتشي Il Ricci، وال بروكي Il Brocchi، وال كافيليا Il Caviglia، وال سيجاتو Il Segato وغيرهم، وجدير بالذكر أن هذا العام* يوافق مرور قرن كامل على انتهاء البعثة الفرانكوتوسكانية، التي استقبلها محمد علي، وقدم لها يد المساعدة في دراساتها وأبحاثها في علم المصريات بوادي النيل.

ومن بين الأعمال الجديرة بالذكر التي قام بها في المجال العلمي المشاركة الفعالة التي قدمها عن طريق رحلته إلى السودان (١٨٣٨-١٨٣٩) والحملات الثلاث التي أرسلها إلى النيل الأبيض (١٨٣٩ - ١٨٤٢) والتي أدت إلى حل مشكلة منابع النيل التي طالت آلاف السنين[١].

وحتى الآن، لم تنجز، برغم مرور أكثر من ثلاثة أرباع قرن على وفاته، أية أعمال أدبية علمية مثمرة حول تاريخ هذا الملك (الوالي)، الذي كانت أعماله عبقرية ومثمرة؛ في حين تحدثت العديد من الكتابات الأخرى عن رجال الدولة الأقل أهمية منه. وهذا لا يعني عدم وجود أية أعمال تاريخية عن مملكة محمد علي، ولكن توجد بعض الأعمال الجديرة بالتقدير والاحترام، مثل أعمال مورييه ومينجين سالفي الذكر، ونضيف إليها دراسات كادالفين Cadalvene وإي بارو E. Barrault حول الأزمتين الشرقيتين (١٨٣٢ - ١٨٣٣) و (١٨٣٩ - ١٨٤٠) [٢].

ولكننا مازلنا بعيدين جداً عن أن يكون لدينا أعمال تصف الصورة الحقيقية لمحمد علي، وتستحضر أعماله بمنتهى الدقة والعمق. وعملية مثل هذه لن تتحقق إلا إذا عرفنا كيف نستثمر أرشيفات مصر وتركيا وأرشيفات أهم مراكز أوروبا. فلم تكن مملكة محمد علي العامل الرئيسي المؤثر في مصر الحديثة، والعنصر المهم جداً في تاريخ تركيا وحسب، ولكنها أصبحت جزءاً مهما جداً وفعالا في السياسة الأوروبية، بل وأحياناً الاهتمام الرئيس. ولذلك إذا لم نفهم ونستوعب جيداً كافة المصادر الموثوق فيها والرسمية الموجودة في كل البلاد التي تأثرت بأعمال ملك

* العام الذي كتب فيه ساماركو هذا التمهيد وهو عام ١٩٢٩ «المراجع».

(١) حول هذه النقطة راجع كتاب أنجلو ساماركو «رحلة محمد علي إلى السودان»(١٥ أكتوبر ١٨٣٨- ٣١ مارس ١٨٣٩)، القاهرة، ١٩٢٩.

(٢) كادالفين و إي بارو، تاريخ حرب محمد علي في سوريا وآسيا الصغرى، ١٨٣٢-١٨٣٣، باريس، ١٨٣٦، عامان من تاريخ الشرق ١٨٣٩-١٨٤٠، المجلد الثاني باريس، ١٨٤٠.

(والي) مصر الواسعة، سيكون من المستحيل كشف الأخبار وفرزها وتمحيصها، والتي سينتج عنها بعض المقارنات التي تسمح لنا برؤية الأمور على حقيقتها، والشعور بقيمتها المؤثرة. ولكن حتى الآن، كُتب تاريخ محمد علي بناء على انطباعات الرحالة، أو بناء على أعمال لم يكن لها سوى أهمية ثانوية، ولم يتم التفكير مطلقا في إعادة بناء تاريخ نهضة مصر وفقا للقانون الأول والأساسي للمنهج التاريخي؛ أي على أساس الوثائق الأصلية التي يتم جمعها بانتظام وتتم دراستها دراسة نقدية. حتى أن الوثائق، التي تكتظ بها أرشيفات القلعة بالقاهرة، والتي ربما تمثل التاريخ الحقيقي لأصول مصر الحديثة، لم يستفد منها تماماً.

وأخيراً وُجِدَ علاجٌ وحلٌ لهذه الحالة الباعثة على الأسى، على يد ابن حفيد محمد علي الملك فؤاد الأول، ملك مصر الحالي، فمن بين الإصلاحات الحضارية التي أراد القيام بها بمنتهى الحكمة المبادرات الثقافية العظيمة التي تعهد بها من أجل تقدم مصر، فكر وقرر الاطلاع على الأرشيفات الدبلوماسية ليس فقط في مصر وتركيا، ولكن في جميع الدول الأوروبية، وذلك بغرض جمع الوثائق المتعلقة بمملكة محمد علي ونشرها. وقد كانت المغامرة صعبة، ولكنها ليست أكبر من إرادة هذا الملك وعظمته.

وجميع الوثائق التركية، التي نقلت إلى مخزنين كبيرين في القصر الملكي بعابدين وفي قلعـــة القاهـــرة قـــد تم تصنيفها في مكتب الترجمة بقصر عابدين تحت إشـــراف وإدارة السيد Deny أستاذ اللغة التركية في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس. ويجري العمل حاليا على تحرير قائمة موجزة بمحتواها، وسوف تنشر باللغة الفرنسية، كما تم الانتهاء من وضع فهرس موسع للوثائق المتعلقة بحروب إبراهيم باشا وبعض القادة المصريين وموجود حاليا بالمطبعة.

في حين أن الوثائق المأخوذة من أرشيفات وزارة الشئون الخارجية في فرنسا وإنجلترا في طريقها إلى النشر، وهناك خمسة مجلدات، طباعة فاخرة، صدرت تحت إشراف بعض المؤرخين الفرنسيين مثل إدوار دريو Eduard Driault وجورج دوان Georges Douin [1]. وقد تم نشر

---

(١) جورج دوان Georges Douin، مصر من ١٨٠٢ إلى ١٨٠٤، مراسلات قناصل فرنسا في مصر، القاهرة، ١٩٢٥، محمد علي باشا مصر(١٨٠٥– ١٨٠٧): مراسلات قناصل فرنسا في مصر، القاهرة، ١٩٢٦، إدوارد دريو، محمد علي ونابليون(١٨٠٧–١٨١٤): مراسلات قناصل فرنسا في مصر، القاهرة ١٩٢٥، تأسيس إمبراطورية محمد علي، من الجزيرة العربية إلى السودان (١٨١٤– ١٨٢٣) القاهرة، ١٩٢٧، جورج دوان وفوتييه جونز E.C.Fawtier Jones، إنجلترا ومصر، حملة ١٨٠٧، القاهرة، ١٩٢٨.

ومع هذه المجموعة من الوثائق، نشرت بعض الأعمال المهمة من أبرزها مؤلف شارلز رو Charles Roux، إنجلترا والحملة الفرنسية على مصر، المجلد الثاني ، القاهرة ، ١٩٢٥.

هذه المجلدات،كما سيتم مع باقي المجلدات الأخرى، بواسطة الجمعية الملكية الجغرافية بالقاهرة، وذلك من خلال المجموعة التي تحمل اسم «إصدارات خاصة تحت رعاية الملك فؤاد الأول المعظم»، والتي أسسها أدولفو قطاوي بك Adolfo Cattaui Bey، وتولى إدارتها حتى وفاته. وحـــالياً يقـــوم بالإشـــراف على هـــذه المجموعة السكرتير الحالي للجمعية هنرى مونييه Henri Munier، الذي يعد قائمة بالمراجع والمصادر المتعلقة بتاريخ مملكة محمد علي. ونشرت الوثائق في ملحق يضم التقارير التي كان يرسلها القناصل والسفراء في مصر إلى حكوماتهم حول الأحوال المصرية. و ترجع العديد من التقارير الفرنسية، الأكثر أهمية إلى الإيطالي بيرناردينو دروفيتى Bernardino Drovetti (١٧٧٦ -١٨٥٢) الذي تولى القنصلية الفرنسية بمصر لعدة أعوام. وكل مجلد عبارة عن مجموعة من الوثائق تسبقها مقدمة، توضح المساهمة الجديدة التي تقدمها هذه المجموعة لعلم التاريخ، وبها أيضًا جدول تحليلي للمواد التي تحتويها، لكي يسهل الرجوع إليها. والمجلدات الخمسة التي ظهرت حتى الآن تتناول الفترة من ١٨٠٢ - ١٨٢٣ وتلقي عليها بأضواء جديدة.

وفي هذه المجموعة الضخمة من المصادر، التي سيؤرخ من خلالها لتاريخ محمد علي على أساس من قواعد راسخة، تمثل الوثائق الإيطالية جزءاً مهماً جداً وإن لم يكن كاملا. ومن كل أرشيفات الدولة الإيطالية أخذت نسخ التقارير الدبلوماسية المتعلقة بمملكة محمد علي، والآن هناك كم ضخم من الوثائق، يقدر بحوالي عشرة آلاف وثيقة، قادم من أرشيفات الدولة بنابولي وفلورنسا، وتورينو، وفينسيا، وفيينا، وبعض المراكز الأخرى الصغيرة، وجميعها موضوعة في المكتبة الملكية بقصر عابدين. وقد تولى الإشراف على هذه المجموعة بمنتهى النشاط والجدية المرحوم أوجينيو جريفيني بك Eugenio Griffini Bey [1] ، و بعد وفاته تم تكليف كاتب هذه السطور باستكمالها ودراستها ونشرها.

وقد تم استكمال البحث ونسخ الوثائق، تحت إشراف الرجال العاملين بالأرشيفات، وهم أشخاص مثقفون تم إعدادهم خصيصًا لهذا الأمر، وقاموا بإنهاء مثل هذا العمل الدقيق بمنتهى

---

(١) ولـــد بميلانو فـى ٢٦ ديسمبر ١٨٧٨ وتوفـى بالقاهرة في ٣ مايو ١٩٢٥. وبعـــد وفاته كتب فيه جي. ليفي ديللا فيتا G.Levi Della Vida رثاء طويلا في مجلة الدراسات الشرقية، بروما، المجلد العاشر، ١٩٢٥، صفحات من ٧٢٦-٧٣٠، وكذلك تشي إيه ناللينو C.ANallino في مجلة تريبوليتانا، روما، عام ١٩٢٥، صفحات من ١٢٤- ١٣٢، و جي ريكييري G.Ricchieri فـى تقارير معهـد لومباردو الملكي بميـلانو مجلــد LVIII ١٩٢٥، وأخيرا مجلـد السنيور لوقا بترامي Luca Betrami، وأوجينيو جريفيني بك Engenio Griffini Bey، ميلانو، ١٩٢٦ (وفيهما بعض التعديلات على يد C.A.Nallino، في الشرق الحديث، VI، ١٩٢٦، صفحات من ٦٤٤-٦٤٥).

المقدرة والنشاط. ففي نابولي تم تكليف الدكتور فتشنزو موريللي Vicenzo Morelli، الأرشيفي الأول، وفي فلورنسا الدكتور جوفاني تشيكيني Giovanni Cecchini، الأرشيفي الأول، وفي تورينو الكونت ألفونسو Alfonso من الكنيسة، كما بدأ العمل في فيينا على يد الدكتور أوتو برونير Otto Brunner، ولكنه لم يستكمله، ولذا يستكمل حالياً على يد الفارس أوتو فيتشنزي Otto Vicenzi وهناك رغبة في اكتشاف باقي المراكز الأرشيفية والأرشيفات الخاصة، على أمل أن يعثر بها على بعض المواد العلمية البحثية المهمة.

وبإجراء اختبار لأوراقنا بعناية على مدار عدة شهور، وبمقارنتها بالأوراق الغربية التي نشرت بالفعل، تأكدنا بمنتهى الدقة من أن الوثائق الإيطالية تمثل مصدراً لا ينضب من الأخبار القيمة عن مملكة محمد علي، وأن نشرها سوف يخدم ويساعد في تقدير تاريخ هذا الملك العظيم وإحيائه. وطوال هذه الفترة، كان ممثلو العديد من الدويلات الإيطالية* يتمتعون بقدر كبير من الذكاء والفطنة؛ بحيث إنهم كانوا يرسلون إلى حكوماتهم بتقارير مفصلة ودقيقة تصف الأحوال والظروف بمنتهى الدقة والواقعية.

فضلاً عن أنه، نظراً لتعدد دويلات إيطاليا في تلك الفترة، وبالتالي تنوع التقارير الدبلوماسية حول الأحداث نفسها، أصبح من الممكن أن نعقد مقارنات مفيدة جداً من المعلومات المختلفة، ومن ثم كان من السهولة تحديد الأحداث بدقة أكثر وبعمق أكبر.

بل وعلى مدار بعض الأعوام التي كانت على درجة كبيرة من الأهمية في تكوين مملكة محمد علي، لم يكن يمثل أوروبا في مصر إلا إيطاليان هما بيرناردينو دروفيتى، سالف الذكر، وكارلو دي روسيتي (١٧٣٦ – ١٨٢٠) وكانا يتصفان بالذكاء والنشاط الكبيرين.

وكما ذكرنا من قبل فإن دروفيتى قد مثل فرنسا بدءاً من عام ١٨٠٣، وتقاريره كانت باللغة الفرنسية، ونشرت ضمن مجموعة الوثائق الفرنسية.

أما دي روسيتي، فقد تم اختياره في عام ١٧٨٤ قنصلاً عاماً للنمسا وتوسكانا، اللذين كان لهما تمثيل دبلوماسي مشترك، وفي عام ١٧٩٧، عندما أصبحت جمهورية فينسيا تابعة للنمسا، أصبح ممثلا لفينسيا، كما لجأت إليه روسيا من أجل مصالحها، ومن ثم أصبح قنصلها بمصر قبل

* لم تكن إيطاليا في تلك الفترة قد وصلت بعد إلى وحدتها السياسية التي لم تبلغها إلا في عام ١٨٧٠، وكانت قبل ذلك تتكون من العديد من الممالك و الدوقيات التي كانت الإمبراطورية النمساوية تسيطر على ما يوجد منها في شمال ووسط شبه الجزيرة الإيطالية «المراجع».

أن يصل دروفيتي، ولما لم يكن لإنجلترا مندوب مقيم في مصر، فقد كلفته أيضا لفترة من الوقت بتولي أعمالها، وبذلك صار هو القنصل الأوروبي الوحيد المقيم في مصر منذ نهاية القرن الثامن عشر، وحتى بدايات القرن التاسع عشر.

وكان دي روسيتي ممثلا عبقريا لدبلوماسية فينسيا؛ إذ كان شخصية تتمتع بذكاء حاد، ذا طابع لين ومليء بالنشاط والحماس، وكان له تأثير كبير على آخر المماليك لاسيما علي بك (١٧٦٦ - ١٧٧٣) ومراد بك (١٧٧٩ - ١٨٠١)، اللذين استخدماه في مباحثاتهما مع القوى الأوروبية. وفي أثناء الغزو الفرنسي وفترة الفوضى التي تبعتها، وجد دي روسيتي نفسه مرتبطا بأهم الأحداث، واستخدم سلطته في الدفاع عن الجالية الأوروبية. وكان يحظى بتقدير بونابرت، وهو ما فاجأ الجنرالات الفرنسيين *. كما كان له رصيد كبير من الاحترام في نفس كليبر، الذي لجأ إليه لعقد اتفاق مع مراد بك. كما استعان به محمد علي في أثناء فترة صعوده الشاقة، وكان دي روستي يحتفظ بين أوراقه بخطاب كتبه إليه في ٢٣ يونيو ١٨٠٥، وعندما تولى الحكم، أصبح دي روسيتي المستشار المخلص الأمين له؛ إذ كان محمد علي يستشيره دائمًا في الإصلاحات التي يريد القيام بها، ومن ثم، فإن دي روسيتي على مدار نصف قرن تقريباً، ساعد وساهم في العديد من التغيرات في مصر، بل إنه كما قال في تعبير بليغ على لسانه: إنه كان داخل هذا المد والجزر المستمرين.

وبسبب ندرة الوثائق التي تغطي تلك الفترة المشوشة والمعقدة من نهاية عصر المماليك إلى بداية حكم محمد علي، ونظراً لوفرة تقارير دي روسيتي ودقّتها، يمكن أن نقول: إنها تمثل مصدراً قيمًا جدًا للتاريخ المصري من نهاية القرن الثامن عشر، وحتى بداية القرن التاسع عشر. وربما لا يوجد لتلك الفترة مصادر دبلوماسية أخرى يمكن أن نستخلص منها أحداث تلك السنوات المنكوبة بكل دقة ووضوح.

وجميع تقارير دي روسيتي[1] السياسية توجد في أرشيفات البلاط الملكي والإمبراطوري، وأرشيف دولة فينسيا؛ لأن دي روسيتي تولى إدارة شئون بعض الدول الإيطالية، مثل جراندوق توسكانا ولومباردو وفينسيا، بسبب تبعية تلك الدول السياسية للنمسا، وكانت التقارير التجارية

* ربما يرجع السبب في ذلك إلى أن دي روستي كان يمثل النمسا التي كانت من أشد الدول الأوروبية عداءً لنابليون ولفرنسا في عهد الثورة «المراجع».

(١) لا يوجد عمل أدبي واحد حول هذه الشخصية الإيطالية، التي كانت تتمتع بأهمية قصوى في فترة حاسمة من تاريخ مصر، والذي يستحق الكثير من هذا البلد. ولكي نسد هذه الفجوة نقترح أن نعطى في المجلد الثاني من هذه المجموعة، لمحة مختصرة عن سيرة دي روسيتى وفقًا للوثائق التي لم يتم نشر الجزء الأكبر منها.

فقط ترسل إلى فلورنسا وفينسيا. ولم تكن التقارير السياسية للقنصل النمساوي في مصر ترسل مباشرة إلى فيينا، وإنما ترسل عبر الرسول النمساوي في القسطنطينية، والذي كان يجمع تقارير القناصل النمساويين بالشرق الذين كانوا مرؤوسين له، ثم يعيد إرسالها إلى فيينا مرفقًا بها ملاحظاته عليها. وبينما كانت تقارير الرسول النمساوي وتقارير القناصل التابعين له، المكتوبة باللغة الفرنسية أو اللغة الألمانية، تأتي موجزة ومختصرة جداً، كانت التقارير القادمة من مصر، والمكتوبة باللغة الإيطالية، ثرية ومليئة بالأخبار.

وبعد وفاة دي روسيتي، توالى العديد من الإيطاليين على إدارة القنصلية النمساوية في مصر، ومن أبرز هذه الشخصيات أتشيربي دي مانتوفا Giuseppe Acerbi di Mantova ، (١٧٧٣ - ١٨٤٦) وهو رحّالة وكاتب ذو شأن كبير، ويذكر أنه هو مؤسس المجلة الشهيرة «المكتبة الإيطالية» La Biblioteca Italiana، وفي أثناء إقامته في مصر (١٨٢٦ - ١٨٣٥)، أرسل إلى المجلة العديد من المراسلات التي توضح وتكمل مراسلاته، ومن المقترح جمع هذه المراسلات في مجلد؛ لأنها تعتبر إلى حد ما غير منشورة، حيث إنها غير منتشرة، ولم يستفد منها بالقدر الكافي في علم التاريخ، ولا تزال مدفونة كما هي في العديد من أبرز المجلدات بالمكتبة الإيطالية وأندرها. كما يوجد أيضاً، في مكتبة مانتوفا العامة، بفضل جهود أتشيربي بعض المخطوطات غير المنشورة التي نتج عنها عمل ضخم في علم المصريات إلى جانب بعض المراسلات الأخرى ؛ ومن ضمنها خطاب شامبليون، الذي يوضح التقدير الكبير الذي كان يحظى به أتشيربى من الشخص الذي فك رموز اللغة الهيروغليفية*. وهذه المصادر سوف تراجع، وإذا ثبتت أهميتها، سوف تنشر.

وبعد أوراق فينسيا، وفقًا للترتيب الزمني، تأتي أوراق مملكة الصقليتين ** التي أنشأت قنصليتها في مصر عام ١٨١٢، والمكاتبات تبدأ من هذا التاريخ، ولكن زادت وأصبحت أكثر ترتيباً في عام ١٨١٦، أي عند عودة البوربونيين إلى نابولي بعد الاستعادة*** عام ١٨١٥. وطوال الفترة السابقة منذ عام ١٨١٢ تولى شئون مملكة نابولي القنصل العام للسويد السيد كارلو فانتوسى Carlo Fantozzi di Livorno، الذي كان أيضاً وكيلا للعلاقات التجارية لهولندا.

* الأصح الكتابة الهيروغليفية أو اللغة المصرية القديمة . «المراجع»

** كانت مملكة الصقليتين تضم جزيرة صقلية والقسم الجنوبي من شبه الجزيرة الإيطالية، وكان يحكم هذه المملكة ملك من أسرة البربون ويتخذ من مدينة نابولي عاصمة له.«المراجع»

*** عقب انهيار الإمبراطورية النابليونية الأولى وهزيمة نابليون في معركة واترلو اجتمع ممثلو الدول الأوروبية المتحالفة في فيينا، وقرروا إعادة الأوضاع في أوروبا إلى ما كانت عليه قبل الثورة الفرنسية، أو على الأقل إلى أوضاع تكون أكثر ملائمة لمصالحهم ، وكان أهم ما تقرر عودة أسرة البربون إلى الحكم في فرنسا، وفي المناطق التي كانت تابعة لها في شبه الجزيرة الإيطالية وغيرها «المراجع»

وكانت وثائق نابولي هي الأكثر وفرة من وثائق باقي الدول؛ ولذا يمكن أن نقول: إنها تمثل دعامة كبيرة. وهي تحتوي على أخبار دقيقة ومهمة فيما يتعلق بالنشاط السياسي والعسكري والاقتصادي في مصر. وقد اتضح عمل محمد علي عن طريق تعليق رجل عادل ونزيه هو ريكاردو فانتوسى Riccardo Fantozzi، نجل كارلو المذكور، والذي تولى مهمة الإشراف على قنصلية نابولي العامة طوال فترة حكم محمد علي. وقد عثر في مراسلات ريكاردو فانتوسى على العديد من المرفقات القيمة الجديرة بالاهتمام ؛منها نشرات عسكرية، وقوائم أسعار، وأخبار إحصائية، وفقرات من الجرائد الصادرة في تلك الفترة، ومشاريع تشريعية في مادة ضريبة الدخل، وأخبار عن القطع الأثرية والفنون الجميلة..إلخ، وهذا فضلاً عن العديد من الخطابات الثرية بالمعلومات الخاصة بحملة اليونان (١٨٣٢ - ١٨٣٣)، كما توجد تقارير اثنين من المبعوثين المرسلين إلى معسكر إبراهيم باشا حول حملة سوريا Siria (Syria) * الأولى (١٨٣٢ - ١٨٣٣).

كما تم نسخ تقارير القنصل البوربوني بالقسطنطينية؛ وهي توضح الصراع التركي المصري منذ نشأته، وحتى تطوره، وفي فترته الحاسمة.

والجدير بالذكر أن أرشيف نابولي كان ملحقًا به مكتبة، على طراز حديث، وكانت تضم مختارات من المجلات والجرائد الأوروبية الموثوق فيها، وقد جمع بها بعض الوثائق غير دبلوماسية المصدر، مثل العديد من الخطابات الخاصة والمذكرات.... إلخ.

كما أخذت من هذه المصادر المناسبة جداً بعض النسخ التي تتعلق بمصر، وتمثل عناصر تكميلية مهمة ومفيدة للتقارير القنصلية، ولن نغفل نشر النسخ الأكثر أهمية منها.

ولم يرسل أرشيف آخر أية وثائق من هذا النوع.

***

وتشكل وثائق أرشيف دولة فلورنسا في مجملها مجموعة أقل وفرة من وثائق أرشيف نابولي، وبمعرفة الأحداث التاريخية التي مرت بها توسكانا، فإن السنوات من (١٨٠٠ - ١٨١٥) كانت تشكل ثغرة كاملة، حيث إن السياسة التوسكانية الخارجية في تلك الفترة كانت تقوم بها أسبانيا في أثناء السيطرة البوربونية (١٨٠١ - ١٨٠٧)، ثم فرنسا طوال حكم نابليون (١٨٠٨ - ١٨١٤). وبعد الاستعادة، في الفترة الأولى، كان التمثيل الدبلوماسي مشتركًا مع النمسا، ولكن الأعمال

* يلاحظ اختلاف الحروف الهجائية لبعض الأقطار والدول آنذاك عما هي عليه في وقتنا الحاضر . «المراجع»

كانت مميزة، وفي سلسلة المراسلات مع المندوبين الدبلوماسيين والقنصليين توجد العديد من الأخبار الخاصة بمصر، وبعد عام ١٨٢٢ أصبح هناك فريق قنصلي توسكاني حقيقي، حيث تزايدت الأعمال. ومن بين أوراق فلورنسا، توجد تقارير قنصلية من القسطنطينية، أُنتجت في فترة محددة بين عامي (١٨١٥ - ١٨٣٤) على يد المندوب القنصلي النمساوي بالقسطنطينية نفسه، مثل التقارير السابقة، ثم على يد القائم بالأعمال التوسكاني. وعلى العكس من ذلك ففي الفترة من (١٨٣٣- ١٨٣٤) كانت توجد تقارير لجميع الممثلين. ومن الواضح أن القائم بالأعمال التوسكاني قضى فترة اختبار تحت إشراف الممثل النمساوي، وهو البارون ستورمر Sturmer، المبعوث العاجل والوزير المفوض لدى الباب العالي، وكل هذه المراسلات القادمة من القسطنطينية تساعد كثيراً في استكمال المعلومات القادمة من مصر.

ومن الملاحظ أن وثائق توسكانا، على اختلافها مع باقي الوثائق الأخرى، تنقسم إلى مجموعتين: الأولى هي مجموعة «أعمال البروتوكول العام الخاص بوزير الشئون الخارجية» وتتعلق بأسئلة حول العلاقات المباشرة، السياسية والتجارية بين مصر وتوسكانا، أو بين مصر والتوسكانيين المقيمين فيها. ولهذه الأوراق قيمة محدودة بالنسبة لتاريخ مصر، ولكنها مهمة جداً لاسيما في معرفة الهجرة والأنشطة الإيطالية؛ لأنها تعطى عن هذه الأنشطة مجموعة وفيرة من الأخبار من كافة الأنواع. وقد أعيد بناء الحزم المختلفة بناءً شاملاً بطريقة الملفات الأرشيفية، أي أنها تحتوي على خلاصة تسجل أعمال السكرتارية وتعطي نبذة عن سير العمل، وترفق بها الوثائق وخطابات المراسلات التي وصلت إلى السكرتارية.

أما المجموعة الثانية فهي تعتمد على معلومات المراسلات السياسية الفعلية المرسلة إلى سكرتارية وزير الشئون الخارجية، وهي الأكثر أهمية من منظور تاريخ مصر؛ لأنها تدون الوقائع والأحداث التاريخية وفق تسلسلها الزمني، مقدمة العديد من الأخبار التي كانت مازالت مجهولة إلى الجمهور العريض، وغالباً ما توجد في تلك المجموعة نشرات عن الحركة البحرية بالإسكندرية وبعض الأخبار الصحية.

ونظراً لأهمية تجارة ليفورنو مع مصر، كان الممثل التوسكاني يتبادل المكاتبات الخاصة مع حاكم هذه المدينة، والتي كانت هي الخطابات نفسها المرسلة إلى فلورنسا، ولكنها تحتوي على أخبار مختلفة، وأحيانًا مهمة إلى حد ما.

وتبدأ وثائق أرشيف دولة تورينو منذ عام ١٨٢٥ فقط، وهي ليست كثيرة بالقدر الكافي، ولكنها في المقابل كانت تمثل أهمية قصوى، وقد أنتج الجزء الأكبر منها باولو شيروتى Paolo Cerruti، القنصل العام في الفترة من (١٨٣٧ - ١٨٥٤)، وهو رجل نشيط وذكي، وهو الذي أملى التقارير التي أصبحت نموذجًا يحتذى به، لاسيما حول الأزمة الخطيرة الخاصة بالمشكلة الشرقية في الفترة من (١٨٣٨ - ١٨٤١)، وهذه الأوراق تحتوي على كمية من الأخبار الجوهرية والقيمة وتوضح صراع التأثير، ومصالح القوى المختلفة. وهناك خطاب مؤرخ في ١٦ نوفمبر ١٨٤٠ حول نوايا إنجلترا ومصالحها في مصر، يبدو وكأنه كتب اليوم (١٩٢٩)، نظرًا لدقة الأحكام والتوقعات، فضلاً عن أن هذه الوثائق ثرية ببعض الأحداث الرسمية والعديد من المصادر المهمة، التي رويت إما بإيجاز أو بتفصيل، وهناك العديد من خطابات إبراهيم باشا الجديرة بالملاحظة حول الحملة الثانية ضد تركيا، وكذلك تقارير نائب قنصل بيمونتيه روبيرتو فيرنوني Roberto Vernoni، الذي كان يقيم بالقاهرة - حيث كان القنصل العام يقيم بالإسكندرية، وفقًا للتقاليد المتبعة مع ممثلي باقي الدول - كانت تتميز بغزارة الأخبار المفيدة، كما يوجد تقرير طويل نسبياً مؤرخ في يونيو ١٨٤٧ يمثل أهمية خاصة؛ حيث إنه يعطي بعض التفاصيل حول الدراسات التي تجرى من أجل حفر قناة السويس وحول المساهمة الملحوظة للمهندسين الإيطاليين.

وكانت التقارير الخاصة بالفترة من ١٨٤٩ - ١٨٥٠ والتي تدور حول نهاية إبراهيم ومحمد علي، وحول العلامات الأولى لانهيار وسقوط عملهما على يد من سيلحقهما، مؤثرة ومثيرة للإشفاق، على الرغم من وقارها البيروقراطي.

***

وبفحص وثائق أرشيفات فينيسيا، فوجئنا من النظرة الأولى بأنها قليلة، ولا تمثل أية أهمية سياسية؛ فهي تهتم حصريا بالشئون التجارية، ولكن الدهشة انتهت عند دراسة وثائق أرشيفات فيينا، التي كانت كما سبق أن أشرنا، تتعلق في جانبها السياسي، ببعض الدويلات الإيطالية ومن بينها فينيسيا.

وفيما يتعلق بخطة نشر الوثائق فقد انتقينا الوثائق المرتبة ترتيباً زمنيًا، أما الخطة المنهجية، التي يتبعها بعض الدارسين، والقائمة على جمع الوثائق في فصول ومجلدات، كل منها يتعلق بموضوع واحد أو مسألة واحدة، فإنها تحمل في طياتها عيباً؛ لأنها تفصل الحدث أو المشكلة عن باقي الأحداث والمشكلات المتزامنة معها، والتي يوجد بينها ارتباط تبادلي. وبهذه الطريقة يمكن

أن يحدث أن وثيقة واحدة لا يمكن فصلها تاريخياً، يتم تجزئة الأحداث والمسائل التي تحتويها إلى عدة أجزاء وذلك على حساب وضوحها. أما الترتيب الزمني على العكس من ذلك، فهو ينتج الوثائق في صورتها الكاملة وفي مكانها التاريخي، تاركًا للمؤرخين حرية جمعها وإعدادها وفقًا لأفكارهم وأهدافهم. ولتسهيل هذا العمل، سوف يزود كل مجلد بجدول زمني للوثائق، وبسجل للأسماء وبجدول تحليلي للمواد، وبهذه الطريقة، فإن من يدرس مسألة أو أمرًا وليست لديه الرغبة أو الوقت لقراءة كل شيء، يمكنه بسهولة أن يبحث عن الوثائق التي تتعلق بموضوعه. وسوف يسبق كل مجلد بمقدمة، يتم فيها وضع الوثائق في إطارها التاريخي، وتوضيح مدى الفائدة المهمة التي تعود بها على المعرفة التاريخية، وجميع مقدمات المجلدات المختلفة ترتبط فيما بينها من حيث كونها تشكل تاريخًا كاملاً لمملكة محمد علي. وكذلك جداول الترتيب الزمني، وسجلات الأسماء والجداول التحليلية للمواد سوف تدمج مع بعضها لتسهيل الاستعانة بالعمل بأكمله، والذي قد يحتوي على ثلاثين مجلداً يقع كل منها في حوالي ٣٠٠ صفحة.

والترتيب الزمني، يتيح لنا أن ننهي المجلد عند أي تاريخ، بحيث نتحكم في الحجم حتى لا يخرج مجلد أكبر كثيراً من غيره، وفي كافة الأحوال فإننا سنراعي جعل نهاية كل مجلد تتوافق مع تاريخ مهم .

وتبدأ هذه المجموعة الوثائقية من اللحظة التي رحل فيها الفرنسيون عن مصر (١٨٠١)، على الرغم من أن مملكة محمد علي لم تبدأ إلا في عام ١٨٠٥، ولكن معرفة سنوات الاضطراب الشامل (١٨٠١ - ١٨٠٥)، توضح وتبرر تأسيس مملكة محمد علي.

وبإخراج هذه الكمية الضخمة من وثائق قنصليات الدولة الإيطالية إلى النور، لن يقف الأمر عند تعريف الناس بتاريخ محمد علي بصورة أفضل، ولكنه يتعدى ذلك ليجعله شخصية جديرة بالاحترام والتقدير. وستتضح للجميع مزاياه وخصاله الحميدة كفاتح وسياسي، وسيندهش الجميع من عدله وسعة أفكاره وروحه المتسامحة، وسيرى الجميع أن عمله جاء بدافع من مشاعر كرم إنسانية نبيلة، وسيظهر محمد علي على صورته الحقيقية كمؤسس عبقري لمصر الحديثة.

وفي النهاية، اعترافًا منا بالجميل وجب علينا أن نوضح أن هذا النشر الموسع للوثائق، إذا كان سوف يمثل، بالنسبة لمصر، تقدما في معرفة فترة أساسية من تاريخها الحديث وعملاً شرعياً لتكريم بطل هذه الفترة؛ فإنه سوف يحمل لنا نحن الإيطاليين نتيجتين مهمتين متوازيتين، فالأحداث، التي كانت حتى الآن معروفة على نحو واه، والتي تتعلق بهجرتنا إلى مصر، والتي

شهدت تزايداً في النصف الأول من القرن الماضي بسبب الظروف السياسية لإيطاليا، سوف يعاد بناؤها بمنتهى الدقة، وبذلك سوف تعرف بصورة أفضل صفحة من تاريخ عصر البعث لدينا. فضلاً عن أن المساهمة القيمة التي قدمها مواطنونا في جميع المجالات، هؤلاء الرجال أصحاب الفكر الراقي والنشاط المتوهج، ومشاركتهم تحت إشراف محمد علي في تحديث مصر، سوف يتم إقرارها بمنتهى الأمانة العلمية. وهناك مجلد خاص سوف يتعرض لهذا الموضوع، وسيكون تحريره لكاتب هذه السطور بالمشاركة مع أرنستو فيروتشي بك Ernesto Verrucci Bey، كبير مهندسي القصور الملكية بمصر.

مقدمة تاريخية

مصر في عصر الفوضى

(يوليو ١٨٠١ - يوليو ١٨٠٤)

موجز

- أحوال مصر في أثناء حكم المماليك وتحت سيطرة الباب العالي.
- الغزو الفرنسي.
- الأتراك والمماليك والإنجليز بعد رحيل الفرنسيين.
- مقتل البكوات.
- محمد خسرو حاكم مصر .
- الحرب الأهلية بين الأتراك والمماليك.
- انتصار المماليك في دمنهور .
- محاولات إنجليزية فاشلة من أجل المصالحة .
- ثورة الأرناؤوط .
- شهادة خسرو وهروبه.
- حكومة طاهر قصيرة الأجل.
- عودة المماليك إلى القاهرة ومشاركتهم في الحكومة مع محمد علي.
- هزيمة خسرو وأسره.
- الحاكم الجديد (علي الجزايرلي).
- صراعه، ومباحثاته مع البكوات .
- إهانات موجهة للقناصل في الإسكندرية .
- مقتل علي الجزايرلي.
- صراع قاتل بين المماليك .
- الأرناؤوط ضد المماليك .
- طرد المماليك من القاهرة .
- خورشيد باشا حاكماً .
- الصراع بين الأرناؤوط والمماليك حول القاهرة .
- انتصار الأرناؤوط على المماليك بفضل محمد علي .

من أجل أن ندرك جيداً مدى الصعوبات، ولنقّم بدقة عظمة، العمل الذي قام به محمد علي في مصر وأهميته، يجب علينا أن نلقي نظرة على الأحوال التي كانت تمر بها البلاد في الوقت الذي دخل فيه إلى مسرح الأحداث. ويمكن أن نعرّف تلك الظروف باختصار بأنها فوضى حقيقية، تسببت في زيادة الأضرار الناجمة عن ثلاث سنوات من الحرب والعصيان (١٧٩٨ - ١٨٠١) بعد أن تحررت البلاد بعد طرد الفرنسيين (أكتوبر ١٨٠١)، والأكثر من ذلك، أن هناك العديد من الأضرار التي تعرَض لها الشعب الذي عاش لأكثر من خمسمائة عام تقريباً (١٢٥٠ - ١٥١٧) خاضعاً لواحد من أسوأ أنواع القهر والظلم التي يذكرها التاريخ *.

ومصر، بالفعل، بعد الأسرة الأيوبية المجيدة (١١٧١ - ١٢٥٠) وتقريباً في الفترة التي كانت فيها أوروبا تقودها العبقرية الإيطالية، تتخلص من آثار العصور الوسطي وتقوم ببناء حضارة النهضة - وقعت تحت سيطرة المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧)، وحكمهم، على الرغم من أنها كانت مليئة بأعظم المحاربين، وأروع الفنانين، واعتمدت في الأساس على الإقطاع العسكري، الذي يقهر ويستغل الشعب بطريقة مخجلة، وفي ظل الحكم العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨) ساءت أحوال مصر؛ ليس فقط بسبب حكم النخبة العسكرية الذي استمر في ضرب البلاد، ولكن بسبب نضوب معين المحاربين والفنانين، وقلة المكاسب التجارية، وفقدان مصر أهميتها كطريق نقل بسبب تحول طريق المواصلات المهمة من البحر المتوسط إلى الأطلنطي.

ندرت الفترات التي كانت تأتي فيها حكومات متسامحة، وزاد معدل الفترات التي أصبح فيها الطغيان قاهراً مدمراً، مما يعد في التاريخ ظاهرة غير عادية وضد الطبيعة.

وجميع الشواهد المعاصرة تتفق على إدانة مثل هذا النوع من الحكم السيئ، الذي أنهك شعبا خصيبا يعيش في واحدة من أخصب المناطق في العالم، وأجبرته على العيش في أحوال يفوق بؤسها الوصف، مادياً ومعنوياً. ووضع السيد جوفاني دونا Giovanni Dona، سفير فينسيا، بعد إقامته حوالي ٥٢ شهراً في مصر، تقريراً مطولاً عن الأحوال في مصر[1] حرره في عام ١٦٣٥، وهو تقرير جدير بالتقدير والاحترام لدقة الأخبار وذكاء الملاحظات التي جاءت به، ويلخص فيه أحداث البلاد حيث ورد فيه :

* تشير هذه السنوات إلى حكم الدولة المملوكية التي انتهى عهدها بفتح العثمانيين لمصر في عام ١٥١٧ ومع ذلك ظل نفوذ المماليك قائماً في مصر فيما صار يعرف بالنظام العثماني المملوكي . «المراجع»

(١) التقرير محفوظ وغير منشور في أرشيف الدولة في فينسيا (تقرير B 31، ٢٠ نوفمبر عام ١٦٣٥) ونعتزم نشره قريباً.

«إن سيطرة الطغيان، والجيش الضعيف، والثروات الضخمة، وفيض الزعماء الغامر، والشعب البائس، وحكومة تغلب عليها المصالح دون اعتبار للعدالة والحكم القويم... وكان الباشا يوزع المناصب على من يقدمون إليه أكثر الهدايا، وأنفق الكثير على المَلك * وعلى رؤساء الوزراء ليظل على رأس تلك الحكومة (مصر)، ولكي يدفع للملك يوميا لقاء التأكيد له، وكانت الأموال تؤخذ من أصحاب المناصب الذين يأخذونها من الأثرياء، والأثرياء من الفقراء؛ حتى أصبح الشعب كله بائس الحال بسبب هذه العلاقة الظالمة... أما باقي الشعب فكان يعاني من الفقر والبؤس فضلا عن الحياء والجبن، بعد أن أصبح يخضع لأوضاع حقيرة تجعله غير كفء لحمل السلاح».

وكانت الصورة التي وضعها السيد فولني Voleny أكثر ألماً، عندما زار مصر في الفترة من (١٧٨٣ - ١٧٨٥)، أي قبيل غزو نابليون، حيث كتب يقول :

«إن عادات المماليك كانت تثير الخوف، فإذا احتفظنا بالصفات البسيطة للحقيقة قد نُتهم بالمبالغة المغرضة... كانوا جهلة يؤمنون بالخرافات، وهم شرسون في ارتكاب الجرائم، محرضون على إثارة الفتن والاضطرابات، مخادعون بارعون في تدبير المكائد والمؤامرات، وأنذال لديهم القدرة على الرياء والخداع، يميلون إلى كل نوع من أنواع الرذيلة. وبصفة خاصة كانوا يميلون إلى تلك الرذائل المخجلة التي كانت دائما من صفات الإغريق والتتار؛ وهذا هو الدرس الأول الذي كانوا يتلقونه من معلميهم في الجيش ... هذا هو نوع الرجال الذين كانوا في تلك الفترة هم قَدَر مصر ونصيبها، نفوس بهذا الطابع كانت على رأس الحكم، والسيادة لم تكن بالنسبة لهم ذلك الفن الصعب في القدرة على توجيه الآمال والطموحات المختلفة للعديد من الجماعات، نحو هدف عام واحد، بل على العكس من ذلك؛ لم تكن تتعدى كونها وسيلة للحصول على عدد أكبر من النساء والمجوهرات والخيول والعبيد، وذلك من أجل إرضاء نزواتهم وشهواتهم. ولذا يمكننا أن نتخيل بمنتهى السهولة أن كل شيء في مثل هذا البلد كان مماثلا لهذا النظام؛ فعمال الأراضي مثلا كانوا مأجورين، يخصص لهم فقط ما يكفي لسد رمقهم في أضيق الحدود؛ حتى لا يموتوا جوعاً، ومساكنهم كانت عبارة عن أكواخ يختنقون فيها من حرارة الجو والدخان، وتحاصرهم الأمراض الناشئة عن القاذورات والأوساخ، والرطوبة، وسوء التغذية، وفي النهاية حتى يفيض الكيل، يمكن أن نضيف إلى تلك الأضرار الجسدية حالة الفزع المعتادة، والخوف من عمليات النهب التي يقوم بها البدو، وزيارات المماليك، وثأر العائلات، وجميعها أمور مقلقة ومثيرة لحروب أهلية مستمرة

* يقصد بالملك هنا السلطان العثماني «المراجع».

وكل ما نشاهده ونسمعه، يؤكد أننا في بلد العبودية والطغيان، وليس هناك حديث سوى الاضطرابات الأهلية، والفقر العام، وابتزاز الأموال، والضرب بالعصا، والجرائم. ولا يوجد أي نوع من الأمان بالنسبة للحياة وللممتلكات. فكان يسفك دم إنسان، كما يسفك دم ثور»[١].

وبونابرت،الذي كان عقله زاخراً بالابتكارات والإصلاحات المفيدة في فرنسا وفي أوروبا كلها، قام برعاية عمل شهير لوصف مصر، ولكنه لم يستطع أن يفعل إلا القليل الذي يكاد لا يذكر لتحسين الأحوال السياسية والاجتماعية للسكان؛ لأنه كان مشغولا دائماً في الوقت القصير جداً الذي قضاه في البلاد في صد الهجمات الخارجية وقمع الثورات المحلية.

وبناء عليه لنا أن نتخيل أي حال من الفوضى والانهيار كان يعيش فيها الشعب المصري مع حلول عام ١٨٠١، وكم كانت هناك حاجة لحكومة رشيدة وقوية، ولكن على العكس - وهو الشيء الذي يستعصي على التصديق - لم تشهد البلاد إلا مزيداً من فظاعة الويلات؛ لأنها سقطت فريسة لفوضى شرسة.

بمجرد أن رحل الفرنسيون عن الأراضي المصرية، نشب خلاف بين الأتراك، وبين المماليك، والإنجليز، الذين كانوا متحالفين من أجل محاربة العدو المشترك، حيث اختلفوا فيما بينهم على تقسيم غنائم الانتصار.

وقبل أن يستعيد الباب العالي مصر، قرر أن يقضي على نظام البكوات، الذين استحوذوا على السلطة بأكملها في أيديهم خلال الفترة التي سبقت الغزو الفرنسي، كما قرر أن يجردهم من أي سلطة كانوا يمثلونها، ولذا أعلن المماليك تمردهم على السلطان، كما فعل من قبل علي بك (١٧٦٦ - ١٧٧٣)، ثم من بعده مراد بك (١٧٧٩ - ١٨٠١)، الذي كان حليفاً للفرنسيين. وكان أولئك البكوات عاقدي النية بمنتهى الإصرار على الاستعادة الكاملة لنفوذهم، وامتيازاتهم القديمة دون حدود.

أما عن الإنجليز، الذين كانوا من قبل، ومنذ النصف الثاني من القرن الماضي مهتمين بشدة بطرق المواصلات في البحر المتوسط، والبحر الأحمر، فقد أصبحوا الآن، بسبب تهديد نابليون لسيطرتهم الهندية، مدركين تماماً لأهمية مصر بالنسبة لأملاكهم في الشرق، ولذا حاولوا الاحتفاظ بتأثيرهم عليها؛ وليمنعوا أي عودة محتملة للفرنسيين.

---

(١) راجع فولني، رحلة في مصر وسوريا خلال الأعوام ١٧٨٣ و١٧٨٤ و١٧٨٥، باريس، ١٨٢٥، الجزء الأول، صفحات ١٤٥- ١٥١.

والأخطر من ذلك في هذا الصراع القائم على المصالح، أن كل طرف من تلك الأطراف الثلاثة كان منقسماً بدوره بسبب الاختلافات الداخلية في الآراء.

والشخصيتان التركيتان المهمتان اللتان جاءتا إلى القاهرة للتصدي للفرنسيين، هما الصدر الأعظم يوسف باشا، قائد القوات البرية، والقبطان باشا حسين، قائد الأسطول، وكان كلٌ منهما يكن مشاعر كره للآخر بسبب المنافسة على السلطة.

والمماليك، الذين كونوا قبل عام ١٧٩٨ فريقين متنازعين مختلفين؛ أحدهما ملتف حول إبراهيم بك، والثاني حول مراد بك، سرعان ما تدهورا بعد موت مراد، وكان الشقاق قائماً بينهم بسبب تبعيتهم لثلاثة قادة مختلفين، هم: إبراهيم بك، وعثمان بك البرديسي، و محمد بك الألفي. كما لم تخلُ السياسة الإنجليزية تجاه مصر من الخلافات الداخلية.

والقائد الأعلى للجيش الإنجليزي هاتشينسون Hutchinson، من أجل أن يضمن مساعدة المماليك له في الصراع ضد الفرنسيين، وعد البكوات، باسم الملك والجيش، بأن يستردوا سلطاتهم القديمة، ولكن السفير الإنجليزي بالقسطنطينية اللورد إلجن Elgin، لم يعارض تصميم الباب العالي في القضاء على قوة البكوات.

وكانت قوات الأطراف المختلفة موزعة بهذه الطريقة:

الصدر الأعظم كان يحتل القاهرة، وأهم مناطق مصر الوسطى والعليا بجيش قوامه حوالي ٣٠ ألف رجل، الجزء الأعظم منهم إنكشاريون وعصابات غير نظامية من سوريا.

وأسطول قبطان باشا كان راسياً في أبي قير، وكان متمركزاً في منطقة الدلتا، بالقرب من السفن العثمانية، وبه حوالي ستة آلاف جندي إنكشاري وأربعة آلاف أرناؤوطي، الذين نزلوا من تلك السفن. وكان يتولى قيادة الأرناؤوط محمد على وطاهر باشا.

وكان قوام الجيش الإنجليزي الذي جاء من أوروبا حوالي ١٦ ألف جندي، وهم يمثلون حاميات في كل من الإسكندرية ورشيد ودمنهور، كما كانت هناك كتيبة إنجليزية قادمة من الهند قوامها ستة آلاف جندي، خيمت في الجيزة أمام القاهرة، غرب النيل. وفى معسكر الجيزة كان يوجد المماليك، الذين أُبيد كثير منهم في المعارك التي نشبت بينهم وبين الفرنسيين لمدة ثلاث سنوات، حتى وصل عددهم إلى أربعة آلاف فارس من بينهم بضع مئات من عبيد سنار (شمال السودان)، ظلوا محسوبين على البكوات.

وكان الصراع على المصالح خطيراً لاسيما بين الأتراك والمماليك، ولذا سرعان ما انفجر الخلاف على شكل صراع مفتوح وعنيف. وبدأ القادة الأتراك، معتمدين على الحيادية الإنجليزية وتفوق قواتهم، وقبل جلاء الفرنسيين عن مصر، يتصرفون وفقًا للأوامر التي تصلهم من الباب العالي، والتي كانت تطلب منهم القبض على البكوات المماليك، وإرسالهم إلى القسطنطينية(١).

وفي الأول من أكتوبر كتب قبطان باشا إلى البكوات التابعين لمراد بك، يدعوهم للذهاب إليه من أجل اتخاذ بعض الإجراءات لإعادة بناء مصر وتنظيمها، وأغراهم بالمميزات، وبإلحاق الضرر بالبكوات التابعين لإبراهيم بك.

وكانت المنافسة واضحة جداً بين قبطان باشا، والصدر الأعظم، ومن ثم أضفت العلاقات الحميمة بين الصدر الأعظم، وإبراهيم بك نوعًا من المصداقية على دعوة قبطان باشا للبكوات التابعين لمراد بك.

وفي ١٥ أكتوبر ترك كبار البكوات التابعين لمراد القاهرة، وسافروا إلى معسكر قبطان باشا في أبي قير، حيث استقبلهم بمنتهى الود والصداقة، وأقيمت الاحتفالات الضخمة لعدة أيام دون الدخول في نقاش حول الأمر الذي دعاهم من أجله.

وقد أدى هذا الصمت إلى إثارة الغضب في نفوس البكوات، وقرر بعضهم العودة إلى القاهرة دون أخذ إذن من قبطان باشا، الذي، بمجرد أن علم بشكوك ونوايا البكوات، حتى بادر بعقد اجتماع عام في ٢١ أكتوبر، حضره قادة جيشه والبكوات، وأمر بقراءة فرمان صادر من الباب العالي، وبه يمنح العفو لكل فرق المماليك، ويمنح كل قائد من قادتهم درجة شرفية تتلاءم مع الامتيازات السابقة التي كانت لهم. وفي نهاية الاجتماع اقترح قبطان باشا على البكوات أن يذهبوا جميعاً إلى الإسكندرية؛ ليوقعوا الاتفاق السعيد مع الجنرال هاتشينسون، وليودعوه قبل عودته إلى إنجلترا.

ووافق البكوات على ذلك، وفي اليوم التالي، الموافق ٢٢ أكتوبر، بعد اقتراح قبطان باشا، أرسلوا جنودهم قبلهم، وسافروا على متن زورقين مع القبطان، متوجهين نحو بحيرة المعدية بالإسكندرية. وفي لحظة معينة تقابل الزورقان مع قارب آخر، وكان هذا القارب يحمل خطاباً لقبطان باشا، الذي تعلل بأنه يريد أن يقرأ الخطاب بتركيز، وانتقل إلى قارب آخر، وأمر البكوات بمواصلة سيرهم.

---

(١) وثيقة رقم ٥.

وعند نزولهم إلى البحيرة في المرسى، فوجئ البكوات بظهور سفينة مدفعية أمامهم محملة بعدد من الجنود الذين أطلقوا النار عليهم على الفور.

وكانت أية مقاومة من قبلهم تعد نوعًا من أنواع العبث، وقتل ٥ بكوات، في حين أصيب آخرون بجراح شديدة، وحملوا أسرى على متن سفينة نائب الأميرال.

كان سخط الجنرال والجيش الإنجليزي كبيراً جداً عند سماعهم نبأ هذه المذبحة. وعلى أثر ذلك تلقى قبطان باشا تهديدًا خطيرًا من الجنرال هاتشينسون، وأجبره على إطلاق سراح البكوات الأسرى وتسليم جثث القتلى[١].

وفي الوقت نفسه تقريبًا، وبالتحديد في ٢٠ أكتوبر، أرسل الصدر الأعظم في طلب البكوات ليحضروا إلى قصره، بحجة أنه سيقرأ عليهم الفرمان الذي سيمنحهم المناصب والتشريفات، ولكنه قام بإلقاء القبض عليهم [٢]. وبعد عدة مراوغات، استجاب هو الآخر، وأفرج عن البكوات خشية من تهديدات القادة الإنجليز[٣].

***

كان الصدر الأعظم يتوقع الخطر الكبير الذي قد يهدد أمن البلاد، إذا ترك البكوات بدون اتخاذ أي احتياط من جانبه، ولذلك، بدأ المباحثات معهم عن طريق السيد دي روسيتي، وبعد أن بدا أنه سيتمكن من التوصل إلى اتفاق، لم تلبث أن توقفت المباحثات بسبب خطاب من القائد الإنجليزي الجديد اللورد كافان Cavan، الذي أعلن أن السفير الإنجليزي بالقسطنطينية، اللورد إلجن ينوي الحضور شخصيًا إلى مصر لحل مشكلة البكوات، ولكن نيابة عنه وصل إلى الإسكندرية في ١٠ يناير ١٨٠٢، سكرتيره ستراتون Straton، الذي انتقل على الفور إلى القاهرة برفقة الجنرال كافان.

وبمجرد أن بدأت المناقشة اتضح أن هناك تناقضًا بين الوعود التي قدمها القادة الإنجليز للبكوات وتصريحات السفير اللورد إلجن بالقسطنطينية. وصرح ستراتون للبكوات بأن الحكومة الإنجليزية لا تنوي التدخل مطلقًا في النظام الجديد الذي سيضعه الباب العالي لمصر، ولن تصبر أكثر من ذلك، حتى يتسامح مع البكوات، ولكن كل ما تهدف إليه الحكومة الإنجليزية هو أن

(١) الوثيقتان رقم ٥، ٦.
(٢) الوثيقتان رقم ٤، ٥.
(٣) وثيقة رقم ٣.

تضمن للبكوات كامل الحرية في الانسحاب بكامل أموالهم وأمتعتهم للإقامة بأمان خارج مصر، في أية مقاطعة تابعة للإمبراطورية العثمانية يختارونها هم بأنفسهم.

وكان الصدر الأعظم يريد أن يجبر الجنرال كافان البكوات لقبول هذا الاقتراح، ولكن الجنرال نفسه لم يكن راضياً عن تصريحات ستراتون و رفضها.

وكان الغضب يملأ نفوس المماليك بسبب عداء الباب العالي، والتغير المفاجئ في موقف الحكومة الإنجليزية، ورحلوا فجأة متجهين إلى مصر العليا(١).

وعاد كلٌ من اللورد كافان، وستراتون إلى الإسكندرية، وفي منتصف شهر فبراير رحل الصدر الأعظم هو أيضا عن القاهرة متجهاً إلى القسطنطينية، ومنذ تلك اللحظة بدأت حرب أهلية ضارية بين الأتراك والمماليك، جعلت مصر تعاني من المذابح والحرائق وكافة أنواع التجاوزات(٢).

وبعد رحيل الصدر الأعظم رحل قبطان باشا بعد مذبحة البكوات بفترة قليلة، بينما ظل على رأس الحكومة في مصر، ممثل الباب العالي، محمد خسرو باشا، وهو شخصية كان لها دور ملحوظ في تاريخ الإمبراطورية العثمانية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وكان الباشا الجديد من صنع قبطان باشا حسين، ومن موطنه نفسه، وهو الذي رشحه لمنصب حاكم مصر ضد رغبة الصدر الأعظم، الذي كان يرغب في إسناد هذا المنصب إلى أحد المقربين إليه.

وكان محمد خسرو، يتميز بشخصية جيدة؛ فكان نشيطًا، وله طرقه الخاصة اللينة في التعامل مع الأجانب، وكان قاسياً مع موظفيه، وإجمالا كان رجلا جيداً ومديراً حكيماً، ولكنه لم يكن يمتلك القدرة والشجاعة اللازمتين لمنصب كهذا مليء بالمخاطر ولاسيما في تلك الظروف، كما أنه لم يكن على دراية بالشخصيات التي تحيط به(٣).

وفي يناير ١٨٠٢ دخل خسرو باشا القاهرة دخولا مهيبًا، وبدأ على الفور في العمليات العسكرية ضد المماليك، ولكن القوات التركية التي أرسلها إلى مصر العليا خلف البكوات، كانت دائما ما تنهزم، والمماليك يكسبون كل يوم أرضا جديدة، ويتقدمون نحو مصر السفلي مع تزايد صفوفهم بانضمام عدد من العرب والبدو إليهم.

(١) وثيقة رقم٧.
(٢) تكرر في تقارير دي روسيتي ذكر التحسر والتألم من الأحوال المؤسفة في مصر .
(٣) الوثيقة رقم ٦ ، ١٠ ، ٢٤.

وكان اللقاء المشهود بينهم في ٢٠ نوفمبر من العام نفسه (١٨٠٢) بدمنهور، وفي تلك المرة أيضا منيت جنود الباشا بالهزيمة. وعلى الرغم من تلك الهزيمة، ذهب دي روسيتي للباشا يكرر عليه ضرورة التوصل إلى اتفاق مع البكوات، وهو ما يتفق مع مصلحة الباب العالي نفسه لتهدئة البلد الثائر، لكن الباشا كان دائماً ما يقترح شروطًا لا يمكن أن يقبلها البكوات؛ لأن الأوامر المحددة التي وصلت من القسطنطينية تأمر بأن يخرج البكوات من مصر، في حين أن البكوات كانوا مصرِّين على البقاء فيها(١).

وقبل الجلاء عن مصر وفقًا لمعاهدة إميان «Amiens» في مارس ١٨٠٢، أرادت الحكومة الإنجليزية أن تقوم بمحاولة أخرى لحل المشكلة المصرية. وتم تكليف الجنرال ستيوارت Stuart بأن يحل محل اللورد كافان في قيادة الجيش الإنجليزي في مصر، وكان هذا في يوليو ١٨٠٢، حيث انتقل الأول من لندن إلى مصر مروراً بالقسطنطينية من أجل طلب منح حقوق وامتيازات للبكوات. ولكن الباب العالي أغلق أذنيه عن سماع أية نصيحة للاعتدال في الموقف، وأصر على رفض أي وجود للبكوات في مصر.

ولم يحقق الرجاء الذي تقدم به الجنرال ستيوارت ثماره المرجوة، ولذا بمجرد أن وصل إلى مصر حتى توجه إلى الباشا الذي أكد له أنه غير قادر على فعل شيء يتعارض مع أوامر الباب العالي (٢).

وفي ١٠ سبتمبر من العام نفسه (١٨٠٢)، وصل إلى الإسكندرية الكولونيل سيبستياني Sebastiani، مكلفًا من قبل القنصل الفرنسي الأول بمهمة عاجلة في المشرق*.

وفي يوم وصوله قام بزيارة الجنرال ستيوارت، وطلب منه الجلاء عن مصر، ولكن الجنرال الإنجليزي أجابه بأنه لم تصله بعد أية تعليمات من حكومته.

وفي ٢٦ أكتوبر وصل سيبستياني إلى القاهرة، حيث استقبله الباشا استقبالاً مهيبًا، كما أكرمه دي روسيتي وأرسل إليه المترجمين والإنكشاريين التابعين له ودعاه لتناول الغداء معه. وأعلن سيبستياني للباشا أن زيارته لمصر لها هدف مزدوج:

(١) الوثيقتان رقم ١٥، ١٨.

(٢) وثيقة رقم ١٥.

* انتهى عهد حكومة الإدارة بانقلاب برومير في التاسع من أكتوبر ١٧٩٩ وتم تسليم السلطة في فرنسا لقناصل ثلاثة كان من بينهم نابليون الذي لم يلبث أن أصبح القنصل الأول، وبدأ يختط سياسة ترمي إلى عودة النفوذ الفرنسي في الشرق، ومن ثم كان إرساله للعديد من البعثات الدبلوماسية وكان من بينها بعثة سبستياني السرية إلى مصر «المراجع»

أولا، مطالبة الإنجليز بالجلاء عن مصر، وثانيا، العمل على إعادة الاستقرار للتجارة الفرنسية، وهو ما يتطلب التصالح مع البكوات. ومن أجل هذا الهدف عرض وساطته، كما أوضح أن القنصل الأول مهتم جداً بمصير البكوات، وأنه وفقًا للبند رقم ٥ من مبادئ السلام العام، يتعين أن تعود مصر إلى ما كانت عليه، وأن يعوض البكوات عن حقوقهم وامتيازاتهم.

وفي رده أكد الباشا للمبعوث الفرنسي حرصه على أمن، وحماية التجارة والملاحة الفرنسية؛ ولكن فيما يتعلق بمسألة البكوات، فإنه ليس بإمكانه اتخاذ أي إجراء؛ لأن هذا الأمر يتعلق مباشرة بقرار الباب العالي[1].

ومن تقارير دي روسيتي– الصادق والمدرك تماما لحقيقة الأمور– لا يتضح أن سيبستيانى قد قام بأي عمل أكثر نشاطًا وفعالية من أجل البكوات، كما أعرب بعد ذلك في تقريره، والذي اتهمه دي روسيتي بعدم الدقة في هذا الجانب، وفي جوانب أخرى أيضا[2].

وعلى كل حال فإن مهمة سيبستيانى ونشر تقريره كان لهما أكبر الأثر في إحياء وإنعاش آمال البكوات في الحصول على المساعدة الفرنسية، وفي زيادة مخاوف الباب العالي من استعادة المماليك لسلطتهم في مصر.

ومن أجل تدعيم وضع البكوات وتقويته، وإضعاف وضع الأتراك، حدث أن انتصر المماليك في دمنهور على قوات الباشا في نوفمبر من عام ١٨٠٢، وعندئذ اعتقد الجنرال ستيوارت أنه وصل إلى النقطة التي تسمح له بتجديد مباحثات السلام من أجل البكوات، شاعراً بأمل كبير في النجاح، وبمجرد أن وصل إليه أمر من لندن بالجلاء عن مصر، كان تألمه واضحًا– بصفته إنسانًا وجنديًا – لتركه البلاد فريسة لويلات حرب أهلية.

وفي بادئ الأمر حاول التوصل إلى تسوية مع الباشا، الذي أصبح يميل بدوره إلى الاتفاق مع المماليك بعد الهزيمة التي لحقت بجنوده في دمنهور. وفي يناير عام ١٨٠٣ أرسل الجنرال ستيورات، سكرتيره الماجور ميسيه Missett، إلى القاهرة ليعرب للباشا عن ضرورة تسوية مسألة البكوات ووقف الحرب المدمرة قبل انسحاب القوات الإنجليزية. وقد ناقش الباشا ذلك الأمر في العديد من اللقاءات، التي كان دي روسيتي يرغب في حضورها.

---

(١) الوثيقتان رقم ١٦، ١٧.

(٢) وثيقة رقم ٣٦.

وأقصى ما وافق الباشا على منحه لبكوات المماليك هو النفي مع مرتب سنوي لأبرز وأهم أربعة منهم، والبقاء في مصر بالنسبة للبكوات الآخرين، على أن يظلوا متفرقين، وليسوا متحدين في فريق واحد. واحتج الماجور ميسيه على هذا العرض، مؤكداً أن البكوات لن يقبلوه، وكذلك احتج الجنرال ستيوارت عندما علم بذلك الأمر، وكتب إلى الباشا، في ٢٣ فبراير عام ١٨٠٣ متألماً من أن الصلاحيات التي منحت له، لن تسمح له بتقديم عروض سبق أن رفضها البكوات عندما كانوا في موقف صعب، ولن يقبلوها الآن بعد أن أصبحوا هم المنتصرين، كما أضاف أنه من أجل راحة الإنسانية المعذبة، ومن أجل منع الدمار الشامل للقاهرة، قد أقنع البكوات بالرحيل بهدوء إلى مصر العليا على أمل أن يستمع السلطان إلى توسلاتهم المتكررة ويستجيب لها.

وفي الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه المباحثات مع الباشا، كان الجنرال ستيوارت يقوم بمباحثات أخرى في القسطنطينية عن طريق مساعدة اللورد بلانتير Blantyre، الذي أرسله إلى هناك خصيصاً لهذا الغرض في ديسمبر ١٨٠٢ . ولكن تلك المباحثات لم تؤت ثمارها المرجوة.

ويبدو أن الباب العالي قد تخلى عن فكرة نفي البكوات، واكتفى بأن يقيموا في مقاطعة أسوان بمصر، وهي مقاطعة نائية ومجدبة، مما يوضح أن ما قرره الباب العالي كان أسوأ بكثير من النفي (يناير ١٨٠٣).

وعندما شعر الجنرال ستيوارت بأن المباحثات لن تثمر عن شيء، أمر بسفر جنوده في ١١ مارس ١٨٠٣، وأبحر متجهاً إلى مالطة مصطحباً معه ألفي بك، حيث كان ينوي أن يحصل لهم في لندن على تأكيد للوعود التي سبق وأن وعدهم بها الجنرال هاتشينسون باسم الملك، والأمة والجيش الإنجليزي[1].

وكان البكوات في تلك الأثناء ينسحبون ببطء نحو مصر العليا، فارضين الضرائب، وكان هدفهم هو إقامة معسكر في مكان يبعد إلى حد ما عن الهجمات التي قد يتعرضون لها، وحتى يستطيعوا أن يعيدوا تنظيم صفوفهم للعودة مرة أخرى للقتال، إذا لم يحصلوا على امتيازات أكبر لهم.

***

ولم يكد يتخلص الباشا من قبضة المماليك حتى تعرض لخطر آخر، وهو ثورة قواته عليه، تلك القوات التي كانت ترتجف أمام المماليك الذين كانوا يلحقون بهم دائماً الهزيمة في أي

(١) وثيقة رقم ٢٣.

مواجهة تقع بينهما، وصاروا الآن يقومون بأعمال عنف، وسلب وحرق، وقتل للشعب المسكين، الذي أصبح ساخطًا، وشارك المماليك في مطالبهم[١]. كما أصبح الأرناؤوط أكثر الناس وقاحة في ارتكاب التجاوزات. وبمجرد أن علم الباشا بأن هؤلاء أصبحوا خطرين ومدمرين، وليس لهم أية فائدة أو نفع، رأى أن يسرّحهم فريقا تلو الآخر، ولكن قادتهم اتحدوا، وأعربوا عن رغبتهم في الحصول على أموالهم قبل الرحيل [٢].

غير أن دمار البلاد أثر على ماليتها وأدى إلى خرابها، فقد أصبحت خزائن الباشا خاوية، ومرتبات القوات تتأخر يومًا بعد يوم. وعلى الرغم من الضرائب الباهظة المفروضة على الشعب لم يستطع الباشا أن يوفر المبلغ الذي كان يطالب به الأرناؤوط؛ حتى يخرجهم من البلاد. وبعد حوالي خمسين يومًا، سأم الأرناؤوط من الانتظار، وقرروا القيام بثورة في ٢٩ أبريل من عام ١٨٠٣[٣].

وقد ساهمت مكائد رجائي أفندي الدفتردار Regiai Effendi، وطاهر باشا في إثارة تلك الثورة وإشعالها. وهذان الشخصان كانا من أتباع الصدر الأعظم، ومن ثم كانا يشعران بمنتهى الضيق؛ لأن حكومة مصر أصبحت في يد محمد خسرو، المفضل لدى قبطان باشا.

كان رجائي أفندي مكروهًا من الشعب على إثر توليه منصب الدفتردار، من قبل الصدر الأعظم إبّان وجوده في القاهرة، وتكليفه بتنفيذ التعليمات والأوامر التي يصدرها الباب العالي من أجل زيادة موارد وإيرادات الخزانة العامة، دون الالتفات إلى الخسائر الفادحة، والسخط الذي يشعر به ملاك الأراضي من جراء تنفيذ تلك التعليمات.

وكل هذه الكراهية والعداء للنظام القائم كان يقع بالتالي على الحاكم الذي، على الرغم من دهشته من تلك الإجراءات المالية، كان مجبراً بحكم وظيفته على متابعة تنفيذها. وفضلاً عن أن رجائي أفندي رفض أن يدفع للألبان رواتبهم المتأخرة مع أن الظروف المالية كانت تسمح بذلك، فقد أجرى اتفاقًا مع طاهر باشا قائد قوات الأرناؤوط، مما أدى إلى زيادة سخط الألبان. وبعد أن حرّضهم بعض المحرضين أوقعوا بعض الأضرار بمنزل الدفتردار، على الرغم من أنهم في حقيقة الأمر لم يكونوا أعداءً له، ثم قاموا بعد ذلك بغزو قصر الباشا في الأزبكية، وحاصروه، ولذا أمر الباشا بإطلاق النار عليهم.

(١) انظر الوثيقة رقم ٢٣.

(٢) راجع الوثيقة رقم ٢٣.

(٣) وثيقة رقم ٢٤.

وفي وسط هذه الفوضى انتقل طاهر باشا إلى القلعة، التي كانت أبوابها موصدة، وكانت تحت حكم وسيطرة خازندار الباشا، وأمر بفتح الأبواب مدعيًا أنه قد جاء بناء على أمر الباشا؛ لأخذ الذخائر الضرورية. ووقع الخازندار في الخدعة وفتح الأبواب، واستولى طاهر على القلعة، وقبض عليه، وأخذ يأمر بإلقاء القنابل على قصر الباشا، ليساند المهاجمين. وفي الوقت نفسه أمر بأن يذاع في المدينة نبأ يؤكد أنه قد وصل أمر من القسطنطينية يطلب رأس محمد خسرو، ولكنْ طاهر باشا لا يرغب في أن يمسه. وبلغ به المكر إلى حد أنه أرسل بمنتهى الرياء رسالة عاجلة إليه، دعاه فيها إلى الهروب عنده؛ حتى يدافع عنه ويحميه من أهداف أعدائه المهلكة. وبدأ محمد باشا خسرو، المسكين، يشك في أنه قد وصل بالفعل أمر من القسطنطينية يطالب برأسه، ولذا رحل عن قصره بينما انتقل جميع أفراد بلاطه إلى جانب طاهر باشا. وفر محمد خسرو باشا، متبوعًا بقوات الأرناؤوط إلى طريق دمياط، وتوقف في المنصورة. وحرص طاهر باشا، بالاتفاق مع رجائي أفندي على أن يطمئن دي روسيتي بالعديد من الرسائل المتكررة؛ لأنه يعلم جيداً أن تقاريره إلى الوزراء في القسطنطينية قد تساهم في إثارة احتجاجاتهم ضد تلك الثورة، واعتبارها بمثابة تغيير لا يكترث بأمن مواطنيهم، إن لم تكن ضدهم(١).

ومن أجل تحقيق نجاح أفضل في هذا الهدف، استطاع طاهر باشا بأوامر صارمة ردع الأرناؤوط ، في وقت كانوا يخشون فيه من تسريحهم، وتم حرق قصر محمد خسرو وبعض القصور الأخرى(٢).

وأعلن طاهر باشا أنه سيتولى السلطة مؤقتًا لحين وصول الباشا الجديد الذي سيرسله الباب العالي، وعقد اجتماعا للقادة العسكريين، وللشيوخ في منزله، واختار قائمقاما أو نائباً له، بينما أُقر رجائي أفندي في منصبه كدفتردار، كما منح محمد علي قيادة كل قوات الأرناؤوط . وعلى الفور شعر الناس بأن طاهر باشا يعمل لأن يحل محل الباشا المخلوع، حيث كان يتخذ الإجراءات اللازمة التي تمكنه من حكم البلاد.

وكان هناك قائدان إنكشاريان، شعرا بالخوف من أن يتم تعيين طاهر واليا، وهو أرناؤوطي، وبالتالي فإنه سوف يعطي لمواطنيه الأفضلية على الإنكشاريين، وأعلنا استياءهما من خطة طاهر، التي أصبحت واضحة، وهي الاستيلاء على السلطة العليا. بينما أسرع طاهر باشا من جانبه بالقبض

(١) وثيقة رقم ٢٤.

(٢) وثيقة رقم ٢٥.

عليهما وأمر بقطع رأسيهما[١]. وترتب على ذلك نشوب هيجان وشغب في فريق الإنكشاريين، وفي غضون أيام قليلة أصبح الحقد شائعاً بين جميع أفراد الشعب، وذلك بسبب حكومة طاهر باشا التي كانت أكثر ظلماً واستبداداً وابتزازاً من حكومة خسرو. وبعد ٢٢ يوماً من قمع تلك الثورة، وبالتحديد في ٢٥ مايو قُتل طاهر على يد بكباشي من الإنكشاريين. وأعقب ذلك صراع دموي بين الإنكشاريين والأرناؤوط. واتحد الفريق الأول تحت قيادة أحمد باشا، حاكم دمياط الأسبق، الذي كان ماراً بالقاهرة، حيث كان مرشحا ليكون واليا على مكة والمدينة، بينما ظل الأرناؤوط تحت قيادة محمد علي، الذي كان يملك عليهم سلطة كبيرة، وعندما وجد أنه لا يستطيع بقواته فقط أن يهزم الإنكشاريين ويواجه عودة خسرو المحتملة، أرسل إلى البكوات يدعوهم للمجيء من أجل الاستيلاء على الحكم. وبمجرد إعلان خلع خسرو، حتى بدأ البكوات في الهبوط إلى القاهرة، وقبلوا الدعوة، ولكنهم أرادوا بعض الرهائن والضمانات، وأجابهم محمد علي إلى طلباتهم.

وبتحالف الأرناؤوط مع المماليك أصبح من السهل تحقيق الانتصار على الإنكشاريين، ومع أول طلقة مدفعية تفرق الإنكشاريون، ونُهبت منازلهم، وفر أحمد باشا هارباً من القاهرة[٢] وعندئذ اقتسم الحكم كل من محمد علي وقادة المماليك إبراهيم بك، وعثمان بك البرديسي، ونائب محمد بك الألفي[٣].

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلعب فيها محمد علي دوراً واضحاً في إدارة الأحداث. فحتى وقتنا هذا كان يتبع تكتيك البقاء في الصف الثاني، محترساً من أن يربط مصيره بمصير أيٍّ من الخصوم؛ حتى لا يكون متورطاً في دماره. وعندما بدا له أن الأمر أصبح ملائماً، اندمج في الأحداث بإصرار، ولكن بمجرد أن أدرك أنه من الصعب جداً أن يكون في الصف الأول فضّل الانسحاب. وهذا التغيير في الأدوار قام به عدة مرات، وبذكاء حاد جداً، وبحكمة حذرة، وبقوة حازمة؛ حتى لا يفشل، سواء في المواقف الأكثر تعقيداً أو الأكثر خطورة، في تحقيق هدفه. وفي الواقع فإن الأدوار التي كان يقوم بها كانت تعد مشاهد مفاجئة، كما لو كنا نشاهد كل ممثلي الدراما الدموية، وهم بمثابرة وبأحداث سريعة، ينهضون ثم ينهزمون، بينما نجح محمد علي في أن يظل صامداً بمفرده.

(١) وثيقة رقم ٣٢.
(٢) الوثيقتان رقم ٣٢، ٣٥.
(٣) وثيقة رقم ٣٥.

هذه النتيجة طرحها معظم المؤرخين باعتبارها ثمرة للعبة شيطانية قام بها محمد علي، الذي كان يحرِّض من آن لآخر أحد الخصوم ضد الآخر؛ حتى يدمر بعضهم بعضًا، بهدف أن يبني نجاحه على أنقاض الجميع. وهذا التفسير، يعتبر في تقديرنا، خطأً من الناحية المنطقية، ويتعارض مع الوثائق الأصلية. فعندما وجد بكباشي قولة نفسه متورطًا في صراع محتد بين الأتراك والمماليك وفي منافسة عدائية بين الإنجليز والفرنسيين، لم يستطع أن يضع تخطيطًا لسلطته المقبلة، أو ينظم الوسائل الفعالة؛ حتى يقود بمواهبه سير الأحداث. إن شخصية محمد علي وأعماله نبعت تدريجيًا من صفات القدرة والطاقة التي تجلى بها في قلب الظروف التي كانت تتغير باستمرار من حوله، والتي كان يستطيع السيطرة عليها، ويجعلها تتلاءم بعبقرية مع أفكاره وأعماله. إن خسرو، وطاهر، وعلي الجزايرلي، والبرديسي، والألفي، وخورشيد سقطوا جميعًا؛ لأنهم كانوا عديمي الخبرة وسفاكي دماء، وكانوا متعلقين بشدة بمصالحهم الأنانية. ولكن محمد علي انتصر لأنه امتاز بتفوقه على الآخرين في العقل وفي الروح، وهو ما جعله يفكر في صالحه الخاص، ويحققه من خلال قالب المصلحة العامة. وهذا هو الهدف الأول، أما الهدف الثاني فهو أنه كان يعرف كيف يصل إلى ما يريد بالوسائل التي كانت متبعة في وقتها، أي بالمنهج نفسه الذي كان يتبعه كبار مؤسسي ومصلحي الدول، الذين كانوا يحاربون عندما يستطيعون بالطرق الشرعية، ولكن إذا لزم الأمر - وغالبًا ما يلزم - يعرفون بحسم كيف يستعينون بعنفوان الأسود، ومكر الثعالب.

ولكن هذه النقطة سنلقي عليها الضوء بتوسع في مجلد آخر، عندما نتعرض بصورة أكبر إلى نشاط محمد علي.

***

على أية حال تحصن محمد خسرو الهارب في مدينة دمياط، ووجه المماليك والأرناؤوط، بقيادة البرديسي قواتهم المتحالفة ضد هذه المدينة، التي تم الاستيلاء عليها، ونهب خيراتها في أول يوليو، ووقع محمد خسرو في الأسر، وأُرسل إلى القاهرة.

والعديد من الخلافات والتناقضات التي تعرض لها خسرو، المفضل لدى قبطان باشا، قد منحت القوة في بلاط القسطنطينية إلى الحزب المضاد، وهو حزب الصدر الأعظم الذي نجح في أن يرسل إلى الحكومة بمصر أداة من أدواته، وهو علي باشا الجزايرلي بدلاً من خسرو، وقد كان علي باشا كغيره من موظفي الحكومة التركية عبدًا، ذا ماضٍ مؤسف، وذا طبيعة متهورة ومتعصبة. وفي ٨ يوليو وصل إلى ميناء الإسكندرية يرافقه ألف رجل، وعند نزوله إلى البر، حدثت بعض

القلاقل الخطيرة، لاسيما بعد أن أصدر قبطان باشا أوامره بعدم استقباله، ولكن حاكم الإسكندرية أحمد خورشيد باشا، على الرغم من أنه محبب لدى قبطان باشا، إلا أنه أدرك بحكمته كيف يتجنب وقوع صراع، ولذا أمر بإدخال علي باشا إلى الإسكندرية بأمان[١] ولكن المنافسة الواضحة بين المسئولين الكبيرين* لدى الباب العالي قد أدت إلى تشويه سمعة الحكومة التركية، وأدت إلى زيادة الطائفية والاضطرابات في مصر [٢].

وخلال الشهور القليلة التي قضاها علي باشا في الحكم في الإسكندرية (من يوليو إلى ديسمبر) وقعت بعض التجاوزات والظلم وإهانات مستمرة للأوروبيين؛ وكان يصل الحد بالجنود، بتشجيع من قادتهم، إلى أن يطلقوا النيران على شعارات وأعلام القنصليات. حتى أن الممثلين الأوروبيين اضطروا لأن ينسحبوا على متن الأسطول العثماني الراسي في ميناء الإسكندرية. وقد أجبرت احتجاجات القوى الأوروبية، في القاهرة وفي الإسكندرية، علي باشا على أن يقدم ترضيات كافية لهم [٣].

وفيما يتعلق بمسألة البكوات، حاول علي باشا في بادئ الأمر أن يحلها بالتباحث معهم عن طريق برجس Briggs نائب القنصل الإنجليزي، ولكنه لم يستطع التوصل إلى تسوية مرضية ؛ فقد كان البكوات يشعرون بالفخر لما حققوه من نجاحات، ولذا اشترطوا استعادة السلطات التي كانت لهم قبل الغزو الفرنسي. ولم يقبل علي باشا هذه الشروط، التي كان يعارضها الباب العالي بشدة[٤]، ومن ثم بدأت العداءات؛ حيث قام المماليك، بعد احتلالهم دمياط ورشيد، بمهاجمة حصن جوليانJulien الذي كان يسيطر عليه شقيق علي باشا، واستولوا عليه في أوائل شهر أغسطس وأسروا الحامية. وفي الإسكندرية انتابت السكان حالة من الذعر العام خوفًا من الخطر القريب، الذي كانوا يتوقعون أن يهددهم، بسبب الهجوم وعمليات النهب التي قد يقوم بها الجنود المماليك والأرناؤوط [٥].

---

(١) وثيقة رقم ٣٧.

* المقصود بهما يوسف باشا الصدر الأعظم، والقبطان باشا حسين . «المراجع»

(٢) الوثيقتان رقم ٣٨، ٤٢.

(٣) وثائق أرقام ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٢.

(٤) وثائق أرقام ٣٩، ٤٠، ٤١.

(٥) وثائق أرقام ٤٠، ٤١.

وقد اختار البرديسي موقعاً لمعسكره في دمنهور وبدأ يتخذ الإجراءات للتحرك نحو الإسكندرية، ولكنه آثر فجأة، في منتصف شهر سبتمبر، الانسحاب بجميع قواته نحو القاهرة، تاركًا حاميتين عسكريتين فقط في دمنهور ورشيد.

ويرجع السبب في هذا القرار المفاجئ الذي اتخذه البرديسي إلى الخلاف الذي بدأ يظهر بين المماليك والأرناؤوط، فقد شعر الفريق الأخير بالتذمر من الحرب من أجل أن يزيدوا فقط من سلطة المماليك، خاصة وأن أموالهم لا تزال تتأخر، حتى وصل المبلغ الذي يطالبون به إلى آلاف الأكياس[1]، ومع خطر وقوع صراع بين جنوده لم يتجرأ البرديسي أن يهاجم حصن كالإسكندرية، فضلاً عن أنه لم يكن يرغب في أن يدفع الأمور إلى الذروة ويغلق أذنيه عن الاستجابة إلى أية تسوية مع حكومة القسطنطينية. ولم تتوقف المباحثات مع علي باشا، في الوقت الذي أرسل فيه البكوات المماليك إلى الباب العالي خطابا يلتمسون فيه العفو عنهم.

وفي ٢٣ نوفمبر وصل إلى القاهرة ضابط من القسطنطينية يحمل معه «خط شريف» من السلطان، الذي يبدو منه أنه وافق على العفو عن البكوات، حيث سمح لهم بالبقاء في مصر، ولكنه حرمهم في الوقت نفسه من معظم الإيرادات، وفرض بعض القيود الأخرى التي تجعل العفو وكأنه لم يكن.

وكانت الملاحظات التي أبداها دي روسيتي في هذا الأمر عاقلة وحكيمة جداً؛ إذ كان يرى أنه «على الرغم من أن هذا العفو يستهدف تحقيق الأمان لمصر، إلا أن ما تضمنه من القيود والتضييقات جعلته عفواً غير كامل؛ لأن الباب العالي إذا كان يريد كل الإيرادات لنفسه، فلن يبقى أمام الباشا والبكوات خيارات أخرى غير الابتزاز والنهب. ولذا فإن مشروع العفو يُعَدّ أسوأ من عدم العفو. ولقد وُصف علي باشا (من بعض الأشخاص الذين يعرفون تاريخه) أنه متكبر متغطرس، متهور، وسفاك دماء، ومرتشٍ. وليس من المفترض أن يقبل البكوات بمجيئه بالقوات التي معه، ولا بأن يتخلوا عن الإيرادات كلها، وإني أخشى أن تصبح مصر من جديد مسرحاً للحرب»[2]. وهو ما حدث.

فقد دعا البكوات علي باشا الجزايرلي للمجيء إلى القاهرة ليناقشوه في الأوامر التي وصلت من القسطنطينية، ولكن من أجل أمنهم حددوا له خط الرحلة وعدد الجنود التي يصطحبها

(١) وثائق أرقام ٤٢، ٤٣.

(٢) وثيقة رقم ٤٥.

معه، ووافق علي باشا على ذلك، وانتقل إلى القاهرة في ٢٢ ديسمبر. ولكن سرعان ما اتضح أنه كان يهدف إلى خداع المماليك وقهرهم، الذين بمجرد أن أدركوا خطته أسروه، في ٢٧ يناير بالقرب من القاهرة، وحملوه على الخروج من مصر، وفي رحلته، بعد خروجه بيومين، قتله الجنود الذين كانوا يقومون بحمايته بناء على أوامر وصلت إليهم. وبخروج علي باشا من مسرح الأحداث، كان يبدو أن مصر ستمر بحالة هدوء نسبي، ولكنها على العكس من ذلك لم تلبث أن وقعت من جديد فريسة لصراعات ضارية.

وفي ١٦ فبراير وصلت إلى القاهرة أخبار تفيد أنه رست في أبى قير فرقاطة إنجليزية تحمل على متنها محمد بك الألفي. وقد أُذيع هذا الخبر في المدينة مصحوباً بطلقات المدفعية، وهذا يعدّ أول استقبال مهيب للبك. ولكن البرديسي كان يخطط لأن يهاجمه؛ لأنه كان يخشى من مجيئه حيث كان يعتبر أن قدومه يمثل نهاية سيطرته التي فرضها على جميع البكوات، ولقد شجعه في عدائه هذا المندوب الفرنسي ماتيو ليسيبس Matthieu Lesseps، الذي كان يرغب في منع مجيئه حتى لا يقوى التأثير الإنجليزي بعودته. ووقع صراع حاد بين المندوب الفرنسي ليسيبس والمندوب البريطاني الدائم ميسيه من أجل احتكار ود البكوات لهما. «يتعامل ممثلا القوتين المتخاصمتين سياسيا، وكل واحد منهما منتبه جدا لخطوات الآخر، وكلاهما حريص على تأليب البكوات، ويقدمون لهم بالتناوب منحًا وعروضًا، لا يستطيع البكوات إخفاءها بصورة كاملة، وبطريقة تجعل كلا منهما يطلع على نوايا الآخر». وفي ١٩ نوفمبر هاجم البرديسي الجيزة، وشتت أتباع الألفي، وكان قد خطط لكي يهاجم ويقتل الألفي نفسه في رشيد، ولكن هذه الخطة فشلت؛ لأن الألفي استطاع أن ينجو منها هاربًا[١].

****

ولقد أنهك هذا الصراع البكوات بشدة، لاسيما بعد أن أبيد معظمهم وهلكوا في الصراعات السابقة، ومن ثم أصبح الأرناؤوط أكثر قوة، بحيث أخذوا يبدون استهانتهم بالمماليك، ويطالبون بأموالهم ومستحقاتهم مضاعفين من أعمال العنف. ومن أجل أن يجمع البرديسي الأموال اللازمة لإرضاء الأرناؤوط ، فرض ضرائب باهظة على مدينة القاهرة. ولكن الشعب، الذي وصل إلى أقصى حالات الفقر والبؤس، لم يرض بذلك، وقام بثورة عارمة طَرَدَ فيها النوابَ المكلفين بتحصيل الأموال، وفي بعض الضواحي والأنحاء وصل الأمر إلى قتلهم[٢]. وفي هذه الثورة ناصر الأرناؤوط

(١) وثيقة رقم ٥٣.
(٢) وثيقة رقم ٥٤.

الشعب ضد المماليك، مصرحين بأن أموالهم ومستحقاتهم مطلوبة من الحكومة، وليس من الشعب المسكين، مؤكدين أنهم كانوا يشاهدون بألم وحسرة الضغوط التي كانت مفروضة على الشعب، ولذا قام البكوات المذعورون برفع الضريبة.

ومحمد علي، الذي كان قد ترك للبرديسي مسئولية القيادة في أثناء خلافه مع علي باشا والألفي، لم يتردد الآن في تولي قيادة حركة الهجوم على المماليك، وتوجه إلى الجامع الأزهر، الذي كان مركز الثورة، وأعلن إلى مجلس العلماء، أن الضريبة قد ألغيت، ودعاهم إلى الهدوء. وهذه الخطوة التي قام بها محمد علي، فضلاً عن سلوكه وسلوك جنوده المعتدل في أثناء الثورة، كانت سبباً في ارتفاع وضعه ومنزلته، في حين تزايد سخط الشعب ضد البرديسي والمماليك.

وكل هذا كان يعتبر نتيجة منطقية لتفاقم العداء بين المماليك والأرناؤوط ، فكل فريق منهما كان يرى أن الطرف الآخر هو عدوه اللدود الذي يجب أن يتخلص منه؛ حتى لا يقهره، وقد كان محمد علي قادراً ومستعداً لاتخاذ القرار الحازم، وباتفاقه مع كبار المشايخ وقادة بلاط خسرو باشا الوالي السابق دبر محمد علي مؤامرة للبكوات، بمشاركة أحمد خورشيد باشا، حاكم الإسكندرية، الذي وعده الباب العالي بحكم مصر، إذا ما نجح في التخلص من البكوات، وعندما اتضح أن كل شيء أصبح ملائماً، بدأ محمد علي ينفذ خطته بمنتهى القوة والحماس. وفي صباح ١٢ مارس حاصر الأرناؤوط منازل البرديسي وإبراهيم؛ حيث كان الجنود الإنكشاريون المكلفون بالحماية قد تم كسبهم إلى جانب الأرناؤوط ، ولكنَّ هذين البكوين استطاعا أن ينقذا نفسيهما بالهرب.

كان محمد علي هو سيد الموقف، وتصرف في هذه المرة بذكاء وفطنة بالغة؛ فهو لم يرد أن يضع في يديه السلطة العليا، ولكنه حرر محمد خسرو من الأسر، وجعله يتولى حكم مصر باسم السلطان، وهذا التصرف كان له أكبر الأثر في زيادة وضعه ومكانته داخل نفوس الشعب.

ولم يستمر حكم خسرو أكثر من ٤٠ ساعة، فقد خشي الأرناؤوط، من أن يثأر منهم بسبب تمردهم السابق عليه، ولذا خلعوه وأرسلوه إلى رشيد، وتولى الحكم أحمد خورشيد باشا، الذي انتقل على الفور إلى القاهرة[1] وقد استحسن الباب العالي هذا الترشيح، وكان هذا هو التغيير الرابع الذي يحدث في خلال عام واحد لحاكم مصر، ودائماً نتيجة لأحداث خارجة عن إرادة الباب العالي، وهو ما يوضح مدى ضعف السيطرة التركية وعدم مقدرتها، والانهيار الداخلي الموجود في الولاية المصرية.

(١) وثيقة رقم ٥٥.

وكان خورشيد باشا في موقف أسوأ من موقف الولاة السابقين له، والحكمة التي أبداها في أثناء توليه حكومة الإسكندرية لم تساعده. فقد دعته الحاجة إلى الأموال، إلى فرض ضرائب جديدة على الجميع ولم يستثن منها حتى الأوروبيين، ولكن حالة الفقر العامة جعلته لا يجني سوى السخط والكراهية(١) فضلاً عن أن المماليك اتحدوا وأعادوا تنظيم صفوفهم، وهم الآن يحاصرون القاهرة مانعين التجارة والتزود بالمؤن والوقود، ويقومون بغارات وغزوات مستمرة وصلت إلى أبواب المدينة. والأرناؤوط، بحجة إصرارهم في الحصول على مستحقاتهم المتأخرة، رفضوا الخروج لمواجهة المماليك والتصدي لهم، وكان من المعتقد أنهم لو تجرءوا على فعل ذلك، للحقت بهم الهزيمة(٢).

وفي موقف خطير بالنسبة لمحمد علي شخصيًا، وبالنسبة لجنوده، قدم برهانًا رائعًا على مواهبه كقائد وسياسي؛ ففي ٢٢ يوليو، بعد أن تعرض الأرناؤوط لهزيمة ساحقة، جمع محمد علي كل ضباط الجيش وأخبرهم «أنهم جميعًا أمام خيار صعب؛ فإما أن يهلكوا على يد البكوات المماليك، أو يقتلوا على يد الشعب، إذا لم يتجرءوا ويتشجعوا بالخروج لمواجهة العدو».

وكان لحديث محمد علي لضباطه وجنوده أثره المرغوب، فبعد يومين، هاجم الأرناؤوط المماليك بمنتهى القوة والحماس، وأجبروهم على الانسحاب والخروج من القاهرة، وهو ما وفر السكينة والهدوء للسكان.

ولكن كيف استغل محمد علي التفوق العسكري، والتشجيع الشعبي له لكي يعتلي عرش الحكم في مصر؟ هذا هو ما سوف توضحه وثائق المجلد الثاني من هذا العمل.

أنجلو ساماركو

(١) الوثيقتان رقم ٥٧، ٥٨.

(٢) الوثيقتان رقم ٦١، ٦٢.

تنويه

وثائق هذا المجلد تم جمعها من أرشيف البيت الملكي الإمبراطوري، وأرشيف البلاط، وأرشيف الدولة بفيينا (البيت - Haus البلاط - Hauf وأرشيف الدولة Staatsarchiv)، وهي جزء من المراسلات بين الوزير النمساوي للشئون الخارجية مع القناصل بالمشرق، وكل هذه المراسلات وضعت تحت عنوان Turcica، وتم تصنيفها وفقًا للأعوام، ولكل عام ملفات مسلسلة، والأوراق المتنوعة في كل ملف لها أيضا رقم مسلسل.

و نحن نشير في نهاية كل وثيقة، فضلاً عن تحديد تورشيكا Turcica، إلى العام والملف. والجزء الأكبر من هذه الوثائق صادر من القنصل العام بالقاهرة، الكونت كارلو دي روسيتي، الذي سنتعرض لسيرته الذاتية في المجلد التالي مع دراسة تقاريره.

وأوراق دي روسيتي، على الرغم من مصدرها، تعتبر إيطالية، ليس فقط؛ لأنها كتبت باللغة الإيطالية من شخص إيطالي، ولكن لأن دي روسيتي كان يمثل أيضا إمبراطورية النمسا، وأهم دولتين سابقتين في شبه جزيرتنا، وهما مقاطعة توسكانا، ومملكة لومبارديا، وفينيسيا. والعديد من المواد الأرشيفية التي وجدت بفلورنسا وفيينسيا في عامي ١٨٥٩ و١٨٦٦، قد نقلت إلى فيينا. فضلا عن أن الشخصيات والأعمال بكاملها الموكلة لروسيتي كانت تابعة لتوسكانا وفينيسيا.

والنظام الذي نتبعه في نقل هذه الوثائق هو الذي يعتبر عمومًا من أكثر النظم تلبية للاحتياجات العلمية، أي أننا قمنا بنقلها بنصها الأصلي وبملحقاتها. وقد وجدنا فقط أن المناسب تحديث علامات التنقيط في أماكن مختلفة من النص، وبعض طرق الكتابة التي أصبحت قديمة، ولكن طريقة كتابة أسماء الأعلام تم احترامها احترامًا صارمًا نظرًا للأهمية التي تحملها باعتبارها مصدرًا تاريخيًا. وفي بعض الحالات النادرة قمنا بإضافة بعض الكلمات إلى النص، ولكن مع تمييزها بوضعها بين أقواس.

والهدف من وضع الحواشي هو إعطاء بعض المعلومات عن الأشخاص المذكورين في التقارير، وبصفة خاصة لإعطاء بعض التفسيرات للمصطلحات العربية والتركية، التي يكثر دي روسيتي، المتمرس والخبير بلغة البلد وعاداتها من استخدامها.

ولتحرير هذه الحواشي الأخيرة، رجعنا إلى بعض الأعمال الموثوق فيها، خاصة أعمال أوبيتشيني وبافيه Ubicini e Pavet وباربييه دي مينار Barbier de Meynard ودوزي Dozy ودائرة المعارف الإسلامية الشهيرة.

١٨٠١

١- من روسيتي إلى راثكيال Rathkeal (١)

موجز

- جلاء الفرنسيين عن القاهرة .
- بعد انقطاع دام لفترة طويلة، روسيتي يتمكن من استئناف مراسلاته .
- التشريفات التي بدأ يتلقاها تعتبر تعويضا له عن الخسائر والمصائب السابقة.
- لن يغفل أن يقدم تحياته واحترامه للسلطات الجديدة وأن يستقبل السيد هامر Hammer .
- حول ترشيح نائب قنصل جديد بالإسكندرية .

القاهرة: ١١ يوليو ١٨٠١

تم بالأمس جلاء القوات الفرنسية عن هذه المدينة، ودخول القوات العثمانية والإنجليزية مكانها، وفى أثناء ذلك أخبرني السيد ميكيلى Micheli، القائم بأعمال الخارجية الروسية، أن حقيبة بريد سوف تسافر إلى هناك، ووجدت أنه من واجبي أن أنتهز هذه الفرصة حتى أعرب لسعادتكم عن خالص احترامي وتقديري العميقين؛ وهو ما كان يجب عليَّ أن أقدمه قبل ذلك لولا أن الظروف والأحوال كانت مضطربة في مصر منذ ثلاثة أعوام، ولاسيما فيما يخصني أنا بالتحديد، فلم تبتعد عني المصائب طوال تلك الفترة. والاستقبال اللطيف الذي استقبلني به (القابودان باشا)(٢) والذي تشرفت بالانحناء له لحظة دخوله بالأمس، وكذلك استقبال كبار الضباط الإنجليز لي، كان بمثابة مديح صريح وتعويض لما مرَّ بي من ظروف صعبة، وسأوافي سعادتكم بباقي الاستقبالات تباعًا، بمجرد أن ينتهي الاضطراب الذي دائما ما يحدث، ويؤدى إلى تغيير ليس سعيدًا بقدر ما هو مفاجئ.

---

(١) البارون Herbert Rathkea1 الوزير الملكي المفوض، والرسول البابوي للنمسا لدى الباب العالي بالقسطنطينية في الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٢. ومن الواضح أن لقب الرسول البابوي Internunzio كان هو اللقب المخصص للسفير المؤقت من الدرجة الثانية والمبعوث من المقر المقدس لدى تلك القوى التي لا تتطلب الوجود الدائم لسفير من الدرجة الأولى لأهميتها الضئيلة، وهو ما يسمى Nunzio وبهذا المسمى أيضا كان يسمى الممثل النمساوي لدى الباب العالي؛ لأنه من الواضح، أنه لم يكن بين النمسا وتورشيكا اتفاقية سلام حقيقية، ولكن مجرد هدنة، ولذلك فإن المفوضية النمساوية لم يكن لها في تلك البلد غير الشقيقة مفوض دبلوماسي دائم.

(٢) قابودان باشا، في النظام التركي القديم، كان لقبًا رسميًا يحمله الأميرال الذي يقود القوات البحرية كلها، وهو أيضا قائد الترسانة. وتأتى رتبة القابودان بعد رتبة رئيس الوزراء، الذي كان يطلق عليه الأوروبيون كبير الوزراء، ولكن لقبه الرسمي هو الصدر الأعظم، أو الوزير الأعظم، أوالأكثر تميزًا بين باقي الوزراء. ولفظ قابودان مشتق من الكلمة الإيطالية قبطان .

وبمجرد أن يستقر رئيس الوزراء، سوف أقدم له التحيات الواجبة التي تليق به، وفي سبيل ذلك أرسلت له بالأمس مترجمي الأول الذي استقبله بمنتهى الاحترام الذي يليق بعظمة مولانا.

وسلمني السيد هامر Hammer [(١)] الذي كان موجوداً على متن سفينة سير سيدني سميث Sir Sidney Smith [(٢)] صورة من خطاب توصية مرسل لي من دولتكم، وبما أنكم قد كتبتم لي أنه بمجرد إعلان استسلام القاهرة سيتحرك إلى هنا، وأعتقد أن هذا ما حدث بالفعل. وأرى أنه من واجبي أن استقبله في منزلي وأسهل له موضوع مجيئه بطريقة تتناسب مع ما أحمله بداخلي من احترام وتقدير لدولتكم.

ومن نسخة خطاب سعادتكم، المشار إليه، ومن الطريقة التي كتب بها إلي السيد المبجل هامر، يتبين لي أن فترة توقفنا عن المراسلة لم تؤثر مطلقا على مشاعركم الكريمة تجاهي، وهذا ما يأسر نفسي بالجميل، ويمنحني القوة لأواصل مهامي وواجباتي، التي تحتاج لمثل هذا الإطراء لاسيما بعد الإحباط والانهيار الذي أصبت به من كثرة المضايقات، والأضرار الجسيمة التي تعرضت لها.

(١) البارون Giuseppe Di Hammer -Purgstall ، واحد من أشهر المستشرقين المحدثين، ولد في Graz بمدينة Stiria في ٩ يونيو ١٧٧٤. تلقى تعليمه في الأكاديمية الشرقية بفيينا، وبعد أن اشترك في نشر المعجم العربي الفارسي التركي لـ Meninski ، عمل في عام ١٧٩٦ سكرتيراً للقسم الشرقي لدى وزارة الشئون الخارجية النمساوية. وفي عام ١٧٩٩ أرسل إلى القسطنطينية كمترجم لدى الرسول البابوي البارون راثكيال. Hebet Rathkeal ، وفي عام ١٨٠١ أرسل في مهمة إلى مصر مع الجيش التركي الإنجليزي ضد الفرنسيين.وكان أحد الأهداف الرئيسة لتلك الحملة هو إجراء تحقيق حول سلوك (روسيتي) في أثناء الاحتلال الفرنسي، والذي انتهى بتمجيده. ومن مصر حمل هامر معه إلى المكتبة الملكية بفيينا مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية، والآثار المصرية القديمة التي أهداها له روسيتي (تقرير هامر إلى الرسول البابوي ٢٨ سبتمبر ١٨٠١، تورشيكا ١٨٠١، رقم ٤٢) . وفي عام ١٨٠٢ اختير سكرتيراً للمفوضية بالقسطنطينية لدى الرسول البابوي البارون ستورمر Sturmer، كما شغل بعض المناصب الدبلوماسية الأخرى، ثم أصبح مستشاراً للبلاط. توفي بفيينا في ٢٣ نوفمبر ١٨٥٦. وكان هامر لا يعرف التعب، فعلى مدار ٥٠ عاما كتب في شتى الموضوعات المتعلقة بتاريخ وأدب الشرق. ونشر العديد من الأبحاث والترجمات لكُتّاب عرب وفرس وأتراك. وتتعدى أعماله الأدبية المائة مجلد، وكتابه في تاريخ الإمبراطورية العثمانية سوف يظل مرجعاً أساسياً في موضوعه (Geschichte des Osmanischen Reichs, Pest, 1827-1834, vol.10; 2a ed. In 4 vol., 1834-1836). والتقارير التي قام بتحريرها بصفته الوظيفية الدبلوماسية تعتبر مادة ممتازة في تاريخ مصر وتركيا.

(٢) Sir William Smith (١٧٦٤ – ١٨٤٠) هو الأميرال والوزير الإنجليزي المفوض، الذي كان يحتل أهمية قصوى في أحداث المشرق في أثناء الاحتلال الفرنسي لمصر وبعده، راجع كتاب H.Barrow حياة ومراسلات الأميرال ويليام سيدني سميث، المجلد الثاني، لندن، ١٨٤٤، والأعمال التي نشرت في هذه المجموعة من قبل F. Charles ، إنجلترا والاحتلال الفرنسي لمصر، المجلد الثاني، القاهرة ١٩٢٥، ومن قبل G. Douin ، M Fawtier Jones إنجلترا ومصر : السياسة المملوكية(١٨٠١-١٨٠٣) القاهرة ١٩٢٩.

سبق وأن أعلنت لسعادتكم في خطابي المؤرخ ٢١ فبراير من العام الماضي، نبأ وفاة السيد بوتشانتي Buccianti [1]. وبمجرد أن يحدد مصير الإسكندرية، سأفكر في ترشيح شخص مناسب ليحل محله، ومنذ عام وأنا أعرض على السيد أنطونيو جودارAntonio Godard، المفوض التوسكانى، أن يتولى هذه المهمة، وكلى يقين أنه سيتمكن من القيام بجميع المهام العاجلة.

وألتمس من سعادتكم أن ترسلوا لي البراتو[2] الخاص بي، لأنني فى أمس الحاجة إليه في الظروف الحالية، وإذا كان مصحوبا بالتصريح الملكي، فسأكون شاكرًا لكم.

وأتمنى ألا تقع أية اضطرابات أخرى قد تؤثر على أمن وسعادة مصر؛ حتى أتمكن من مواصلة واجباتي نحو سعادتكم، وأقدم لدولتكم فروض الطاعة والولاء.

تورشيكا ١٨٠١، رقم ٣٠.

٢- من دي روسيتي إلى راتكيال

موجز

- دي روسيتي يشكر راتكيال؛ لأنه عرفه على السيد هامر .
- رحيل الفرنسيين من الجيزة إلى رشيد .
- دي روسيتي يستضيف الجنرال هاتشينسون Hutchinson في منزله ويرجئ زيارته للصدر الأعظم، الذي يتوقع أن يستقبله أحسن استقبال .

القاهرة : ١٦يوليو ١٨٠١

(١) راجع الوثيقة رقم ١١.

(٢) البيرات Berat وثيقة رسمية تصدرها السلطات المختصة لمنح نيشان، أو رتبة أو وظيفة، و الشخص الذي يحمل البيرات يطلق عليه باراتلى والتي حولها دى روسيتي بمقطع إيطالي إلى كلمة Barattario أو Berattario وكان الباب العالي يمنحها إلى السفراء والقناصل الأغراب عن البلاد وهم يعطونها بدورهم إلى المترجمين من الرعايا المحليين. ومن كل بيرات كانت تنبثق ٦ فرمانات كان يحملها من يتمتعون بالحماية، ويتمتعون كذلك بنفس امتيازات السكان الأصليين ، وكانوا يدفعون أموالا لامتلاك هذا اللقب.

تشرفت في خطابي المؤرخ ١١ الجاري، الذي أرسلت الأصل منه مع بريد تابع للحكومة، والنسخة الأخرى عن طريق سيدني سميث، بإحاطة سعادتكم علماً بأنني استلمت خطابكم المؤرخ في ١٤ فبراير من العام الماضي، من السيد هامر، الذي وصل إلى هنا بسلام في الثاني عشر من الشهر الجاري، وأتقدم بخالص الشكر لسعادتكم؛ لأنكم أتحتم لي الفرصة لأتعرف على تلك الشخصية المليئة بالخصال نادرة الوجود، والتي تفوق التصور الذي رسمته لها في مخيلتي من توصيات سعادتكم.

واليوم رحل الفرنسيون من الجيزة قاصدين رشيد، تصحبهم فرقة من الجيش الإنجليزي والقبطان باشا، في حين قرر الجنرال هاتشينسون Hutchinson [(١)] البقاء في القاهرة لعدة أيام، ولذا تشرفت بأن أستضيفه وأهتم به، هو وجزء كبير من كبار الضباط بالجيش الذين شرفوني بوجودهم، وذلك تعويضا عن استقبال الفرنسيين السيئ لهم. وفى اليوم الذي شرفني فيه الجنرال بالحضور، كان من المقرر أن أذهب للمعسكر لمقابلة الصدر الأعظم، ولذا اعتذرت له، وأخبرته أن وجود الجنرال قد منعني من الخروج، وطلبت منه أن يلتمس لي العذر، وقد أجابني أنه لا يضايقه إذا أجّلت مثل هذه الرحلة المتعبة في هذا الموسم، حيث إنه من المتوقع العودة إلى القاهرة في خلال أيام قليلة، وسيكون من الممكن أن نلتقي دون عناء. وفى الغد سوف يدخل المدينة، وبعدها سوف أحدد موعد الزيارة، ومن الطريقة التي استقبل بها مترجمي الخاص، كان لي الحق في أن أتوقع أفضل استقبال لي، وذلك بدون شك هو ثمرة لتوصيات سعادتكم الفعالة.

وقد أخبرني السيد هامر أن سعادتك لم تتسلم خطاباتي المؤرخة في ٢١و٢٧ فبراير من العام الماضي، ولذا اندهشت كثيراً؛ لأنني أرسلتهما عن طريق السيد فرانكيني Franchini، المفوض الروسي الذي كان موجوداً في معسكر الصدر الأعظم، وتبادلت معه المراسلات بعد

---

(١) John Hely Hutchinson (1757 - 1832) ، هو واحد من أشهر الجنرالات الإنجليز وأبرزهم الذين ناضلوا ضد الثورة الفرنسية وحملة بونابرت . وبعد أن شارك في الحملات ضد فرنسا في شامباني Champagne وفى فياندرا Fiandre وفى هولندا Olanda في الفترة من ١٧٩٢-١٨٠٠، رحل في عام ١٨٠١ متجها إلى مصر، حيث أصبح بعد موت الجنرال أبركرومبي Abercromby (٢٨مارس ١٨٠١) ، القائد الأعلى للجيش الإنجليزي. واحتل دمياط ورامانية Ramanieh، وحاصر القاهرة مجبراً الجنرال بيلار Belliard أن يستسلم في ٢٧ يونية ١٨٠١ . وعندئذ توجه إلى الإسكندرية، حيث حاصر الجنرال «مينـو» ليجبره علـى الاستسلام مع كل جيشه، بقوة عددها عشرة آلاف رجل (٣١ أغسطس) . ولهذه المعركة الناجحة استحق أن يحمل لقب لورد. وفى عام ١٨٠٦ أرسل كسفير غير عادى إلى روسيا. وبعد سلام تيلسيت Tilsit عاد من جديد إلي إنجلترا. راجع الأعمال السابق ذكرها لتشارلز رو Charles Roux وج. دوان G.Douin وفوتييه جونز Fawtier Jones .

اتفاقية العريش El-Arisc.* ونظراً لأن فحوى الرسالتين لم يصل، أعتقد أنه من واجبي أن أرسل طيَّ هذا نسختين منهما.

وأتشرف عظيم الشرف، يملؤني الاحترام والتقدير، بأن أعلن لسعادتكم... إلخ.

ملحوظة: بعد أن تمكنت من الحصول على صورة من اتفاقية العريش، أجد من واجبي أن أرفقها لسعادتكم.

تورشيكا ١٨٠١، رقم ٣٠

٣-من دي روسيتي إلى راثكيال

موجز

- زيارة دي روسيتي للصدر الأعظم.
- تشريفات وإطراءات يبديها الصدر الأعظم لروسيتي.
- زيارة دي روسيتي للريس أفندي.
- الجنرال هاتشينسون يزور الصدر الأعظم ويستعد لوصول الجيش إلى الإسكندرية.
- إمدادات يطلبها روسيتي للسفن الراسية في ميناء الإسكندرية.

القاهرة: ٢١ يوليو ١٨٠١

كان مترجمي الخاص قد رتب أن تتم الزيارة العلنية للصدر الأعظم أمس الأول، وقد أرسل لي سليم أغاسي Agassi ومعه جواد مجهز لاصطحابي. وذهبت بصحبة ضباطي، وحراسي، والسيد هامر أيضا، وقدمني سليم أغاسي إلى دولته، وكان برفقته رجاله كيايا بك[1] والريس أفندي[2]

* اتفاق العريش: عقد هذا الاتفاق في ٢٤ يناير ١٨٠٠ عقب سيطرة العثمانيين على العريش، ونظراً لاقتناع الجنرال كليبر بعدم وجود مستقبل للحملة الفرنسية عقب رحيل بونابرت، فقد آثر الدخول في مفاوضات صلح مع الدولة العثمانية والجلاء عن مصر، وفق شروط أقرها الاتفاق الذي لم ينفذ؛ بسبب رفض الإنجليز لشروطه، وتشجيعهم الدولة العثمانية على وضع العراقيل أمام الفرنسيين «المراجع».

(١) هكذا كان يسمى في النظام التركي القديم «وزير الداخلية» راجع المذكرة رقم ٢.

(٢) الريس أفندي، أو بصورة أدق (رئيس الكتبة) بمعنى رئيس السكرتارية: وهذا هو اللقب الذي منح ذات مرة في تركيا إلى وزير الخارجية، وتم إلغاؤه في عام ١٨٣٧ في عهد السلطان محمود الثاني، واستخدم بدلاً منه كلمة ناظر. والآن أصبح وزير الشئون الخارجية في تركيا يسمى باسم: (ناظر الخارجية)، وفى مصر: وزير الخارجية.

وإبراهيم بك[١]. وأبديت له سعادتي قائلا: إنه يكفيني ويشعرني بالرضا أن أتشرف بالمثول في القاهرة أمام شخصية لها اعتبارها، مع أن السبب الذي قادني إلى هنا ليس مرضياً، وهو السبب الذي ألحق بي أضراراً جسيمة على مدار عشر سنوات، ولكنني قد حصلت على تعويض كاف بوجوده الذي ضمن الطمأنينة ليس لي ولبني جلدتي فحسب، بل للبلد بأسره بعدله ولطفه. وقد أجابني بطريقة تبعث على الاحترام، وأظهر لي أنه يتفهم معاناتي ويعرفها خير معرفة، وبادلني سروراً بسرور، كما عبر عن كامل تعاطفه معي، وعن أمنياته للبلد بصفة عامة.

وأخذ الكلمة إبراهيم بك مخبراً معاليه بالأعوام الطويلة التي عرفني فيها، ولا حاجة لتكرار المديح الذي أكرمني به. وأجاب عظمته أن هناك اتفاقًا عاماً على مثل هذا التقدير، وأنه على دراية تامة بي. وتطرق الحديث إلى موضوعات أخرى، وبعد أن تم تقديم المشروبات المنعشة التي تقدم في مثل هذه المناسبات، ألبسني معطفًا من الفرو، وألبس السيد هامر الكراكي[٢]، وكذلك فعل أيضا مع مسئولي القنصلية. وتقدمت بالشكر له على استقباله الرائع، وقلت له: إنني لن أقصر في إبلاغ البلاط عن سعادتكم بهذا اللقاء، وفى لحظة الرحيل قال لي: إنه لا يجب أن نتقيد بالزيارات الاحتفالية وحسب، وإنما يرغب أيضا في زيارات متكررة، كزيارات الأصدقاء.

وقد أفهم سليم أغاسى مترجمي الخاص أن لديه أوامر مشددة من عظمته ألا يسمح لأي شخص من بلاطه أن يطلب مني إكراميات، ومع هذا لم أشأ أن أترك الأغا [٣] المذكور بدون هدية، وبعد عناء أقنعته بأن يقبل ماسة صغيرة قيمتها ٤٠٠ قرش.

وفى اليوم التالي قمت بزيارة للريس أفندي الذي كان لطيفا جدا معي، وأبدى لي رغبته في أن يراني دائماً وهو على استعداد أن يأتي لزيارتي.

ولم أذهب بعد ذلك لزيارة أيٍّ من الشخصيات المهمة الأخرى، ولكنني كلفت مترجمي الخاص بأن يقدم لهم التهنئة والاحترام، وبمجرد إن يرحل ضيفي الجنرال هاتشينسون قائد الجيش الإنجليزي، سأقوم بزيارة كل فرد منهم. وحيث إن عادة تبادل الهدايا شيء متبع منذ القدم

---

(١) إبراهيم بك الكبير، هو البك الشهير الذي كان يقتسم السلطة مع مراد بك قبل وصول الفرنسيين، وعند عودة الأتراك عقب رحيل الفرنسيين تولى منصب شيخ البلد، أو حاكم القاهرة.

(٢) معطف للمناسبات يرتدونه فوق الملابس بأكمام طويلة وواسعة، مصنوع من خامة الأنجورا ومطرز من الذيل.

(٣) أغا، كلمة تركية، تعني رئيس، أستاذ، سيد، وفي النظام التركي القديم كان لقبًا، يمنح للأشخاص ذوى السلطة، بدون الإشارة إلى منصب محدد مدني أو عسكري. وهذه الكلمة كانت ومازالت لها عدة معان أخرى ، وتطبق على الموظفين العسكريين على عكس لقب الأفندي، الذي يمنح خصيصا للموظفين المدنيين .

بين الأتراك، فإنني أفكر في أن أتبعها، وسوف أجعلها منحصرة في عبوات الفاكهة المحفوظة من الكريستال مع عبوات مربى ممتازة، خاصة وأنه من السهل بالنسبة لي صنعها بواسطة عطار فرنسي ماهر، كان يعمل عندي طبيباً، وهو السيد رويار Royer والذي احتفظت به بعد موافقة الصدر الأعظم والجنرال الإنجليزي، وذلك لاحتياجي له (لاسيما بعد الأعمال الهمجية التي قام بها نصيف باشا في العام الماضي، وأدت إلى مقتل الطبيب فوردونى Vordoni مع أنه أخبرهم أنه أحد رعايا دولة البندقية ويتمتع بالحماية الملكية، وكذلك المفوض النمساوي السيد أنطونيو ميناسى Antonio Minassi [١] على الرغم من الفرمان الذي كان يحمله، والذي أطلعهم عليه، وبعد اغتياله تم نهب منزله، حيث وجدت به مبالغ نقدية كبيرة، ومجوهرات ثمينة)، وعرفاناً برعايته الشديدة لي عندما كنت معتقلا العام الماضي. وبعد تناول الغداء، ذهب الجنرال هاتشينسون لزيارة الصدر الأعظم، حيث استُقبل أحسن استقبال، وأُلبس معطفاً من الفرو، وكذلك الجنرال دويل Doile الذي كان برفقته، وقُدم له جوادٌ ثرى التجهيز، وبعض الأقمشة الهندية. ويستعد الجنرال حاليا للرحيل؛ حتى يلحق بالجيش أمام مدينة الإسكندرية، التي أصبحت محتلة تماماً على يد الجنرال الفرنسي مينو، الذي تحصن بقوة يبلغ قوامها حوالي خمسة أو ستة آلاف رجل، ورفض الجلاء عنها بنفس الشروط التي تم على أساسها الجلاء عن القاهرة. وأخشى أن يكون سوء فهمه الدائم سبباً في هلاك جيشه. وقبل أن يرحل القبطان باشا إلى رشيد، قدمت له مذكرة لأحصل على البيوردات[٢] الخاصة بالسفن الملكية الراسية في ميناء الإسكندرية، وبالفعل سمح لي بذلك، ولكن بسبب رحيله المبكر لم يكن لدى الريس أفندى الوقت الكافي ليكتبها، وكان دولة إسحاق بك مكلفا بأن يرسلها إلي من الإسكندرية. وقد كتبت خطاباً إلى الفارس سيدني سميث لأوصيه خيراً بالسفن الصغيرة الموجودة في الإسكندرية؛ حتى يعفيها من الالتزام بنقل القوات التي تعود إلى فرنسا، وأتمنى أن يستجيب لطلبي.

مع خالص تقديري واحترامي،،

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ٤٣

(١) راجع الوثيقة رقم ٧.
(٢) البيوردى تعنى أمراً أو مرسوماً.

٤- من روسيتي إلى راتكيال

موجز

- إجبار الفرنسيين على الجلاء عن مصر بسبب أخطاء الجنرال مينو .
- البكوات الذين وثقوا بوعود الإنجليز بتوفير الحماية لهم، تم إلقاء القبض عليهم على يد السلطات التركية.
- اختيار دي روسيتي قنصلا لروسيا.
- ملحوظة: تأكد نبأ القبض على البكوات ورحيل الفرنسيين.
- عن قنصل البندقية السابق السيد سيجوفيتش Cigovich الطامع في تعيينه قنصلاً للنمسا.

القاهرة: ٢٣و٢٤ أكتوبر ١٨٠١

يقال إن الفرنسيين انتهوا من الجلاء عن الإسكندرية أيضا.ولو كان على رأس جيشهم شخص آخر غير الجنرال مينو، لم يكن لينجح الصدر الأعظم، ولا الإنجليز في طردهم، ولكن لحسن حظ هؤلاء لم يتحرك الجنرال مينو من هنا إلا بعد أن قاموا بإنزال الجنود في أبى قير. وهناك شائعة كانت تؤكد حدوث إنزال آخر في السويس والقُصير، وأن الصدر الأعظم أصبح على مسافة يوم واحد من هنا، مما جعل الفرنسيين ينقسمون، فاتجهت معظم قواتهم إلى الإسكندرية متأخرة، وعن طريق قطع أحد السدود تمكن الإنجليز من تحويل مياه البحر إلى مريوط بالبحيرة، وبتلك الطريقة انقطعت الاتصالات والإمدادات عن الفرنسيين. وعلى حد قول واحد من الأتراك، لو أن الفرنسيين بقواتهم التي كانت تبلغ ألفي رجل تقريبا، كانوا قد تقدموا، لاضطر جيش الصدر الأعظم الذي لم يعد معه سوى بعض المدفعية الإنجليزية أن يلوذ بالفرار، كما حدث في العام السابق، ولم يضطر الفرنسيون إلى الانسحاب.

والبكوات سالفو الذكر، وطبقًا للوعود التي قدمها لهم الإنجليز بالحماية من ملكهم (السلطان العثماني) وأمتهم، وبإعادتهم إلى ما كانوا عليه، قدموا كل المساعدات الممكنة، وتعاونوا كثيراً مع الصدر الأعظم وكذلك القبطان باشا، اللذين عرفا كيف يخدعونهم؛ ففي اللحظة التي قلدوهم فيها معاطف من الفرو الممنوحة من السلطان، ألقوا القبض عليهم جميعا، وكانت هذه نهاية دولة المماليك*. وكان من المقرر ترحيل هؤلاء البكوات، وأن يتولى ثمانية من الباشوات

* العبارة الواردة في السياق ليست صحيحة؛ لأن دولة المماليك كانت قد انتهت في عام ١٥١٧ عقب سقوطها على يد السلطان سليم الأول، ومع ذلك فقد ظل المماليك يمارسون نفوذهم في مصر فيما عرف بالنظام العثماني المملوكي، وعلى الرغم من الضربات التي تعرضوا لها من قبل الفرنسيين خلال الحملة الفرنسية، ومن قبل العثمانيين في أعقابها إلا أنهم استطاعوا المحافظة على ما تبقي لهم من نفوذ، إلى أن نجح محمد علي في الإطاحة بهم وبنفوذهم في مذبحة القلعة ١٨١١. « المراجع».

مقاليد الحكم. وظل البكوات مندهشين لما حدث؛ لأنهم لم يتوقعوا مثل هذه الضربة، ولولا ثقتهم الكبيرة في وعود الإنجليز لما تم إلقاء القبض عليهم أبدا. وقد استطاع اثنان منهم الفرار؛ الأول هو محمد بك الألفي الذي أرسله الصدر الأعظم إلى مصر العليا ليجمع الضرائب، وما أن استدعاه، حتى بدأ رحلة السفر على الفور، ولكنه بدلا من أن ينزل لأسفل اتجه لأعلى، والآخر هو سليم بك أبو دياب، والذي كان معيناً خارج المدينة، فاستطاع أن يلوذ بالفرار، والآن يبقى أن نرى إذا ما كانت هذه البذرة ستثمر أم لا بمرور الوقت.

وتتذكرون سعادتكم أنكم كافأتموني باختياري قائما بالأعمال الروسية، طبقًا لما قاله لي سعادة السيد تمارا Tamara [١] أثناء المشاركة رسميا في استقباله هنا، حيث قال لي: إنه علم من سلفه خدماتي الجليلة التي قدمتها، وحثني على الاستمرار، وخطابكم لم أتسلمه إلا عند وصول الفرنسيين، ولم أتمكن من الرد عليه إلا أثناء فترة الهدنة في العام الماضي. وقد تسلمت الآن خطابا آخر تخبرونني فيه أن الإمبراطور الراحل باولو كان قد سبق وأن اختارني قنصلا له في مصر، وهو الأمر الذي لم يصلني، ولذلك كتبت إلى الوزير الكونت بنين Penin ليمنحني تأكيداً من خليفته، وبمجرد أن كتب إلي الصدر الأعظم ليعترف بي كقنصل روسي؛ حتى أمر مترجمه ووكيله السيد ميكيلي Micheli أن يستأذنني للقدوم إلى هنا، ليقدمني، وهو ما حدث بالفعل. وقد جاملني الصدر الأعظم قائلا: إنه قبل هذا المنصب الجديد كان يبدى كثيراً من الاهتمام والتشجيع، وأنه الآن أصبح متحمسًا لأن يساعدني في كل مناسبة، وبعد الاحتفال المعتاد، ألبسني معطفًا من الفرو، وشجعني على أن أزوره دائماً وألا تقتصر الزيارات على زيارات العمل، وهو ما كان قد أخبرني به قبل ذلك عدة مرات.

ولم أستطع، حتى الآن، تنفيذ مطالبكم؛ نظرًا لكثرة العراقيل، واستمرارها، والناشئة عن التغيير الشامل في الأوضاع. ولكنني آمل في أن أواصل قريبًا أداء واجبي، وفي غضون ذلك أتمنى أن تقبلوا اعتذاري؛ لأنني وأنا أكتب لكم لا أترك سبيلا للمطالبة بما تدين به الحكومة المنهارة، سواء لشخصي أو لمواطني بلدي. وأتمنى أن أنجح، ولن أنتقل من التمني إلى الثقة إلا إذا سمحتم وألزمتم القائمقام بأن يقر بأنه ما دامت كل ثروات المماليك من أملاك الباب العالي، فإن من العدل أن يسدد الباب العالي ديونهم.

---

(١) انظر الوثيقة رقم ١٥.

وأتمنى أن أتمكن من أن أرسل خطابي الحالي في الوقت المناسب، مع حقائب البريد التي سيرسلها الصدر الأعظم، وأنتهز الفرصة لأرسل لسعادتكم صورة طبق الأصل من خطابي المؤرخ في ٣٠ سبتمبر.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير

القاهرة: ٢٤ أكتوبر ١٨٠١

ملحوظة: لم أتمكن من استغلال حقيبة البريد في الوقت المناسب، لأن الصدر الأعظم كان يضغط لإرسالها، لكي أنقل نبأ القبض على جميع المماليك الذين كانوا هنا، باستثناء الاثنين سالفي الذكر؛ أحدهما هو سليم بك أبو دياب، الذي دار دورة حتى يفلت من قوات الصدر الأعظم، ثم لجأ بعد ذلك هو ورجاله إلى الإنجليز، الذين كانوا يحاصرون الجيزة. وقدم الصدر الأعظم طلبات عديدة لتسليمه، ولكن الكولونيل الإنجليزي أجاب بأنه لا يمكنه تسليمه بدون أمر من الجنرال.

وتسلمت خطابًا من رشيد يفيد بأنه في السادس عشر من الشهر الجاري رحل جميع الفرنسيين من الإسكندرية، ويؤكد أيضا أن القبطان باشا لم يتمكن من القبض على البكوات الذين كانوا في معسكره، بفضل الإنجليز، الذين يقال إن القبطان باشا قد اتفق معهم على أن يتركوا البكوات آمنين من الآن وصاعدًا، إلى أن يتم تقرير مصيرهم بالاتفاق مع البلاط في لندن. ويبدو أن هذا الخبر صحيح؛ لأن الصدر الأعظم منذ الأمس وهو يعامل البكوات الموجودين هنا والمحتجزين داخل قصره بمنتهى اللطف.

وتنتشر في الإسكندرية ورشيد، وهنا أيضا إشاعة تؤكد أن السيد سيجوفيتش(١) قد حصل في فيينا على منصب القنصل الملكي، ولو ثبتت صحة هذا الخبر، سيكون ذلك تخليصًا لآلامي وجروحي التي عانيت منها منذ سنين عديدة، لاسيما في السنوات الثلاث الأخيرة، غير أنني لن أصدق تلك الشائعة، التي إذا ما تحققت فإنني أتمنى من سعادتكم منحي ما أعتقد أنني أستحقه؛ لأن من عمل مدة طويلة مثلي لا يمكن عزله على نحو كريم، إلا بتشريف مصحوب بمرتب مدى الحياة.

تورشيكا، ١٨٠١ رقم ٤٣

---

(١) انظر الوثيقة رقم ٨ .

٥-من دي روسيتي إلى راتكيال

موجز

- البكوات قد ينخدعون من قبل القبطان باشا، والصدر الأعظم؛ لثقتهم في وعود الجنرال هاتشينسون.
- غضب الجنرال هاتشينسون وتدخله المتحمس من أجل البكوات.
- الصدر الأعظم يقنع دي روسيتي بالانتقال إلى المعسكر الإنجليزي بالإسكندرية ليحل المسألة .

القاهرة: ٣٠ أكتوبر ١٨٠١

سوف يصلكم هذا الخطاب مع خطابي السابق المؤرخ بتاريخ الثالث والعشرين من الشهر الجاري، حيث إنه لم يصل في الوقت المناسب ليلحق بالبريد المسافر قبل هذا.

ما يزال الخلاف قائماً بين القبطان باشا، والجنرال الإنجليزي.

لقد أغرى الجنرال الإنجليزي البكوات، وأقنعهم بضرورة طاعة الصدر الأعظم، والقبطان باشا لأنهم قد يساعدونهما ضد الفرنسيين، ووعدهم الجميع بالأمان والحماية، ولكن البكوات لم يكن لديهم ثقة إلا في الجنرال الإنجليزي الذي وعدهم، ليس فقط بالأمان، ولكن بإعادتهم إلى وضعهم السابق. وهذا ما رفعه الجنرال بخطاب صارم إلى الصدر الأعظم،الذي أعرب في رده أن لديه أفضل النوايا وأحسنها تجاه البكوات، وتأكيداً لهذا أشار إلى التعليمات التي ينتظرها من بلاطه الملكي. وقد وصلت هذه التعليمات، وتقضي بإرسال البكوات كلهم إلى القسطنطينية، ولكن الصدر الأعظم والقبطان باشا أخفياها، وببعض الحيل سيطر الصدر الأعظم على البكوات الذين كانوا هنا، وحاول القبطان باشا أن يفعل الشيء نفسه مع البكوات الذين كانوا بالقرب من معسكره، وببعض الحجج السياسية أبعد اثنين منهم من هنا. وهؤلاء، مخافة حدوث أية مفاجآت، طالبوا الجنرال الإنجليزي بالوفاء بوعوده، ولا أدري ما هي الضمانات التي أعطاها لهم، ولكن فيما يبدو أنه قد تم تهدئتهم من جانب الجنرال الإنجليزي، ومن المعاملة الكريمة للقبطان باشا نفسه؛ لأنهما تركوهم يفترضون أنهم قد يؤخذون على غرة، بينما كانوا يريدون الدفاع عن أنفسهم، ويبدو أنهم أدركوا ذلك في وقت متأخر جدا، ولهذا وقعت مذبحة، ومن سبعة بكاوات يقال إنه لم يتبق سوى اثنين فقط. وعندما علم الجنرال الإنجليزي بالمأساة شعر بالغضب، وأمر بمحاصرة معسكر القبطان باشا، وتقدم هو شخصياً مطالباً بتسليم الاثنين اللذين تبقيا من البكوات على قيد الحياة، وتم تسليمهما له. ثم طالب الجنرال الإنجليزي بجلاء العثمانيين عن الإسكندرية ورشيد، وفي ظل

هذه الاضطرابات استدعاني الصدر الأعظم، وهو مقتنع بأنني الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يفك الاشتباك، وينهي تلك المسألة، وبطريقة تكاد تكون أكثر من ملزمة كلفني بالسفر إلى المعسكر الإنجليزي. وفي الغد سأبدأ تلك الرحلة، وسنرى إذا كنت سأتمكن من إخماد تلك النيران التي قد تترتب عليها نتائج وخسائر جسيمة أم لا؟ وأعتقد أن معاليكم سوف تشعرون بالرضا والاستحسان؛ لعدم رفضي القيام بتلك المهمة الشاقة، وكم أتمنى أن أحقق نجاحًا فيها.

وأتقدم بخالص تقديري واحترامي»»»

تورشيكا، ١٨٠١ رقم ٤٣

٦-من دي روسيتي إلى راشكيال

موجز

- القنصل دي روسيتي يرحل من القاهرة متجهًا إلى الإسكندرية؛ ليتشاور مع الجنرال الإنجليزي هاتشينسون حول مذبحة البكوات.
- غضب الجنرال، واتهاماته للصدر الأعظم والقبطان باشا.
- رحيل الجنرال هاتشينسون وتعيين اللورد كافان Cavan لقيادة الجيش الإنجليزي.
- زيارة اللورد كافان لروسيتي، والاتفاق معه على إرسال الجنرال ستيوارت Stuart إلى الصدر الأعظم في القاهرة لإطلاق سراح المماليك.
- الإفراج عن المماليك.
- الإنجليز يصادرون كل السفن والبضائع الموجودة بالإسكندرية.
- إحباط عام.
- دي روسيتي يلغي المصادرة، ويذهب إلى معسكر القبطان باشا، الذي استقبله بمشاعر صداقة حميمة، وعرفه على الحاكم الجديد لمصر.
- دي روسيتي يعود إلى القاهرة ويخبر الصدر الأعظم بما قام به في الإسكندرية.
- محاولات دي روسيتي لمصالحة البكوات مع الباب العالي.

القاهرة: ١٦ ديسمبر ١٨٠١

لم تكن زيارتي للإسكندرية لتأتي بأفضل مما كانت. حيث قابلت في أثناء سفري طليعة إنجليزية في النيل، كما قابلت في رشيد الجنرال بيرد Baird [١] مع باقي القوات وهم يستعدون للتحرك، ولكن وصولي أجّل زحفهم. وعلى الفور انتقلت إلى الإسكندرية عبر بحيرة المعدية، وأرسلت للجنرال هاتشينسون من رشيد أطلب منه اثني عشر جواداً لمتابعة رحلتي، فأرسلها مع موكب حراسة من اثني عشر فارساً، وبعدها انتقلت إلى مقره الرئيسي. وكان في صحبتي أغا[٢] من القاهرة أرسله الصدر الأعظم بخطاب من البكوات، يحيطونه علما بأنهم موجودون لديه حيث يعاملون أحسن معاملة، ويرغبون في الذهاب معه إلى القسطنطينية. واستقبل الجنرال الأغا بمنتهى الحدة، وأخبره أنه لا يريد خطابات من طرف أناس محرومين من الحرية.

وجاء معي الشيوكدار(رئيس المراسم) Ciocadár [٣] وهو يحمل هدايا للجيش الإنجليزي، ومن بينها علبة تبغ ذهبية، مرصعة بالماس، أعطاها له الصدر الأعظم ليقدمها خصيصاً للجنرال هاتشينسون. واعتقد الشيوكدار أن الوقت مناسب لتقديم الهدية، فأخبر الجنرال بأن لديه شيئًا يقدمه له من طرف الصدر الأعظم. وأمام هذا القول استشاط الجنرال غضبا، وأمر رئيس المراسم أن يرحل عن الإسكندرية في غضون عشر دقائق. وقد حاولت أن أهدئ من ثورة الجنرال وغضبه، وأقنعته بأن يمنح رئيس المراسم جواز مرور، ويزوده بمركب يرحل بها في اليوم التالي. وأعتقد أنه لولا أن الجنرال المذكور كان قد نزل ضيفًا لديّ هو ورئيس أركانه لعدة أسابيع، لعاملني أنا أيضا بطريقة سيئة، ولكن هذه الاستضافة قد ساعدتني أن أتناقش معه في الأمر الذي جئت من أجله إلى الإسكندرية. وبدأت الحديث معه قائلا: إن الصدر الأعظم يشعر بالألم الشديد تجاه المأساة التي حدثت، وأنه أكد لي شخصياً أن هؤلاء البكوات هم السبب في ما حدث؛ لأنهم كانوا البادئين في إطلاق النار على رجال القبطان باشا. وأجابني الجنرال وقد شمله الغضب أن قضية القتلة كانت موضع اهتمامه، وأن قبطان باشا جعلهم يكمنون في سفينته، وقد ذكر لهم بأن لديه أوامر صريحة بالقبض على البكوات عند وصولهم إلى السفينة. واستطرد الجنرال مكملا: والدليل على ذلك، أنه بعد أن أقنع البكوات بمنتهى اللطف والذوق وبالقسم لهم على أنهم أصبحوا الآن في أمان، أقنعهم بالنزول معه إلى فلوكة تحملهم لرؤية السفينة الصغيرة في بحيرة المعدية، جاءت وراءهم فلوكة أخرى تحمل ضباطًا كان قد طلبهم لأمر عاجل، وقاموا بقتل البكوات في تلك

(١) David Baird (١٧٥٧-١٨٢٩)، قائد الجيش الإنجليزي بالهند، والذي أرسل إلى مصر ليساهم في طرد الفرنسيين.

(٢) انظر المذكرة رقم ٢ .

(٣) كلمة تركية، معناها الاشتقاقي، رئيس المراسم، معلم الاحتفالات، كبير الأمناء في البلاط، أما من ناحية الامتداد، فتعني: مندوبًا أو خادمًا من قصر السلطان، أو من لدى الصدر الأعظم، أو من أي شخصية ذات سلطة في الدولة، والكتابة الصحيحة Clûqadâr .

المجزرة، التي كانت إهانة واضحة وصريحة بكافة المقاييس لشرف الأمة والجيش الإنجليزيين، وهي إهانة قد كفَّر عن جزء منها بإجبار القبطان باشا أن يسلمه جثث الأموات، ويعيد الأحياء، وفى النهاية أخبرني برغبته في أن يطلق الصدر الأعظم سراح المقبوض عليهم من البكوات، مؤكداً أنه قد أمر بالفعل بتحرك القوات لتنفيذ هذا الأمر.. إلخ. وقد أخبرته أن الصدر الأعظم شخص يقدره ويحترمه كثيراً وأنه لا يوجد ما يستدعى تحرك القوات، لأن كل الأمور ستهدأ وتُحل بعد هدنة قصيرة، وعند تلك اللحظة تغلبت بالشعور بالتعب من الرحلة، واستأذنته في الرحيل على أن أعود إليه في اليوم التالي. فلم أكن أرغب في أن أطيل في الحديث أكثر من هذا؛ لأن الجنرال بدا ثائراً للغاية.

وفى اليوم التالي تم الإعلان عن أن الجنرال هاتشينسون مريض جداً، وأن الأطباء قد أخبروه بأن بقاءه في الإسكندرية لأكثر من ٢٤ ساعة قد يؤثر بالسلب على حياته، ولذا رحل متجهاً إلى مالطة. وأبلغني أنه كان يرغب بشدة في لقائى، ولكنه كان ضعيفاً لدرجة تجعله لا يقوى حتى على الكلام. وحل اللورد كافان [(١)] مكانه في قيادة الجيش. وكنت أنا أول من شرف بزيارته، حيث تحدث معي عن الظروف الحالية، ورأى حلا للمشكلة أن يرسل الجنرال ستيوارت [(٢)] مفوضاً عنه؛ ليقنع الصدر الأعظم بأن شرف الأمة والجيش الإنجليزيين يتطلب إطلاق سراح البكوات؛لأنه من غير اللائق، بعد أن وعدهم الجنرال هاتشينسون رسميا بتوفير الحماية باسم الملك والأمة والجيش، أن يتم إلقاء القبض عليهم. وفى بادئ الأمر حاول الصدر الأعظم أن يصر على موقفه، ولكنه بعد ذلك تساهل، وأطلق سراح البكوات.

سوف أرحل من الإسكندرية بعد الجنرال ستيوارت مباشرة، ولكن البلد بأسرها جاءت تزورني لاسيما القباطنة، ومواطني بلدي.

وسوف تلاحظون معاليكم في نسخة الاتفاق المرسلة، أنه قد تم الاتفاق على أن تكون كل السفن والأمتعة الموجودة بالإسكندرية تحت أمر القوتين المتحالفتين، يتقرر مصيرها وفقا لقانون الأمم المتحضرة والعرف. وبعد أن نفذ المندوبون الإنجليز الأمر الصادر بمنع إقلاع السفن التجارية، طالبوا بضرورة أن يقدم كل فرد مذكرة مفصلة، موضحاً بها البضائع التي كانت لديه، سواء في المخازن، أو في السفن. وبالفعل قدم الجميع ما طلب منهم، على أمل أن يتم الإفراج عن بضائعهم، بعد التأكد من حيادهم، وظلوا مندهشين عند سماعهم نبأ أن كل السفن والبضائع ستظل

(١) ريتشارد فور ويليام لامبيرت، كونت كافان(١٧٦٣-١٨٣٦).

(٢) السير جون ستيوارت(١٧٥٩-١٨١٥) منحه فرديناندو الأول حاكم نابولي لقب دوق ميديا Madia، وهى إحدى قرى كالابريا Calabrie حيث حقق الجنرال ستيوارت في الرابع من يوليو ١٨٠٦ انتصارا مشهودا على الفرنسيين.

مصادرة؛ لأنه ليس من سلطة أحد في الإسكندرية أن يفرج عنها، ويجب انتظار أوامر القائد الأعلى. ومما يذكر أن جميع الأوروبيين، والأتراك، والمسيحيين العبريين والقباطنة كانوا في حالة ضيق وغضب، لأن قيمة ما تمت مصادرته وصلت على الأقل إلى عشرة ملايين قرشا. وكتبت رسميا إلى اللورد كافان حول هذا الموضوع، وبدا من رده أن هناك أملا في إدخال السرور إلى قلوب هؤلاء المساكين. وحضر المندوبون الذين يتحدثون أكثر مما يفعلون، وفى النهاية قمت بصرفهم. وكتبت كتابا آخر أكثر شدة إلى اللورد كافان، وبدون أن أنتظر الرد رحلت على الفور إلى أبى قير. وذهبت إلى معسكر القبطان باشا، وبمجرد أن وصلت توجهت مباشرة نحو خيمته، حيث خرج منها ليكون في استقبالي بمنتهى العطف والود، وأمر على الفور بإعداد خيمة، وكل ما يلزمني لقضاء الليل في معسكره. كما قام باصطحابي في فلوكته الخاصة لمدة ساعتين تقريبا. وكان محور الحديث منصباً على موضوع البكوات، حيث أقسم بأغلظ الإيمان بأنه قد أمر بالقبض عليهم فقط، وليس بقتلهم. وتحدثنا في موضوعات عديدة، وعرض علي خدمات لا حدود لها، ولكن في النهاية لم يستطع أن يحتفظ ببشاشته وباهتمامه الملحوظ بي. وكنت مازلت في اجتماع معه، عندما قدم لي خطاباً مرسلاً إليّ مع ساعي بريد من قبل المفوض جودار [1] بالإسكندرية، وفى هذا الخطاب أخبرني أنه بعد رحيلي بساعة، جاء إليه المفتشون الإنجليز، ليخبروه بأن اللورد كافان قرر الإفراج عن السفن والبضائع التي يثبت حيادها، بشرط أن أسحب الخطاب شديد اللهجة الذي أرسلته إليه قبل سفري. وشعرت بالسعادة عند سماعي هذا الخبر السار، ولذا استأذنت القبطان باشا، واتجهت على الفور إلى الخيمة المخصصة لإقامتي. وفي ردي على خطاب السيد جودار أخبرته أن تلك الاستعدادات التي اتخذها اللورد كافان تعتبر مُرضية جدا بالنسبة لي، وأن عليه الذهاب إليه، وأن يطلب منه باسمي إعادة الخطاب الذي سبق وأن كتبته له. وهو ما حدث بالفعل، وتم الإفراج عن كل الأمتعة والسفن التي كانت مصادرة. وكم أسعدني هذا الحدث، لاسيما بعد الدعاء والبركات التي شملني بها الكثير من الناس، الذين كانوا قد أصبحوا على شفا الخراب.

وفى اليوم التالي ذهبت لكي أطلب الاستئذان بالانصراف من القبطان باشا. ولحق بي في المعسكر خمسة عشر، أو ستة عشر من القباطنة الروس فضلا عن قبطان نمساوي يعمل بالجيش التركي، جاءوا جميعًا إلي، ولكل منهم طلب أو شكوى معينة. وقدمتهم جميعًا إلى القبطان باشا، الذي استقبلهم أحسن استقبال، وأصدر أوامره في أثناء وجودي بضرورة توفير سبل الراحة والأمان لهم.

(١) نائب القنصل النمساوي المقيم بالإسكندرية، ودى روسيتى هو القنصل العام المقيم بالقاهرة.

وتناقشنا من جديد في موضوعات أخرى، حيث أعرب لي عن احتجاجاته الشديدة، وذكر أن الكيايا kiaja [١] التابع له أصبح باشا من الدرجة الأولى[٢] وأنه بات من المقرر له أن يحكم مصر (محمد خسرو)[٣] بعد رحيل الصدر الأعظم. كما فاجأني بقوله، إنه قد أوصاه بي، و أصدر له أوامر بأن يأخذ بنصيحتي ومشورتي، وقدم لي (بقجة)[٤] هدية، وأمر بإعداد فلوكة لتحملني إلى إدكو.

وبعد أن خرجت من خيمة القبطان باشا، اتجهت مباشرة إلى خيمة الباشا الذي أوصاه بي، حيث وجدته شابا مهذبا، استقبلني بمنتهى اللطف والاحترام، وأخبرني بالأمر الذي أصدره له القبطان باشا ليقيم علاقة صداقة معي، ويأخذ بمشورتي ورأيي في كل أمر، تماماً كما سبق وأن أخبرني القبطان باشا بذلك.

وعند وصولي إلى رشيد، جاءني قائدها ليخبرني بأن لديه أمراً من القبطان باشا بأن يظل تحت أمري، وأمراً آخر من الباشا شخصياً ليقنعني بأن أقبل أن تقلني إلى القاهرة السفينة المخصصة لنقل دولته، وهى سفينة مزينة ومعدة خصيصاً لاستخدام الباشوات عندما جاءوا ليحكموا مصر بالقوة، ومع أنه يوجد معي ثلاث سفن أخرى، إلا أنه كان لا يمكنني أن أرفض مثل هذا العرض.

كما أصدر الصدر الأعظم فرماناً يقضى بأن يتبعني وينفذ أوامري جميع القادة، وشيوخ القرى، ويمدوني على الفور بكل ما أطلبه، مع التهديد بالإعدام عند أية معارضة أو رفض. وأنا لم أكن في حاجة إلى مثل هذا الفرمان؛ لأن الجميع يعرفونني، كما أنني لم أكن محتاجا لكل ما يعرضونه علي، فأصبحت في وضع من يرفض لا من يطلب.

---

(١) مدير، المسئول عن إدارة شئون القصر، في مصر تنطق كيايا، وهذه الكلمة هي المقابل التركي للكلمة الفارسية كتخدا. و(كيايا بك) كان لقب ناظر الداخلية في حكومة القسطنطينية.

(٢) كلمة باشا هي لقب شرفي يمنح لكبار الشخصيات المدنية والعسكرية في البلاد الإسلامية، ويوجد ٣ فئات من الباشوات، يميز بينهم عدد الأشرطة إما شريط واحد، أو اثنان، أو ثلاثة أشرطة من شعر الفرس، يحملها الباشا كشعار، وثلاثة أشرطة تعنى المنزلة العليا .

(٣) كان اللقب الرسمي لحاكم مصر العام، وباقي المقاطعات التركية هو الوالي، ومحمد خسرو كان أول حاكم أعطاه الأوروبيون لقب نائب الملك (السلطان) .

(٤) قطعة من القماش على شكل مربع تستخدم في لف شيء، وتستخدم كهدية، ترسل داخل قطعة من القماش نفسه، وكتابتها التركية الأكثر دقة هي bokhceh، وفى اللغة العربية بقجة bogqah.

وفي اليوم التالي لعودتي ذهبت لرؤية الصدر الأعظم، وأخبرته بأمر رحلتي، وأبلغني بكل ما حدث هنا، كيف تم إطلاق سراح البكوات والمماليك [١]. وبعد التشاور في هذا الأمر انتهينا إلى أنه ليس من صالح هؤلاء الناس أن يظلوا هكذا معزولين، ودون توفير احتياجاتهم، وأشعرني الصدر الأعظم بأنه بصدد وضع النظام الذي يجب أن يتبعه هؤلاء البكوات، ولذا كلفني بإقناعهم بأن يقدموا له التماسا عن طريق الجنرال ستيوارت، وبعدها يتم الاتفاق معه على ما يحافظ على مصالح الباب العالي، ويساعد البكوات.

وقمت بتنفيذ الأمر بسرعة مذهلة. وبالفعل تم استسلام وخضوع البكوات، الذين اصطحبهم الجنرال ستيوارت معه إلى الصدر الأعظم، وبينما كنت أضع خطة لاتفاق مشترك لحل تلك المسائل، وصل خطاب من اللورد كافان إلى الصدر الأعظم يخبره فيه أن اللورد إلجن Elgin[٢] يتحرك إلى هنا. وتسبب هذا الخبر في تعليق الأمر. وكان من المقرر وصول هذا السفير في ٢٦ أكتوبر، ولم يعرف حتى الآن إذا كان قد وصل، أم أجَّل رحلته؟ وهذا التوقف أثار اضطرابًا وبلبلة في مصر، الأمر الذي جعلني لا أستطيع أن أنظم، أو أرتب حياتي بطريقة تسمح لي بأن أكرس بضع ساعات في اليوم للمكاتبات والمراسلات، وكم أشعر بالإحراج لعدم تمكني من الرد على أوامركم المبجلة، ولكنني أتمنى من سعادتكم الشعور بالرضا لما نفذ منها حتى الآن.

والسيد جودار أيضا الموجود في الإسكندرية كان محاطًا بالعديد من القباطنة، ورجال البحرية الذين لا يتركونه يتنفس، ولذا لا أعرف إذا كان سيتمكن من تنفيذ الأوامر الصادرة إليه بعمل يوميات تشتمل على كل الأحداث المهمة، ويرسل نسخة منها إلى سعادتكم، ونسخة أخرى إلي. وبالنسبة لباقي المهام فأنا على يقين من أنه سيبذل قصارى جهده لتنفيذها، وأي شخص حكيم سيسعد بما يقوم به من جهود.

والتوقيع المبدئي للسلام العام تم إعلانه من كل الأطراف، وأتمنى أن أسمع تأكيد هذا الخبر من سعادتكم.

مع خالص تقديري واحترامي،،،

تورشيكا ١٨٠٢، رقم ١٠

---

(١) دي روسيتي يفرق بين البكوات الذين كانوا القادة، وبين المماليك الذين كانوا الجنود.

(٢) توماس بروس Thomas Bruce كونت Elgin و Kincardine (1766-1841)، السفير الإنجليزي بالقسطنطينية في الفترة من ١٧٩٩ إلى ١٨٠٢.

١٨٠٢

٧-من دي روسيتي إلى راثكيال

موجز

- مباحثات جديدة بين الصدر الأعظم واللورد كافان حول النظام الذي سيتبع مع البكوات.
- البكوات، يشعرون بعدم الرضا، وينسحبون إلى مصر العليا.
- الصدر الأعظم يستعد للرحيل إلى القسطنطينية.
- زيارة روسيتي للصدر الأعظم.
- الهدايا التي منحها الصدر الأعظم لروسيتي.
- قضية التاجر ميناسي Minassi الذي تم نهبه وقتله، على يد جنود نصيف باشا في أثناء الاحتلال الفرنسي.
- اتفاق بين نصيف باشا، وسيرمو يازيج Sirmo Iasig الذي يمثله وينوب عنه السيد ميناسي.
- مميزات يحصل عليها روسيتي من أجل التجار النمساويين.
- تكريم البلاط النمساوي لدى روسيتي.
- طلب إجازة.

القاهرة: ١٥ فبراير ١٨٠٢

سأواصل في هذا الخطاب سرد الأحداث التي حدثت بعد إرسال خطابي السابق المؤرخ في ١٦ ديسمبر الماضي الذي أرسلت الأصل ونسخة منه إلى سعادتكم.

وفى هذا الخطاب أتشرف بأن أخبر سعادتكم أن أمور البكوات مازالت معلقة في انتظار اللورد إلجن، الذي وصل بدلا منه سكرتيره السيد ستراتون Straton، ومترجمه السيد جابر، ومن الإسكندرية جاء معهما أيضا كبير جنرالات الجيش الإنجليزي اللورد كافان.

وقام السكرتير المذكور بإخبار البكوات أن البلاط الملكي قد اقتنع، واتفق على أن يعيد مصر للباب العالي، وبفضل الالتزام الذي تعهد به الجنرال الإنجليزي، تضمن الحكومة البريطانية لهؤلاء البكوات حياتهم وممتلكاتهم، والمعيشة في أي مكان يحلو لهم بعيداً عن مصر. وكان الصدر الأعظم يرغب في أن يوافق البكوات على المجيء إلى هنا، أو على الأقل الخروج من مصر، أو أن يجبرهم الجنرال الإنجليزي على ذلك. ولكن اللورد كافان رفض أن يجبرهم، بعد الوعود التي منحها لهم، وإرضاء للصدر الأعظم، قرر أن يحثهم على هذا فقط، وهو ما حدث بالفعل، وأجاب البكوات بأنهم سيخبرونه بقرارهم في اليوم التالي. ولكن دون انتظار الغد، وفي الليلة نفسها تركوا

معسكرهم ورحلوا من الجيزة متجهين نحو مصر العليا. وهو الأمر الذي أحزن الصدر الأعظم كثيراً؛ لأنه وجد نفسه مضطراً لأن يطاردهم ويلحق بهم.

ورحل اللورد كافان، ومعه السكرتير السيد ستراتون، والمترجم متجهين جميعًا إلى الإسكندرية. وكذلك رحل الصدر الأعظم أيضا، بعد أن اتخذ استعداداته عن طريق سوريا. ولكن قبل أن يخرج من المدينة، قمت بزيارته؛ لأتمنى له رحلة سعيدة، حيث أكد لي رغبته في أن يراني دائما. وبالفعل، بعد أن عسكر على مسافة تبعد مسافة ساعة، فكرت أن أقوم بزيارة أخرى له في الحادي عشر من الشهر الجاري، عندما جاء مترجمه ليخبرني أن عظمته يرغب في رؤيتي. وفى اليوم التالي نفذت رغبته، وذهبت إليه، حيث استقبلني بمنتهى اللطف، وأخبرني أن الأمر الذي سبق وأن طلبته ليس منه فقط، وإنما من الملك* نفسه، قد تمت الموافقة عليه وسينفذ. وقدمت له خالص شكري واحترامي، عندما منحنى للمرة الثالثة معطفاً من الفرو، وأهداني(بقجة) من القماش الهندي والحلبي. ولم يكتف بهذا، فبعد ذلك بيومين، وقبل أن يغادر المعسكر، أرسل لي خطابا مفتوحًا، يتضح من عنوانه أنه مرسل إلى عظمتكم، ولكن المضمون يبدو واضحًا، وظاهراً لأي شخص، فالهدف هو إخبار الجميع بأنه صديقي، وبأنني قد قدمت خدمات عديدة إلى الباب العالي وغير ذلك. ولذا أخذت نسخة من هذا الخطاب، ووثقتها من القاضي؛ لأحتفظ بها عندي، والأصل وضعته في المظروف. وباقي في الحكومة هنا الباشا الماهر محمد خسرو، التلميذ النجيب لقبطان باشا، الذي قمت بزيارته هو الآخر. ولقد استقبلني أفضل استقبال، وأكد لي وده في كل مناسبة، وقد واكبت أقواله أعماله.

وفي خطابي المؤرخ في ٢١ يوليو من العام الماضي، أحطت سعادتكم علماً بأنه عندما دخل نصيف باشا القاهرة مع البكوات، والقوات العثمانية، بهدف طرد الفرنسيين، مر بالحي الإفرنجي الذي كان يقطن فيه المسكين السيد ميناسي، الذي كان يعمل لحساب السيد سيرمو يازيج وكلاهما من الرعايا النمساويين، وأصدر أوامره لجنوده بتحطيم الباب، ونهب البيت. ولما رأى المسكين ميناسي (الذي لم يفكر في الهرب، ولا في أن يحمل متاعه إلى القنصلية؛ لأنني كنت سجينا لدى الفرنسيين)، أنهم يدقون الباب لتحطيمه، اتجه إلى النافذة، وأعلن أنه أحد الرعايا النمساويين، ويحمل فرمانًا من السلطان. ولكن الجنود طلبوا منه النزول، وإبراز هذا الفرمان، وبالفعل نزل بالفرمان في يده. وعندها أطلق الجنود عليه رصاصة استقرت في صدره، وأودت

* المقصود بالملك في هذا السياق هو السلطان العثماني «المراجع».

بحياته في الحال. وبعد عملية الاغتيال هذه اقتحموا منزله، ونهبوا خزينته التي كانت تحتوى على مبلغ كبير من المال، فضلاً عن مجوهراته الخاصة، ومجوهرات السيد يازيج التي كان يحتفظ بها في حوزة السيد ميناسي، وحين انتقل يازيج ليحصل عليها عرف تلك النهاية المأساوية، ومن ثم لجأ إلى القاضي ليحكم له. ولكن ليس هناك أمل في الحصول على شيء من نصيف باشا، الذي عوقب وجرد من ممتلكاته، وأبعد إلى سوريا،حيث كان الصدر الأعظم قد أمره أن يعوض المتضرر. وبينما كنت أستعد لأطالب بتعويض السيد يازيج من أموال الخزانة العامة؛ حتى ظهر لي شخص يدعى السيد نصر الله غيارني Nasralla Ghiarne من حلب، وأخبرني أنه جاء من طرف نصيف باشا بخطاب للفارس سيدني سميث، وخطاب آخر للقنصل الإنجليزي بحلب، وهو يطلب في هذين الخطابين من السيد سميث أن يتدخل لدى الصدر الأعظم؛ ليشمله بعطفه وأن يمنحه أية سلطة، ولكن مجيء ذلك المبعوث لم يؤتِ ثماره المرجوة؛ لغياب السيد سميث، ولأنني كنت أبعد ما أكون عن مساعدة نصيف باشا، بل إنني اتخذت بالفعل إجراءات ضده، وذلك رغبة مني في تعويض المواطن الشريف السيد سيرمو يازيج عما لحق به من أضرار، بمقتل وكيله السيد ميناسي ونهب ممتلكاته.

وبعد أن يأس السيد نصر الله من تحقيق هدفه، اقترح عليّ أن يجرى اتفاقًا مع السيد سيرمو يازيج، على أن أحول اعتراضي إلى تأييد لنصيف باشا. وكانت مطالب السيد سيرمو يازيج تصل إلى مبلغ ١٦٠٠٠٠ قرش، وتعهد السيد نصر الله بأن يدفع له ١٠٠ ألف قرش، و٢٥ ألفا في العام، بشرط أن ينعم نصيف باشا بالعفو، مع شرط جزائي بأن يكون للسيد سيرمو يازيج الحق في أن يطلب المبلغ بأكمله، إذا لم يوفِّ نصيف باشا بالتزاماته. وفكرت في أنني لو نجحت في إبرام ذلك الاتفاق سينتهي الأمر، وإذا لم أنجح، فسوف يحصل السيد يازيج على وثيقة في يده، قد تساعده دولتكم بموجبها؛ لأنه رجل يستحق المساعدة فعلا. وفي النهاية بذلت قصارى جهدي في هذا الموضوع. وفي آخر زيارة لي للصدر الأعظم انتهزت لحظة تسودها مشاعر الصداقة؛ لأخبره بأنني كنت أرغب بصفتي الرسمية في الانتقام من نصيف باشا، ولكن بصفتي الشخصية، كانت بداخلي روح مليئة بالرحمة والتسامح، بدلا من الثأر والانتقام، وطلبت العفو عنه. وقبل أن يلبي طلبي أراد أن يريني أخطاءه، وأنهى حديثه قائلا بأنه قد يحصل له على عفو من السلطان، بعد وصوله إلى هناك مباشرة، وأجبته بأنني كنت دائماً أسمع أن العفو الذي يصدره السلطان لابد أن ينبع أولاً من قلب الصدر الأعظم، ولهذا رجوته أن يمنحه لهذا الباشا، قبل وصوله إلى القسطنطينية. ووعدني بأن كل

شيء سيتم على أكمل وجه من أجل خاطري. وكلف سكرتيره السيد بوغوص[1] بتذكيره بالأمر في أثناء الرحلة، ومن ثم فنحن في انتظار ما سيحدث. وقد اتفق الصدر الأعظم معي أيضا في أن يضمن للسيد يازيج صرف مبلغ ٤٥٠٠ قرش باقي قيمة الملابس التي نهبت من السيد ميناسي المسكين، والتي كان يشعر عظمته بعدم الرضا من أجلها منذ فترة. وبشأن تسديد ديوني صدر القرار بأن يتم ترك القسط الرابع إلى الميري (الضرائب) [2]، والثلاثة أرباع الباقية تسدد على أربع سنوات.

كما نجحت في الحصول على الفرمانين اللذين أخبرتكم بهما؛ أحدهما خاص بالمفوض الموجود في كين Kene، والآخر الموجود في السويس، وذلك حتى يتمكن النمساويون من القيام بالتجارة في البحر الأحمر بمميزات أكبر من تلك التي يتمتع بها سكان المدينة أنفسهم، الذين يدفعون ضرائب حوالي ٢٥٪، في حين سيدفع النمساويون ٣٪ فقط. وقد أقدمت على استغلال مشاعر الصداقة والود التي أبداها لي كل من الصدر الأعظم، وقبطان باشا، والريس أفندي، وبالفعل تم منح الامتيازات بطريقة مرضية لا تجعلني أتمنى، أو أرغب في شيء أكثر من ذلك. ولولا صلابتي وتماسكي في مواجهة ما ألمّ بي من مصائب إبان الاحتلال الفرنسي، لما امتلكت المقدرة على أن أستفيد من مجيء الصدر الأعظم.

سنوات عديدة قضيتها في الخدمة أنفقت فيها الكثير من الأموال، وتعرضت لكثير من المعاناة التي أسفرت أخيراً عن امتيازات مهمة بالنسبة للتجارة، والملاحة النمساوية. أعتقد أنها أمور تستحق تقدير دولتكم، والبلاط الملكي.

---

(١) يوسف بوغوص بك، أرميني الجنسية، مسيحي الديانة، ولد في زميرنه (أزمير) عام ١٧٦٨ وتوفى بالإسكندرية عام ١٨٤٤. وبعد أن شغل منصب مترجم لدى القنصلية الإنجليزية بزميرنه، شغل الوظيفة نفسها لدى الصدر الأعظم يوسف باشا ، وجاء معه إلى مصر عام ١٨٠١ ثم عاد بعد ذلك إلى القسطنطينية. وجاء إلى مصر مرة أخرى كمترجم للوالي (علي باشا الجزائرلي)، وظل كذلك إلى أن حدثت تغييرات في الحكومة . وهو رجل ذكي نشيط، يتقن العديد من اللغات، واستطاع أن يحصل من محمد علي على منصب الملتزم الجمركي العام، ثم منصب كبير النظار . وفي هذا المنصب كان يعتبر بوغوص حقًا هو ذراع السلطان الأيمن، الذي يثق فيه ثقة كبيرة . وذات مرة في أثناء إدارته للجمارك أثار شك محمد علي وحفيظته، وكان من شأن هذا أن يتم على الفور إبعاده من مصر للأبد، وربما كان سيعاني مصيراً أسوأ من ذلك، لولا تدخل السيد روسيتي، ونائب القنصل ماك أردل Mac Ardl راجع : من مملكة محمد علي الذي أحيا التاريخ القديم Stuttgart, Pucker- Muskau ، ١٨٤٤ المجلد الأول، ص ٣٤-٣٥. F.Mengin، تاريخ مصر في أثناء حكم محمد علي، المجلد الثاني، باريس، ١٨٢٣، ص٢٥٩-٢٦٣. وجميع الرحالة في ذلك الوقت مدحوا بوغوص كثيراً. انظر روزيلليني وجريدته حول البعثة الأدبية التوسكانية في مصر تحت إشراف ج. جابريل G .Gabrieli، روما، ١٩٢٥، ص١٣.

(٢) الميري، صفة مشتقة من أمير، وتستخدم لتشير إلى الضرائب، وفي النظام القديم، كانت تطلق على ضريبة الدخل، وبالتحديد النصيب الخاص بسلطان القسطنطينية.

وقد قام (الإمبراطور) جوزيف الثاني، تقديرًا لجزء من مائة، لما قدمته من خدمات، بمنحي وسام شرف، وهو الشيء الذي لم أتوقعه من فرانشيسكو الثاني، والآن بعد كل هذا أرغب في الحصول على إجازة لمدة عام، وفي حالة غيابي سيحل محلي السيد ماك أردل Mac Ardle [1]وهو رجل مخلص كفء، ويمتاز بروح طيبة، وسيثبت أنه الاختيار الموفق.

بمجرد أن رحل الصدر الأعظم، رحل الإنجليز أيضًا، ولم يستبقوا، فضلا عن جيش الهند بالإسكندرية، سوى حامية صغيرة على ضفاف النيل، وبالتحديد بالجيزة، وبدأت الأمور تنتظم وتتحسن، كما بدأت الحكومة الجيدة التي شكلها الباشا الجديد في العمل، وأعتقد أنني لن أعاني فيما بعد من عدم الاستقرار والزعزعة كما هو حالي الآن، وسأتمكن من الرد على خطابات دولتكم، التي لن تتأخر كثيرًا، ملتمسًا من سيادتكم العذر لتأخر وصولها. مع خالص تقديري واحترامي.

ملحوظة:

أتمنى أن تلقى نسخ الخطابات الخمسة استحسان دولتكم، ولن أسمح لنفسي بالتعليق على أي منها؛ لأنني أعتقد أن هذا لا يدخل ضمن اختصاصاتي. وهي تلي تلك الرسائل التي بعث بها إليكم السيد هامر.

تورشيكا ١٨٠٢، رقم ١٠.

٨- من دي روسيتي إلى راشكيال

موجز

- عن قنصل البندقية السابق ستفانو سيجوفيتش.
- كيف تم القبض على دى روسيتى في أثناء السيطرة الفرنسية على مصر*.

القاهرة :١ مارس ١٨٠٢

(١) Giacomo Mac Ardle، من مواليد ليفورنو، خدم بمنتهى النشاط والحماس، لمدة أربعين عامًا في منصب نائب القنصل التوسكاني، وتولى لعدة أعوام مهام نائب القنصل النمساوي والروسي، وفي شيخوخة روسيتي تولى بمفرده عبء إدارة ثلاث قنصليات. وفى الفترة من (١٨٢٨– ١٨٢٩) قدم آخر خدماته إلى البعثة الأدبية التوسكانية بمصر، كما يتضح من جريدة الرحلات لروزيلينى، من التسعة عشر خطابًا المهمة التي أرسلها ماك أردل إلى روزيللينى، المحفوظة في مكتبة جامعة بيزا. وتوفى في القاهرة في ٢٦ يوليو ١٨٤١، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عامًا، (راجع الأرشيف الملكي لفلورنسا، سكرتارية الشئون الخارجية، بروتوكول ٣٢٥ رقم ٢٣، سبتمبر ١٨٤١).

* قبض على دي روسيتي في عهد الجنرال مينو حيث اتهم في إحدى القضايا التي لم يكن له علاقة بها، وربما يرجع سبب القبض عليه أيضا إلى سوء العلاقة بينه وبين مينو « المراجع».

بما أنني لم أتسلم خطابيكم المؤرخين في ١ أغسطس ١٧٩٨، و١ أكتوبر ١٨٠١، فبالتالي لم أستطع أن أطلب شيئًا مطلقًا من السيد ستفانو سيجوفيتش، قنصل البندقية السابق، الذي رحل منذ فترة طويلة من الإسكندرية، دون أن يترك شيئًا من المحفوظات، أو من الأعمال القنصلية. كما أنه لم يخبرني بأمر رحيله، وأعتقد أن ذلك بسبب الاضطراب الذي كان سائدًا آنذاك، ولم أكن في وضع يمكنني من أن أمنحه الوثائق، أو أن أمنعها عنه، حيث رحل بطريقة مؤسفة وسريعة. وبسبب عجلته هذه اضطرت زوجته أن تبيع زوجًا من الإطارات الجديدة التي كانت تملكها؛ أعطتهما إلى زوجة قبطان يدعى سكاربوني Scarpone المنقول إلى هنا، وسافرت إلى الإسكندرية، بعد أن تركتهما في بولاق في خزانة أمتعة. وأثناء حدوث اضطرابات في بولاق تم الاستيلاء على تلك الخزانة، وفى هجمة لاسترجاعها قُتل شخص تركي؛ وجدت عنده تلك الإطارات. واتضح أنها إنجليزية، وأراد الجنرال الفرنسي أن يعرف مني من هو الضابط الإنجليزي صاحب تلك الأشياء، ولما كنت أجهل ما حدث، فقد أجبته بأنني لا أعرف شيئا. ومن ثم تم اقتيادي إلى القلعة، وعوملت هناك معاملة مهينة.

وقد استكملت المراسلات مع مكتب الصحة بتريسته التي كنت قد تفاوضت معه بشأنها قبل مجيء الفرنسيين بمنتهى النشاط والحماس، سواء بالطريق المباشر، أو غير المباشر. كما أرسلت على الفور التعليمات التي كانت تقضي بمنع القناصل، والرعايا النمساويين من امتلاك سفن أجنبية، ولا رفع أعلام أو إرسال بعثات، إلى السيد القنصل بالإسكندرية والمفوض في دمياط.

أما عن شعار الطاووس الذي يوضع على مقر القنصلية، فلم أعثر عليه، أما عن صورته فهي منفذة بطريقة سيئة. وربما يستطيع القبطان مارينوفيتش Marinovich أن يبعث لي بصورة جيدة، على أن أقوم بصرف التكاليف اللازمة له.

مع خالص تقديري واحترامي،،

تورشيكا، ١٨٠٢، رقم ١٠

٩- من روسيتي إلى راشكيال

موجز

- حول تنفيذ الأمر المتعلق بجوازات السفر وحركة السفن.

القاهرة: ٣ مارس ١٨٠٢

تشرفت باستلام خطاب معاليكم المؤرخ في ٤ يوليو ١٨٠١. كما نقلت إلى إدارتي الأمر الصادر من البلاط مع ترجمة له، والمتعلق بجوازات السفر التي تعطفت معاليكم بإرساله لي، وسوف ينفذ بمنتهى الدقة، وقد نبهت على الجميع باتخاذ الإجراءات اللازمة كافة التي أوصيتم بها دولتكم. كما كلفتهم بوضع مذكرة دقيقة بكل السفن النمساوية التي ترسو في مرفأ الإسكندرية ودمياط، مع بيان بحمولتها سواء في أثناء الدخول، أو في أثناء الخروج، مع تمييز المنتجات والصناعات المحلية في الحالة الأولى، وفى نهاية العام سأرسل لسيادتكم الملخص والمضمون.

مع خالص تقديري واحترامي،

تورشيكا ١٨٠٢، رقم ١٠

١٠- من دى روسيتى إلى راشكيال

موجز

- دي روسيتي يرغب في تسجيل تاريخ الثورات التي ساندها، ولكن الاضطرابات لم تسمح له بذلك.
- يعتبر الشكر الذي يفكر الرسول البابوي في أن يقدمه للباب العالي؛ من أجل المساندات التي قدمتها له السلطات التركية بمصر شكراً مناسباً ومقبولا.
- تمجيد محمد باشا ومدحه.
- شكر وتقدير للموافقة على اختيار أنطونيو جودار نائبًا للقنصل بالإسكندرية.

القاهرة: ٣ مارس ١٨٠٢

لقد خفف عنى خطاب دولتكم المؤرخ في ١٩ أغسطس الماضي، وأنساني كل آلامي السابقة، واستشعرت فيه روح معاليكم الطيبة، التي تزيد من ولائي وعرفاني بالجميل .

من المؤكد أن تاريخ الثورات التي غرقت فيها سوف يكون تاريخاً مشوقاً، وكانت رغبتي هى القيام بمهمة تسجيلها، ولكن الأحوال المضطربة، التي تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، قد حالت دون تحقيق هدفي، وأتوقع أنه في الفترة المقبلة، ما دمت مقيماً هنا، فلن أجد الهدوء اللازم، سواءً لإرسالها إلى البلاط، أو لالتزامي الدائم بتكليفي أن أشارك معاليكم في تقييم الموقف.

والشكر الرسمي الذي تنوى معاليكم أن تقدمه للباب العالي اعترافاً وتقديراً للنعم التي قدمها لي الصدر الأعظم والريس أفندي، من المؤكد أنه سيترك أثراً طيباً جداً، لذا أرغب في أن تكرر معاليكم الشيء نفسه مع عزتلو [١] محمد باشا لكرمه معي، ومع قبطان باشا؛ لاختياره الرائع بوضع محمد باشا * على حكومة مصر. فهو شخص لا يكل ليلا أو نهاراً، ودائماً مشغول ومهتم بالنظام، وبإقامة العدل. ومع أنه في سن الشباب، إلا أنه لديه خبرة وعقل رجل راجح واعٍ وحكيم، وسوف يستمر هكذا، وسينجز المعجزة التي سوف تجعل التجارة تزدهر، وتسعد الناس.

وكم أسعدتني الموافقة على اختيار السيد أنطونيو جودار نائباً للقنصل بالإسكندرية، فهو رجل مثقف ونشيط، والوحيد في مصر القادر على تولى مثل هذا المنصب. ومن بين مفوضي البندقية السابقين لم يجد، ولن يوجد من هو كفء لهذا المنصب، وكنت سوف أشعر بالحرج لو لم أعثر على السيد جودار. لم أجد لوكالة دمياط أي شخص سواء كان من المواطنين، أو الأوروبيين، ولذلك كان من الضروري أن أرسل إلى السيد أيرث جبرايل Aireth Gabriel لتولي هذه الوكالة.

إن سفر القبطان باشا قد أضاع الفرصة المخولة لي لإصدار جوازات مرور متى كان ذلك ضروريا. والخطاب الذي وصلني مع خطابكم المؤرخ في ٥ سبتمبر من العام الماضي والمرسل من السيد فرانشيسكو دوينيز Francesco Duinese لشريف أفندي، قد سلمته شخصياً له في شهر ديسمبر الذي وصلني فيه. وأبدى شريف باشا ميلاً كبيراً تجاه السيد المذكور، والذي أقترح الرد عليه في أقرب وقت ممكن.

مع خالص تقديري واحترامي».

تورشيكا١٨٠٢، رقم ١٠

(١) كلمة من أصل عربى تنتهى بمقطع تركى، وتعنى عظمته أو حضرته.
* محمد باشا خسرو تسلم منصب الولاية فى ٢١ يناير ١٨٠٢ «المراجع»

١١- من دي روسيتي إلى راشكيال

موجز

- دي روسيتي يستلم بعد تأخر شديد خطابا مؤرخا في أغسطس ١٧٩٨.
- لو أن سلوك دي روسيتي حتى هذا العام لقي استحسانا، فمن المتوقع أن يستحق سلوكه بعد ذلك مديحًا وإطراء أكبر.
- تدخله الفعال مع مسئول الجمارك لرفع الأعباء المفروضة على السفن.
- الفرنسيون لا يحترمون معاهدات تحصيل الرسوم الجمركية.
- دي روسيتي يتعامل مع الفرنسيين بمنتهى الحذر والحيطة.
- روسيتي يتمتع بعطف كل من الجنرال بونابرت وكليبر وكرمهما، وأصبح مراد بك صديقًا للأخير.
- القبض على روسيتي بسبب قضية الإطارات.
- شخصية الجنرال مينو الهمجية.
- رأى سيء يكونه مينو عن روسيتي؛ بسبب تحريض طبيب من برجامو كان عدوًا لروسيتي.
- كيف أصبح هذا الطبيب عدوًا لروسيتي.
- الصعوبات التي واجهها روسيتي ليظل صديقًا للجميع وسط كل هذه العلاقات والصراعات التي يمر بها هذا البلد.
- انعقاد مؤتمر من القباطنة والمفوضين، لتحديد الرسوم الجمركية.
- استحالة بيع منزل أرملة أجوستيني Agostini .
- السيد بوتشانتي يُسرح من مستشارية الإسكندرية لتصرفه وسلوكه غير اللائق.

القاهرة: مارس ١٨٠٢

إن الرسالة القيمة جدًا المؤرخة نسختها يوم الأول من أغسطس لعام ١٧٩٨، تستدعي الكتابة المطولة، لو أنها وصلتني في الوقت المناسب، ولما كنت لم أتسلمها إلا في أكتوبر عام ١٨٠١ فسوف يكون الرد مقتضبًا.

وأبدأ بتوجيه الشكر لمعاليكم على الخطوات التي اتخذتموها من أجلي، والتي بسببها شعرت بالرضا عند سماعي الرد المناسب الذي وصلني من وزير الشئون الخارجية بتاريخ ١٩ يونيو.

وإذا ما كان يتضح من هذا الرد أن سلوكي المتبع حتى الآن يلقى الاستحسان، فإنني أعتقد أن سلوكي في الفترة القادمة سيلقى استحسانًا أكبر، بفضل الفرص التي أتيحت لي لأعوض التجارة والملاحة النمساوية.

الجنرال بونابرت، والذي أصبح الآن المستشار الأول*، عندما كان هنا، حرر مصر من المخادع كورين Corain . وقد وضع الإنجليز أحد موظفيه، على رأس جمرك الإسكندرية، وكان يرغب في أن يسير على نهجه ويتبع خطاه، وأثناء تواجدي في الإسكندرية، طلبت منه عن طريق المندوب الإنجليزي ضرورة أن يدير الأعمال وفقا للاتفاقيات، ومع كل ذلك فقد حاول أن يتبنى فرض الأعباء التي بدأها كورين، حيث فرض مبلغ ٢٠٠ تاليرى ** على كل سفينة أوروبية تؤجر للرحيل إلى أوروبا. وقد أرسلت أمرًا إلى جميع القباطنة، ومؤجري السفن النمساويين أن يحتاطوا في دفع أي مليم، وفى الوقت نفسه كتبت إلى السيد جودار، ليستدعي إليه حنا كاندالست Hanna Candalest ناظر الجمارك، ويخبره باسمى، بأنه في حالة أي خرق لبنود الاتفاقيات ينوى أن يقوم به، فإنني لن أشكو المختص الجمركي الذي فعل ذلك، ولكنني سأتقدم بشكوى ضده هو فقط، وسأطالب برأسه. هذا التخويف كان له أثره حتى الآن، وبدأ يخطط لتغيير نظامه، حيث إن الحاكم الحالي لمصر، محمد باشا، سينفذ كل طلباتي.

إن وجودي هنا في أثناء استعادة مصر قد ترك أثرًا طيبًا، فقد كنت أقضي على المشاكل قبل أن تستفحل، أو عندما تتجدد. وكنت أعتقد أيضا باعتباري قنصلا لبلاط صديق لفرنسا؛ ولأنني كنت أحسب أن الفرنسيين أصدقاءُ وأعون للباب العالي، أنهم سوف يحترمون الالتزامات التي تتعهد بها القوى الصديقة، إلا أنني كنت مخدوعًا في ذلك. فالقوانين التي أصدرها الفرنسيون كانوا يرغبون في أن تكون قوانين عامة، وأعتقد أن مبادئهم من شأنها أن تفتقد المساواة، لو أنهم ميزوا شخصًا ما، بحيث أصبح من الضروري أن يدفع الجميع بدون تمييز ٨ ٪ على الأغذية، والجمارك بعضها تصل إلى ٩٪ وأخرى تصل إلى ١٥٪.

لقد كان سلوكي تجاه الفرنسيين حذرا، في حين كان الجنرال بونابرت، القنصل الأول الحالي، يعاملني بمنتهى الاحترام واللطف، مما أثار دهشة أتباعه ورجاله. والشيء نفسه فعله خليفته كليبر. وحسب اتفاقية العريش وبموافقة كليبر نفسه كان من الضروري أن أتفاوض مع سكرتير سير سيدني سميث، الذي جاء إلى هنا، وزارني في بيتي، وعقب قطع العلاقات الغامض تم إلقاء القبض عليّ بدون اتهام، وفي عهد هذا الجنرال (كليبر)، أصبح مراد بك صديقا له، وبعد ذلك تم إطلاق سراحي. وأثار الحادث الملعون لإطارات القنصل السابق سيجوفيتش الشك في

* القنصل الأول، وهو المنصب الذي وصل إليه بونابرت عقب انقلاب برومير، وانهيار حكومة الإدارة في عام ١٧٩٩ .

** التاليري هو الريال النمساوي الذي كان يعرف بريال ماريا تريزا، والذي شاع استخدامه في العديد من الأقطار العربية، وبصفة خاصة أقطار الخليج العربي، كما كان يعرف أيضا بأبي طاقة . «المراجع»

أنها ربما تكون إنجليزية، فأرسلت إلى القلعة، كما تشرفت وأخبرت معاليكم في خطابي السابق. كم من الاعتذارات قدمها لي كليبر المسكين! وبعد مقتله القاسي حل محله الجنرال مينو، هذا الرجل الهمجي المتوحش، الإرهابي السطحي، ظل لحسن حظي في رشيد حيث عين لنفسه مترجما خاصا، وهو طبيب من مدينة برجامو، استقر هنا لعدة أعوام سالكًا مسلكًا ليس فوق مستوى الشبهات، لكن دون أن يمثل أمامي، ولو مرة واحدة. وفي تلك الفترة صدرت فتوى تمنع أن يرتدي المسيحيون ملابس تشبه ملابس الأتراك، ولكنني طالبت بأن يستثنى الأوروبيين من ذلك، وبالفعل تمت الموافقة على الاقتراح، شريطة أن يتم تزويدهم ببطاقة من قنصلهم. وقد جاء إليّ الطبيب المذكور للمرة الأولى، وبنظرة مقززة وبدون أن يلقى التحية طلب مني البطاقة، وأجبته «أية بطاقة؟» وسألني إذا كنت قنصل البندقية أم لا؟ وأجبته بالنفي. وبدون رد أدار ظهره في وجهي. وبعد عدة أيام تقابل مع أغا الإنكشاريين، وعندما رآه الأغا يمشى بمنتهى الثقة والجرأة، استوقفه سائلا إياه عن هويته، وأجابه بأنه شخص أجنبي، ولذا طلب منه أن يبرز البطاقة الخاصة به، وعندما وجده لا يحملها، ألقى القبض عليه على الفور، وأمر بجلده، ثم بعد ذلك توسل إليّ لأطلق سراحه، وبالفعل تم الإفراج عنه. وبسبب جريمتي هذه يعرف الله وحده ما قاله في حقي للجنرال مينو. فهو رجل، كما قلت من قبل، سطحي يأخذ بالانطباع الأول، ويبدو أنه قد كون رأيًا سلبيًا عني؛ لأنه في أثناء حكمه، أظهر بوضوح أنه مهتم بي كثيرا، وكان إذا رآني أرتكب خطأ مهما كان صغيرًا، يكشف لي عن شخصيته المخيفة. إن سلوكه الهمجي معي والأمر الذي أصدره لي بالرحيل، لم ينالا مني؛ لأنه عامل بالطريقة نفسها جنرالات آخرين ذوي وضع متميز.

ولقد كنت سواء في أثناء وجود الفرنسيين، أو بعد رحيلهم، محط اهتمام العثمانيين، والبكوات، وجميع السكان. وعندما جاء الإنجليز ظللت أحتل المكانة نفسها. إذ كنت أحاول دائما أن أرضى الجميع دون أن أضر، أو أغضب أحدًا. ومع أن تلك المحاولة كانت إلى حد ما صعبة وشاقة، فقد قدر لي مع ذلك النجاح. وعندما ثارت الجماهير ضد الفرنسيين، كنت على علاقة طيبة بالبلد وبهم.

وكان يبدو على الصدر الأعظم والإنجليز الانسجام في المظهر، ولكن لكل منهم آراؤه الخاصة في الجوهر، وكذلك قبطان باشا كانت له آراء تختلف عن آراء البعض، والبكوات وكبار رجال الدولة كان جزء منهم منحازًا إلى طرف، والباقي منحازًا إلى طرف آخر، فمنهم من هو مع الصدر الأعظم، ومن هو مع قبطان باشا، ومن هو ضده. والصدر الأعظم وقبطان باشا، على خلافات خطيرة مع الإنجليز، وأنا في الوسط، صديق للجميع، بين العرب المتمردين على الحكومة، والعرب

الموالين لها، البعض أعداء فيما بينهم، والبعض أعداء لبعضهم الآخر، والشخصيات التي تشغل مناصب، بعضهم يعارض بعضاً، ولاسيما في القمة، حيث لا يرى أحد أحداً غيره، وأنا وسط ذلك أجد نفسي مضطراً لأن أتصرف بطريقة تحافظ على أن أظل صديقاً للجميع، كما ترغبون معاليكم.

إن الخطاب ونسخة الفرمان الخاص بالرسوم القنصلية، يجب أن يكونا في أصل خطابكم، الذي لم أتسلمه، ولكنني عرفت قصد معاليكم، ولذا أمرت السيد جودار أن يعقد لجنة مكونة من المفوضين والقباطنة، وأن يتفق معهم على التعريفة التي يجب أن تسير عليها القنصلية. وبالفعل انعقدت اللجنة، وبعد أن أبدى كل فرد رأيه، وبالرجوع إلى تعريفة البندقية التي كانت معهم، اتفقوا، على أن تسير القنصلية على نظام الجمارك المتبع حاليا، مع تخفيضه ٢٠٪. وبهذه الطريقة يبدو لي أنه لن يشكو أحد.

وقد كلفت السيد جودار أيضا أن يناقش الرسوم التي تفرضها القنصلية على تأجير السفن. وفي أول تقرير قدمه لي أخبرني أن القباطنة رفضوا، بحجة أن القانون البحري لا يجبرهم على دفع تلك الرسوم، ولذلك أمرته على الفور أن يقلع عن المطالبة بها، بحيث توزع الرسوم القنصلية المفروضة على البضائع فقط.

ولا أستطيع أن أفعل شيئًا لبيت أرملة أجوستيني، في الوقت الذي أعطى فيه زوجها الراحل جميع أوراق البيت للسيد باتحالون Batthalon الذي سافر إلى مارسيليا، بحيث لم يعد في مقدوري الحصول على هذه الأوراق التي أعتقد أنها مرهونة. فإذا وصلت إليّ الأوراق سوف أتمكن من أن أوفر لأرملة أجوستيني إمكانية بيع بيتها.

وكم تألمت عند سماعي نبأ وفاة السيد بوتشانتي المسكين، وحزنت عليه كثيراً، وحاولت أن أواسي أسرته، وعرضت عليهم المساعدة، ولكن هذا لم يكن كافيًا ليشفي غليل حفيده. ولو كان شرُّه يجرحني أنا فقط كنت أتسامح في حقي، ولكن عندما امتد ليزرع الضغائن بين القباطنة، ونائب القنصل، وأن يجرؤ على الكتابة عن أحوال الدولة الخاصة بالجيش الإنجليزي، والصدر الأعظم، وأن يكتب عن هؤلاء بمنتهى الاحتقار، فقد كان قليلا جداً الاكتفاء بتسريحه من المستشارية بالإسكندرية، إذ لم يكن هناك ما هو أقل من هذا يرضي كيايا بك، والريس أفندي؛ لأنهما عندما علما بأمر هذا الخطاب المهين، طالبا بمزيد من العقاب، وهم على حق في ذلك.

وأنهي الآن هذا الخطاب لأبدأ في كتابة خطاب آخر مع تقديمي الاحترام الكامل... إلخ.

تورشيكا: ١٨٠٢ رقم ١٠

١٢- من دي روسيتي إلى راثكيال

موجز

- المزايا والامتيازات التي حققها روسيتي للتجارة النمساوية، والامتيازات الأخرى التي يقترح توفيرها.
- يسعده أن يشعر ويسمع مديح كبار رجال الباب العالي .
- يطلب سرعة إرسال البيرات الموعود به؛ لكي يجعله صالحًا لبعض بيوت التجارة.
- سلوكه الودي دائمًا تجاه الشقيق.
- كيف أصبح مجبرًا، رغما عنه، على تسريح السيد بوتشانتي.
- مديح نائب القنصل جودار.
- سوف يتم إبلاغ تصريح العفو عن المنشقين.

القاهرة: ١٠ مارس ١٨٠٢

وصلني خطاب معاليكم المبجل الذي قمتم بإرساله لي في ١٦ ديسمبر من العام الماضي. ومن الخطابات السابقة اتضح لمعاليكم أن كل شيء مرتب ومنظم، وأن الفرمانات الخاصة بكين والسويس قد صدرت باعتبارها أسواقًا جديدة تماما. غير أنني واجهت العديد من الصعوبات بسبب عدم وصول الامتيازات الخاصة بالأوروبيين، ولكنني تغلبت عليها. وسوف يكون أول من يتمتع بمزايا التجارة في البحر الأحمر هم الرعايا النمساويين الأسعد حظا. وامتياز الرسوم كما تشرفت بإبلاغ معالكيم ما يزال هو الأهم جدا، وبالتحديد الرسوم المفروضة على البن، فبدلا من سداد ٢٥٪، يدفع النمساويون ٣٪ فقط طبقا لما هو منصوص عليه في الاتفاقيات.

إن كل اهتماماتي ستظل متعلقة دائما بالاهتمام الذي يوليه البلاط لهذه التجارة المهمة، وكثمرة لها سوف يتم إنشاء مؤسسة نمساوية بأسماء السادة بسيريني Besserini وزاكار Zaccar . والأخير قادم من تريسته وهو نجل المرحوم السيد جوزيف زاكار، الذي أمضى نحو عشرين عامًا هناك يتمتع برضا البلاط، وشريكه هو السيد أنطونيو بيسيريني Antonio Basserini المولود في تريسته، والذي حصل على الجنسية النمساوية، ويعمل بموجبها بالاتفاق مع السيد زاكار، وشقيقه السيد موسى Muse، وبذلك فإن الامتيازات لن تظهر بعد ذلك على أنها بفضل الفرمان الذي صدر لصالح السيد موسى، بل سوف تكون واجبة لصالح المؤسسة النمساوية.

وفيما يتعلق بالسيد أنطونيو ديبان Antonio Debbane فهو موجود بالفعل في تريسته، حيث سيستقر أخيرا هناك. وفيما يتعلق بالسيدين يوما كوتا Ioma Cotta وماسارا Massarra

فلأنهما في خدمتي، فهما يتمتعان بالحماية، لكن دون أن يكون لهما أية امتيازات أخرى، هما في غنى عنها، وليسا في حاجة إليها لأنهما لا يعملان بالتجارة. و أتمنى ألا تقع أية اضطرابات، وألا أتهم بأنني قد أسأت إلى المنصب القنصلي، فأنا أعمل بدون أية مصلحة خاصة بي.

وبند المعاهدات الذي أشرت إليه معاليكم في خطابكم المؤرخ في ١٤ أغسطس ١٧٩١، لم أعثر عليه حتى الآن، ولكن لابد أن يكون خاصا بالنمساويين فقط، بينما ألتقي بين الحين والآخر بأفراد من الرايا[١] بتراخيص وزراء وقناصل، أما الذين يحملون رخصاً وتصاريح روسية، فسوف يمنحون فرمانا يعلن أنهم مواطنون روس، وليسوا من الرعايا.

ومن دواعي سروري وفخري أن أشعر بأنني أتمتع بسمعة طيبة داخل نفوس كبار رجال الباب العالي، وأتمنى أن يزيد هذا من استحسان دولتكم والبلاط الملكي لي ولمجهوداتي.

وبما أن البيرات الخاص بي قد سمح بإصداره، فإنني أتمنى أن أحصل عليه في أقرب وقت؛ لأنه وثيقة ضرورية جدا. ولو أن معاليك تفضلت بتوصية للائتمان الخاص بهؤلاء الكبار، فسوف أجعل هذه التوصية لو سمحت لي الظروف صالحة لائتمانات شركة بيني Pini الذين أرسلوا إلي المذكرة متأخرة جدا، وكذلك تلك التي لم أعرضها بعد.

والسادة كاجيني فوا Cagini Fua دائما ما يتمتعون بحمايتي ومساندتي، لهذا تعرضت لعدة مضايقات بسبب الحرب التي شنها عليهم اليهود، وعلى الرغم من ذلك، فإنني ساعدت وسأساعد أكثر طبقًا لرغبات معاليكم.

ولم يستطع شقيقي [٢] أن يلومني مطلقا، وكان من الأدعى أن يلوم نفسه، وطريقة تفكيره الملتوية. إذ كان بعيداً تماماً عن العمل خوفًا على صحته. وقد علمت أنه مُصر، على الرغم من رفضي، على ترك شئون العائلة إلى زوجته. والنصيحة التي تشرفت سيادتكم، وأسديتها لها، وهي أن تلجأ إلى عديلي السيد بيني للاتفاق معه على مهمة محددة كُلف بها قبل رحيله، ألا وهى أن ينهى كل شيء مع أخي، وأن يستفيد من كرمي وسخائي تجاه أبنائه، وهو الكرم الذي لم يُرِد أبدا أن يستفيد منه؛ لأنه صدّق الزور والبهتان من الآخرين، ولم يؤمن بالحقائق التي أقدمها له. ومع أول خطابات من السيد بيني أتمنى أن أحصل على تحديد يريحني، ويبعد عن معاليكم أية إزعاجات أخرى.

(١) الرايا: الرعايا غير المسلمين في دولة مسلمة.

(٢) Baldassare، له ولدان هما كارلو وانيبالى، اللذين أصبحا فيما بعد، الواحد تلو الآخر، قنصلين توسكانيين.

وعندما جاء الشاب بوتشانتي ليقدم شكاوى مجحفة، وملفقة للجنرال مينو، كان مستعدا لأن يترك الإسكندرية، ولكنه عدل عن الفكرة، وسامحته على ما فعل، وغفرت له الأضرار الجسيمة التي سببها لي؛ حتى لا أقطع رزق أسرته. وتسامحي هذا، بدلا من أن يصلحه، جعله أكثر إزعاجا، حيث بدأ يثير ويحرض القباطنة الذين لا يحبون التبعية، وكتب إلى سيادتكم، ضد السيد جودار كما كتب عن الصدر الأعظم وعني بمنتهى الاستخفاف والاحتقار، بمناسبة جولتي في الإسكندرية. وقد وصل هذا الخطاب إلى مسامع الريس أفندي، وحصلت على أصله، ولذلك كان من المحتم والضروري أن أقوم بفصله على الفور. وقدم لي العديد من الالتماسات لأعيده إلى مكانه، ولكنه سحبها جميعا عندما أطلعته على الخطاب، وأصبح الجميع مقتنعين أنني لم أفعل ذلك بسبب عداء شخصي، وإنما ضرورة حتمها علي عملي.

وفيما يتعلق بالسيد جودار فكما تشرفت وأخبرت سيادتكم، لا أعرف كيف أكافئه على مقدرته ودرايته بشئون البحرية والتسويق، فضلا عن أنه، كما يبدو لي، متعلق ومرتبط جدا بالبلاط الملكي. ولو ظهر أي منشق سواء هنا أو في إدارتي، فسوف أبلغه بإعلان العفو الذي أرسلتموه لي. وقد تعطف الرجل الفاضل محمد باشا عزتلي، بإرسال ساعي البريد؛ لكي يحمل هذا الخطاب إليكم.

مع خالص تقديري واحترامي،،

تورشيكا، ١٨٠٢، رقم ١٠

١٣- من دي روسيتي إلى راشكيال

موجز

- دي روسيتي يعرض الفوائد المتعددة التي تعود على الدول الألمانية، والتابعة للبندقية سابقًا من استيرادهم بن مخا من مصر، بدلا من استيراده من الغرب : وسائل إنجاح هذا الهدف.

القاهرة : ٤ إبريل ١٨٠٢

لقد أخبرتني معاليكم في العديد من الخطابات السابقة أن البلاط الملكي يولى اهتماماً كبيراً لتوسيع التجارة والملاحة النمساوية في مصر، ولذلك سمحت لنفسي أن أتابع هذا الموضوع حيث اتضح لي أن الناس في ألمانيا، وفى الدول الجديدة التي كانت تتبع البندقية في السابق

يستهلكون كماً كبيراً من البن، ومعظمه من بن الغرب، الذي يحصلون عليه بسعر أقل من سعر بن مخا، بدون أن يفكروا في الاختلاف الكبير بين النوعين، فعلى سبيل المثال، إذا كان الرطل من بن مخا يكفى لعمل ٦٠ فنجانا ذا مذاق جيد، فإن الرطل من بن الغرب لا يكفي إلا لعمل ٤٠ فقط، كما أنه لا يقارن من ناحية النكهة، والحفاظ على الصحة مع بن مخا، ولهذا فإنهم يشترون بن الغرب بثمن أغلى من بن مخا؛ حتى وإن كانوا يدفعون ٢٥ أو ٣٠ ٪ أقل، فضلا عن أن بن الغرب يعدّ إلى حد كبير تجارة سلبية غير مفيدة للدولة، وعلى العكس من ذلك تعدّ تجارة بن مخا إيجابية وفعالة تماماً، وقد تأتي مقايضة بالمنتجات والمصنوعات النمساوية وكذلك بالمنتجات المصنعة في البندقية.

إن منع دخول بن الغرب إلى الموانئ النمساوية، وموانئ البندقية القديمة، أمر يصعب تنفيذه، ولكن من الممكن تحقيقه عملياً، إذا فرضت الحكومة ضرائب باهظة على البن الذي يدخل إلى الأراضي النمساوية بوجه عام، في الوقت الذي تعفي فيه بن مخا القادم من موانى مصر على متن سفن تحمل العلم النمساوي من الضرائب، أو تفرض عليه ضرائب مخففة، مما يشجع على تفضيله. ولو نقص استهلاك بن مخا، فلن يتمكن المستوردون من إرسال السفن التي تحمل المنتجات، والمصنوعات النمساوية إلى الموانئ المصرية، أو لتوفير حمولة كاملة لتلك السفن، لذلك من الضروري اتخاذ إجراء يجعل بن مخا هو البن المفضل عن بن الغرب.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير،،

تورشيكا١٨٠٢، رقم ١٠

١٤- من دي روسيتي إلى راثكيال

موجز

- الباشا يستقبل دي روسيتي بمنتهى العطف، ويهديه معطفا من الفرو، وجواداً، كما يقدم هدايا إلى مترجميه.
- وصول السير بوفان Pophan إلى السويس، ليسافر منها لتوقيع معاهدات مع شريف مكة و صنعاء.
- الإنجليز يستهدفون التجارة في البحر الأحمر .
- مسألة الرسوم الجمركية .

القاهرة : ٤ أبريل ١٨٠٢

أتشرف بان أحيط سيادتكم علما بأن المبجل عزتلي محمد باشا قد أبلغني بأنه يرغب في رؤيتي. وهو ما حدث بالفعل حيث قمت بزيارته، وكم كان لطيفًا معي، وبعد عدة حوارات دارت بيننا، اقترب منى ليخبرني بمنتهى اللطف، أنه يقدرني ويحترمني كثيرا، وأنه يود أن يشملني بالنعم، وطلب منى أن أقبل معطفًا من الفرو، وجوادًا تعبيرًا عن خالص المشاعر التي يحملها لي. وأجبته بأنني مقتنع، وشاكر جداً لعطفه الزائد، وأنه لم يكن لزاما عليه مثل هذا الإزعاج الذي يسبب لي الحرج. وأضاف أنه ليس كافيا أن أقتنع أنا بصداقته، ولكن يجب أن يقتنع الشعب أيضا، وقدم لي فرو زبلين أصلي، كما قدم فروا من نوع مارتورا إلى مترجمي الأول، واثنين آخرين من نوع أدنى قصير الوبر إلى المترجمين الآخرين. وشكرته على حسن الاستقبال، وعندما كنت فوق السلم الصغير لأمتطى صهوة الجواد قدم لي جوادًا آخر مزينًا خصصه لي الباشا، وعليه كسوة راقية سخية من الديوان.

وفرو من هذا النوع، الذي يعنى الكثير في تلك البلاد، لا يمكنني أن أقبله بدون أن أعطي مقابلا له، خاصة وأنه أوحى لي من بعيد بفكرة عمل زيارة لي. الآن وقد أصبحت لا تنقصني العائدات، ومن ثم فإن مبادرات السخاء لن تثقل كاهلي. إنني مستعد بكل ما أوتيت من قوة لأن أضحي بنصيبي من العائدات، حتى استخدمها في تلك الحالات عملا بمقتضيات وظيفتي، ولتسهيل أعمال التجارة، والملاحة النمساوية.

وصل إلى السويس السير جون بوفان قائداً لأسطول صغير مكون من ٥ سفن شراعية، ويقال إن هذا الفارس كان مكلفًا بالانتقال إلى جدة؛ لتوقيع معاهدة مع شريف مكة، ثم ينتقل بعد ذلك إلى صنعاء عاصمة اليمن؛ لتوقيع معاهدة أخرى مع الملك*. ويذكر أنه كان يحمل لي ولشريف مكة العديد من الهدايا القيمة.

وهذه الاستعدادات تشير إلى أن الإنجليز يهدفون إلى التجارة في البحر الأحمر، بالطريقة نفسها التي تتبع في موانئ السويس والقصير مع السفن القادمة من الهند، وكنت سعيدا جدا عند الحصول على الفرمان القاضي بوضع نواب نمساويين في تلك الموانئ. وكان من المقرر أن يقوم جون بوفان بجولة هنا وفى الإسكندرية، إلا أنه قد يؤجلها بسبب حالات الطاعون التي ظهرت في رشيد، وفى المناطق المجاورة لها.

* المقصود به إمام صنعاء «المراجع»

وقد اقترح المختص الجمركي بالإسكندرية فكرة تقلل من قلق الأوروبيين الذين يرتبطون بتجارة تركيا، وهي أن جميع المنتجات المصرية، وكذلك منتجات ساحل مليبار Malabar، واليمن، وأفريقيا، التي ترسل إلى تركيا، لن تفرض عليها الجمارك، ولكن فقط الرسوم المقررة، ويبدو أن هذا المختص كان يريد التظاهر بأن يجعلهم يدفعون الجمارك ٣٪ كما تنص بنود المعاهدة. ولكن المفوضين يرغبون في تنفيذ النظام السابق مؤكدين أنهم مجبرون على دفع الضرائب في أماكن إنزال حمولات السفن، ولكن لأنني أمرت الملتزمين الجمركيين هنا وفى الإسكندرية ودمياط أن يعفوا البضائع القادمة من أوروبا، أو من تركيا من الجمارك، والاكتفاء بالنسبة للبضائع القادمة من تركيا بتذكرة[1] تؤكد سداد الضرائب في مكان شحن الحمولات، ومن ثم فلا يمكن الزعم بتراجعي عن البنود المنصوص عليها في الاتفاقيات، خشية من أن أدخل في خلافات حول هذا الموضوع.

تورشيكا١٨٠٢، رقم ١١

١٥- من دي روسيتي إلى دي تامارا [٢]

موجز

- وصول الجنرال ستيوارت حاملا خطابا من الباب العالي إلى الباشا حول مسألة البكوات.
- الباب العالي يصر على رغبته في طرد البكوات من مصر.
- الجنرال ستيوارت يقر بأن محاولاته في القسطنطينية للتخفيف من حدة الموقف قد باءت جميعها بالفشل.
- يأمل في أن يجد الباشا وسيلة لتجنب مخاوف وقوع حرب محققة.
- يحاول أن يقنع الباشا بأن رحيل الإنجليز من الإسكندرية يتوقف على إيجاد حل لمسالة البكوات.
- الباشا يجيب بأنه لا يستطيع أن يخالف أوامر الباب العالي .
- الجنرال ستيوارت يخبر البكوات بفشله في مهمته لدى الباب العالي، ويعلن عدم انحيازه لأي من الطرفين.
- الباشا يستمع إلى نصيحة دي روسيتي واقتراحه طريقتين لتدمير البكوات إرضاء للباب العالي : إما متابعة البكوات بعدد كبير من القوات، أو تركهم في مصر العليا مع منع مجيء أي مماليك آخرين إلى مصر. الطريقة الأولى تبدو سريعة، إلا أنها غير مؤكدة، ومضرة جداً للبلاد، والثانية بطيئة، ولكنها مؤكدة، وليست مضرة.

(١) تذكرة، تصريح، إيصال.

(٢) المبعوث الروسي بالقسطنطينية في الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٢.

- الباشا يعتقد أنه يستطيع أن يقضي على البكوات في وقت قصير، ولكن القوات التي يرسلها خلفهم دائما ما تمنى بالهزيمة.
- تأكيد النبأ القائل إن ٨٠٠ جندي من قوات الباشا الذين كانوا يرغبون في مباغتة الألفي بك، تم القضاء عليهم جميعا على يديه.

القاهرة: ٣١ أغسطس /١٢ سبتمبر ١٨٠٢

وصل إلى هنا الجنرال ستيوارت. ويعتقد أنه يحمل بعض الأشياء المفيدة للبكوات، بدءا من خطاب الباب العالي، الذي أرسله إلى باشا مصر مع مساعده اللورد بلانتير Blantyre، وكان الجنرال ستيوارت قد وصل إلى القسطنطينية على أثر تكليفه بتولي قيادة القوات الإنجليزية في مصر والإشراف على عملية الجلاء، وقد ذكر للباب العالي، بما أن البكوات قد لجئوا إلى الجيش الإنجليزي، فيجب أن يتمتعوا بحمايته، وتمنى أن ينتهي غضب الوالي عليهم، ويتم العفو الملكي (السلطاني)عنهم. وبسبب التفاهم بين الباب العالي وبريطانيا العظمى وافق الباب العالي على الاقتراحات المقدمة له. ونبه على الصدر الأعظم بضرورة مضاعفة مبلغ الإعاشة الذي سبق أن قرره بنفسه للبكوات، ولكن شريطة أن يخرجوا من مصر، ويذهبوا إما إلى رودى، أو كانديا، أو سالوبيكو، أو زميرنه (أزمير)، أو عدن، أو القسطنطينية، شاكرين الله على سلامتهم وكرم السلطان. وسوف يخبر الجنرال ستيوارت البكوات بما انتهت إليه الأمور، الخاصة بالعفو عنهم بالشروط سالفة الذكر، فضلا عن أن الباشا سيمنحهم الأمن والأمان، وسيقبل ضمن قوات السلطان كل المماليك الذين يرغبون في البقاء في مصر باستثناء هؤلاء الذين يرغب البكوات في اصطحابهم معهم.

وعندما أرسل الجنرال ستيوارت خطاب الباب العالي إلى الباشا، كتب له يخبره أن ملكه عندما أمره بالقدوم إلى مصر طلب منه أولا الذهاب إلى القسطنطينية؛ ليؤكد للباب العالي شدة العداء القائم بينه وبين رعاياه من المماليك في مصر، عارضًا عليه، باعتباره حليفًا مخلصًا، وساطة ليس فيها مصلحة، وكل أمله هو إعادة السلام والهدوء إلى مصر، وأن الحكومة البريطانية ترى أنه من الملائم عودة المماليك إلى ما كانوا عليه مع بعض القيود، ولما كان وزراء الباب العالي قد أعلنوا رفضهم لذلك، فإن البديل كان يقضي بتخلي الباب العالي للبكوات عن حكم البلاد الموجودة جنوب جرجا في مصر العليا بالشروط التي يوافق عليها وزراء الباب العالي، أو ضباطه في مصر. كما أحاط ستيوارت الباشا علمًا بكل الملاحظات التي أبداها لوزراء الباب العالي،

وقال: إنهم لم يتوصلوا إلى أية نتيجة أخرى غير ما ورد في الخطاب، الذي طلب منه قائمقام[١] القسطنطينية أن يسلمه للباشا. وذكر ستيوارت أنه في حالة ما إذا لم تؤت اقتراحات الباب العالي ثمارها المرجوة، فإنه يتمنى أن تتمكن حكمة الباشا التي تقودها معرفته بحقيقة الأمور ومجرياتها، من أن تجعله يتجنب أهوال حرب أهلية ومخاطرها، وكل الأضرار التي قد تنتج عنها، موصياً إياه بالبديل المقترح على وزراء الباب العالي، أو بتبني فكرة اتفاق حكيم وحاسم، في ظل الظروف الحالية. وأنهى ستيوارت خطابه للباشا مبديا رغبته، واستعداده لأن يحضر لرؤيته في عاصمة حكومته إذا كان هذا سيؤثر إيجابيًا في الهدف المرجو.

وفي اليوم التالي، بعد أن سلم اللورد بلانتير هذا الخطاب إلى الباشا، تسلم خطابا آخر من ستيوارت فعل به الشيء نفسه، وفحواه أن الجنرال تسلم خطابات من لندن، كان واضحًا منها أن الجلاء عن الإسكندرية قد يتوقف على تسوية مسألة البكوات. وكان رد الباشا موجزًا، وفحواه أنه استناداً على حياد الأمة الإنجليزية، التي تعرف جيدا النظام، وترتيب السلطات، يتمنى أن يقتنع الجنرال بأنه لا يستطيع أن يخالف، أو يتجاهل أوامر الباب العالي التي يعرفها جيدًا، لأن لديه ترجمتها بالفرنسية، وأنه في حالة ما إذا أراد أن يأتي إلى القاهرة، فإنه سيقابله على الرحب والسعة كزميل سلاح، وسوف يقدم له كل التشريفات، والاحترامات التي تليق به وبمنصبه.

وقد كتب الجنرال ستيوارت إلى البكوات يخبرهم بالمهمة المكلف بها، وأحاطهم علمًا بالنتيجة التي توصل إليها، وأرسل إليهم نسخة من الخطاب الذي أرسله القائمقام إلى الباشا. وذكر لهم بأنه قد سبق وأن أعلن مرارا لوزراء الباب العالي وللباشا نفسه، والآن يعلن لهم شخصيًا، بأنه لن يكون هناك تأثير من جانبه على العروض المطروحة عليهم، وبأنه لن يتدخل سواء لإقناعهم أو ليعرب عن رأيه الشخصي، لأنهم يجب أن يهتدوا بتفكيرهم، ويتخذوا قرارهم بأنفسهم. وفي ظل تلك الظروف التي أصابت الباشا بالحرج، رغب في أن يتعرف على رأيي المحايد.

ومن الواضح أن نية الباب العالي كانت تتلخص في تدمير البكوات والمماليك، في حين أن إنجلترا ترغب في الحفاظ عليهم، لأنهم محاربون أقوياء وأشداء، هذا فضلا عن أن كبير الجنرالات* باسم ملك الأمة وباسم الجيش الإنجليزي قد وعدهم بالحفاظ على مكانتهم وتوفير الأمن والحماية لهم.

---

(١) القائمقام: حرفيا تعنى الشخص الذي يحل محل شخص آخر، مثلاً أو نائبًا، وفى النظام القديم تعنى الموظف الكبير الذي كانت تمنح إليه في غياب الصدر الأعظم، وكالة البلاط، ومن ناحية المعنى تعنى أيضا النائب أو الممثل لسلطات أخرى. وحاليا تستخدم لتشير إلى رتبة عسكرية وبالتحديد رتبة عقيد.

* الجنرال هاتشينسون. «المراجع»

وقد اقترحت على الباشا طريقتين لإرضاء الباب العالي: إحداهما غير مؤكدة وخطيرة، والثانية مؤكدة ولكنها تحتاج لوقت أطول. والطريقة الأولى غير المؤكدة والخطيرة هي مطاردة البكوات بعدد كبير من القوات، الأمر الذي يحتاج إلى مبالغ مالية باهظة قد تنفق هباء ولا تقدر أن تتحملها مصر ودون أن تعود بأي نفع أو فائدة، فضلا عن تدمير البلاد وإثارة ضيق الإنجليز. وقد يحدث أن يفر البكوات من المعارك ويختبئوا في الجبال، أو يهيموا في الصحراء بحيث لا يستطيع أحد أن يلحق بهم، أو يتتبع أثرهم، وسيجدون العون والمساعدة من جانب العرب (البدو)، وبالتالي سيصبح من المستحيل على تلك القوات أن توقفهم، وسيزداد الموقف سوءاً. أما الطريقة المؤكدة طويلة الأجل لتدمير هؤلاء البكوات، فقد تكون بتوفير سبل العيش لهم في مصر العليا، وبتنفيذ أمر الباب العالي القاضي بعدم مجيء أحد من المماليك إلى مصر بعد ذلك، وبهذا سيتقلص عددهم في وقت قصير، ولن يتمكنوا من القيام بأي إزعاج. وبتلك الطريقة سينعم الشعب بالسلام والأمان، والباب العالي بدلا من أن يتكبد نفقات كبيرة لإعالة عدد كبير من القوات، سيحصل على إيراد وربح من مصر العليا، يمكنه إدخاله ضمن موارده.

غير أن الباشا كان يميل بشدة إلى القضاء على المماليك بسرعة، وكان يعتقد أن قواته الموجودة بالفعل في مصر العليا سوف تحقق له الانتصارات، ولكنني أخبرته، أنه في كل مرة تكون قواته في المواجهة فإنها على العكس من ذلك تحقق أسوأ النتائج، فهي لا تخاطر أبدا بالهجوم، وإنما تظل دائماً في مخابئها. وعلى الرغم من ذلك فقد واصل الباشا إرسال التعزيزات لقواته، وسوف يحس بنتيجة هذا فيما بعد، أما أنا فأرغب مخلصاً أن تنتهي تلك المشكلات التي تجعل مصر كلها في حالة هياج.

وكما تشرفت وأخبرت سيادتكم في خطابي ٢٠/٨ مايو، فإنني قد استلمت البيرات القنصلي، وأنا في انتظار الاتفاقيات الخاصة بالتعريفة الجمركية، والتعليمات كافة التي طلبتها. وعن تلك القنصلية، التي تكرمت سيادتكم بإرسالها إلى البلاط الملكي منذ نهاية شهر فبراير، أتمنى أن يكون هناك رد مناسب عليها وألا يتأخروا كثيرا في موافاتي بالتعليمات الخاصة بالمواعيد وطريقة تنفيذها.

ملحوظة:

انتشرت منذ عدة أيام أنباء تشير إلى أن البمباشي[1] الذي عسكر مع ثمانمائة رجل ناحية الهيو El Hew على مسافة تبعد ساعة ونصف أو ساعتين عن معسكر ألفي بك، قرر الهجوم فجأة

(١) كولونيل.

على المماليك على الرغم من توقف الاشتباكات. وعندما علم ألفي بك بالأمر خرج بعدد من جنوده على مسافة تبعد قليلا عن خيامهم، وفى الوقت الذي ظن فيه البمباشي أنه قد تمكن من المماليك، وجد نفسه محاصراً منهم، وهلك هو وجنوده. وقد وصل هذا الخبر إلى الباشا، وهو ما جعله سيء المزاج، وقرر على الفور إرسال قوات جديدة امتلأت بالرعب اعتقاداً منها أنها ستدخل في مذبحة، ولكي يبرر الجنود جبنهم، زعموا أنه شيء ضد القانون أن يحارب الأتراك بعضهم بعضا.

وقبل أن يسجل البكوات تلك الانتصارات المشهودة، وقبل أن يبدى الإنجليز التزامهم بوعودهم من جديد، فإني أرى أن السياسة تقتضي، من أجل الحفاظ على شرف الباب العالي، أن يتساهل الباشا، كما سبق وأن نصحته، ويمنح البكوات جزءاً من مصر العليا يكفي لإعالتهم، خاصة وأنهم كانوا يطلبون ذلك بمنتهى الخضوع، ولكن الباشا، كما أخبرني، كانت يداه مكتوفتين، والرغبة في أن يحظى برضا الباب العالي تقيده وتجعله لا يتصرف بحرية.

تورشيكا ١٨٠٢، رقم ٤

١٦- من دي روسيتي إلى دي فيستا (١)

موجز

- وصول المبعوث الفرنسي فوق العادة السيد سيبستياني Sebastiani إلى الإسكندرية .
- زيارته لكل من الجنرال ستيوارت، وخورشيد باشا.
- سيقوم بزيارة محمد باشا أيضا في القاهرة.

القاهرة: ٢٠ أكتوبر ١٨٠٣

في السادس عشر من الشهر الجاري وصلت إلى الإسكندرية قادمة من طولون Tolone بعد رحلة استمرت ٢٤ يوما، فرقاطة وإبريق فرنسي مع السيد سيبستيانى، قائد البارجة، باعتباره مبعوثا فوق العادة للجمهورية الفرنسية في المشرق كله.

وقد قام المذكور بزيارة الجنرال ستيوارت، قائد القوات الإنجليزية، وكذلك خورشيد باشا، حيث أخبره بأن لديه أخباراً قنصلية يجب أن يبلغها لمحمد باشا شخصيا، الذي كان مستعداً

(١) القائم بالأعمال النمساوية بالقسطنطينية.

لاستقباله أحسن استقبال. وأي شيء ذو أهمية سيحدث في تلك المهمة العاجلة، أرى أنه من واجبي أن أخبر معاليكم به.

تورشيكا ١٨٠٢، رقم ٤

١٧-من دي روستي إلى ستورمر Sturmer[1]

موجز

- الكولونيل سيبستيانى يصل إلى القاهرة.
- استقبال الباشا له استقبالا حافلا.
- دي روسيتي يقوم بزيارة سيبستياني.
- خطاب إلى الباشا لإعلانه بالمهمة المزدوجة: إجلاء الإنجليز عن الإسكندرية، وتحسين حركة التجارة الفرنسية في مصر.
- رحيل سيبستيانى متجها إلى عكا، ومنها إلى هنا أو إلى فرنسا، حسب الظروف.

القاهرة: ٣ نوفمبر ١٨٠٢

وصل إلى هنا في السادس والعشرين من الشهر الماضي المبعوث المسمى الكولونيل سيبستياني*. وقد أرسلني الباشا أنا وحرس الشرف والمترجمين الخاصين بي، والمستشارين والإنكشاريين لنكون في شرف استقباله. حيث اتجه مباشرة من بولاق ليتشرف برؤية الباشا، وفى المنزل الذي خصصه له الأخير، ذهبت لزيارته حيث استقبلني أحسن استقبال، ثم جاء عندي ومكث معي حتى موعد الغداء. وفى اليوم التالي أرسل إلى الباشا خطاب الاعتماد، الذي أعطاه إياه وزير خارجيته، موضحًا فيه أنه مكلف بمهمة مزدوجة من القنصل الأول **؛ وهى أن يطلب من الجنرال الإنجليزي بالإسكندرية تنفيذ معاهدة إميان Amiens والجلاء عن المدينة، وتلك

---

(١) جاء خلفا للبارون راثكيال Baron Herbert di Rathkeal كرسول ملكي للنمسا بالقسطنطينية، وشغل هذا المنصب حتى عام ١٨١٢.

* الكولونيل سبستياني كان واحدًا من المبعوثين الدبلوماسيين الذين أرسلهم نابليون بونابرت لمحاولة استعادة النفوذ الفرنسي في الشرق عقب فشل الحملة الفرنسية ووصوله إلى السلطة في فرنسا كقنصل أول على أثر سقوط حكومة الإدارة. وقد أحيطت بعثة سيبستياني إلى القاهرة بالسرية التامة، وكانت تستهدف تحقيق هدفين مزدوجين هما: إجلاء الإنجليز عن الإسكندرية، وتنشيط التجارة الفرنسية مع مصر. «المراجع»

** نابليون بونابرت. «المراجع»

المهمة قد نفذت وتم إرسال إبريق إلى فرنسا يخبر القنصل الأول بأن رد الجنرال ستيوارت يفيد بأنه لم يتلق حتى الآن أمراً بالجلاء، والمهمة الثانية، هي إعادة الاستقرار لحركة التجارة، ولتنفيذ هذا يلزم تهدئة البكوات، وعرض وساطته لتحقيق هذا الهدف.

وأجاب الباشا مؤكداً للمبعوث الفرنسي أنه حريص على أمن وحماية التجارة والملاحة الفرنسية، وأما فيما يتعلق بالبكوات، فإنه لا يستطيع التدخل؛ لأن الأمر في يد الباب العالي وحده.

وقام المبعوث الفرنسي بزيارة الوداع للباشا، و كتب له خطابا يشكره فيه على حسن الاستقبال؛ وليخبره أنه في أثناء عقد اتفاقية الصلح مع الباب العالي، تم التصديق على المعاهدات السابقة، التي يتمنى أن يلفت نظره إليها مع معاهدة الجلاء الموقعة بين الجنرال بليار Belliard والصدر الأعظم، والتي كنت حريصاً على تنفيذها من جانبي، بصفتي مفوضاً عاماً مؤقتاً للشئون التجارية الفرنسية.

وبالأمس رحل المبعوث الفرنسي متجها إلى دمياط، حيث أمر بإبحار فرقاطته إلى هناك. وقد أمر له الباشا بصحبة من بلاطه الكبير، وأنا من بلاطي الصغير، وفي أثناء خروجه من القصر حيّته المدفعية بإطلاق النيران. وكنت قد أعددت في منزلي الريفي الصغير ببولاق مكانا للإبحار، ولذا جاء لتناول الغداء معي، وفي أثناء ركوبه السفينة، قامت المدفعية الموجودة ببولاق بتحيته بعدة طلقات نارية.

ومن المقرر أن يرحل من دمياط متجها إلي عكا لكي يعرض على الجزار باشا وساطة القنصل الأول لمصالحته مع الباب العالي، ومن أجل الاتفاق على عودة المفوضين الفرنسيين من هناك. ومن عكا سيتقرر اتجاهه على حسب الظروف، فإما أن يعود إلى القاهرة أو يتجه مباشرة إلى فرنسا.

تورشيكا ١٨٠٢، رقم ٧

١٨٠٣

١٨- من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- الجنرال الإنجليزي يرسل سكرتيره إلى الوالي ليطلب استتباب الأمن في الإسكندرية، ومساندة البكوات وإنهاء العداء القائم بينه وبينهم.
- الباشا يوافق على طلبين ويرجئ الطلب الثالث لمناقشته في اجتماع يحضره دي روسيتي.
- خلافات شديدة بين سكرتير الجنرال والباشا حول موضوع البكوات.
- اقتراحات حكيمة يقدمها روسيتي للباشا من أجل تسوية تلك الخلافات والحفاظ على أمن البلاد.
- تأجيل النقاش إلى اجتماع آخر.
- توقعات دي روسيتي.

القاهرة : ٢ فبراير ١٨٠٣

وصل إلى ميناء الإسكندرية قرويت * مرسل من الجنرال الإنجليزي، ويقال إنه يحمل أمراً بالجلاء. وقد أرسل هذا الجنرال سكرتيره إلى هنا ليخبر الباشا، أنه بمجرد أن يعم السلام على مصر، سيكون لديه أمر بالجلاء. وطلب منه عدة مطالب متعلقة بأمن الإسكندرية، وتقديم مساعدة للبكوات، ووقف العداءات والخلافات التي اجتاحت كل القرى وأهلكت الزراعات وأثرت على التجارة. وقد وافق الباشا على أول طلبين، ولكن الطلب الأخير، أرجأه للنقاش في لقاء آخر يعقد في اليوم التالي بحضوري أنا أيضا، وفى هذا اللقاء أخبر الباشا السكرتير أنه سواء هو، أو الجنرال ستيوارت يضمنا بأن ينفذ أهم أربعة بكوات إرادة السلطان، والتي تتلخص في ضرورة خروجهم من مصر بعد أن منحهم السلطان الوسائل كافة لتوفير نفقاتهم الضرورية، كما وافق على منحهم معاشاً سنوياً كافياً تضمنه لهم الحكومة الإنجليزية نفسها، فإنه سوف يكفل الأمان ويوفر سبل المعيشة للبكوات الآخرين الذين سيبقون في مصر، وذلك تحت حماية الحكومة نفسها.

واحتج المبعوث الإنجليزي باسم الجنرال قائلا: إن الحفاظ على شرف الجيش، فيما يخص الوعود التي منحت للبكوات، يتطلب أن يعودوا إلى وضعهم الأول، ولكن فيما يتعلق بمساندة السلطان، حليفهم، فمن المأمول، بفضل مساعيه الحميدة، أن يتم التوصل إلى تسوية يقبلها

---

* قرويت : نوع من السفن الحربية الخفيفة الحركة والمزودة بصفين من المدافع على جانبيها، وتعرف تلك السفن في اللغة الإنجليزية باسم Corvets، وكلمة قرويت مفردة وجمعها قراويت . « المراجع»

البكوات. وقد أرجأ الباشا الأمر إلى اليوم التالي؛ حتى يعرض خططه على الورق، وصرف المبعوث، ثم طلب مقابلتي. وسألني بود وثقة كيف يمكن وضع نهاية لهذا الأمر؟ وأجبته، أن الحل شائك وصعب، فالجيش الإنجليزي يحاول أن يحافظ على شرفه على الأقل، وأنا لا أستطيع أن ألومه هو شخصياً إذا ما ظل متمسكًا بتنفيذ أوامر السلطان، ولكن بالتفكير في النتائج المهلكة التي قد تنتج عن حرب أهلية طويلة المدى، عندما اعتقد أن السلطان سيرضيه وقف تلك الحرب، وتوقف الكوارث لفترة من الوقت. ولإقناع أهم أربعة بكوات بالجلاء عن مصر بطيب خاطر، يجب إغراؤهم بأنهم سيحصلون يوما ما على عفو السلطان، وسيسمح لهم بالعودة، وللحصول على موافقة باقي البكوات حتى لا يعارضوا رحيل قادتهم، يجب أن تمنح لهم مقاطعة في مصر العليا تكفى لمعيشتهم، مع إقناعهم بأنهم إذا أرادوا أن يأتوا إلى العاصمة، أو إلى أي مدينة أخرى، فإنهم سوف يعاملون أحسن معاملة، وسيتم تأمينهم، وبذلك سوف يحل اتحادهم بدون أن يشعروا.

وبدا لي أن الباشا مقتنع بتبني تلك الفكرة، وأن يقوم المبعوث الإنجليزي بعرضها على البكوات للموافقة عليها. وبالأمس كان من المقرر مناقشة مسألة المبلغ الذي سيمنح للبكوات عند رحيلهم، ووسائل المعيشة التي سيتم توفيرها للباقين منهم، في اجتماع يحضره شريف باشا، ورجائي أفندي الدفتردار[1]، ولكن الباشا أراد أن ينفرد بلقائي ليخبرني أنه قد فحص ودرس تعليمات الباب العالي، ولم يجد فيها ثغرة تمكنه من الموافقة على اتحاد البكوات والمماليك. وبعد عدة مناقشات أخبرته أنه يمكنه أن يجرب بنفسه تلك الخطة إذا كانت تروق له دون أن يحقق لهم هدفهم بالاتحاد، وهو ما حدث بالفعل، وعندما عرض المسودة المبدئية للخطة على المبعوث الإنجليزي أشار إلى أنه غير متأكد تماما من أنها ستحظى بالقبول. وكان مقرراً عقد اجتماع جديد في المساء نفسه بمشاركة شريف باشا ورجائي أفندي الدفتردار، وسوف أوافيكم بنتائجه في الخطاب القادم. ولو أن هذا الأمر سيظل معلقًا أكثر من ذلك، فإنني أتوقع أن تتدخل فيه فرنسا؛ لأن الكولونيل سيبستياني عندما كان هنا، لم ينس أن يؤكد للباشا على أن القنصل الأول بونابرت، مهتم جدا بموضوع البكوات، وبأنه وفقًا للبند رقم ٥ من اتفاقية الأمن العام، يجب إعادة مصر إلى ما كانت عليه قبل الحرب. وفى تلك الحالة لن يتعلق الأمر بوجود البكوات وحسب، وإنما بمنحهم السلطات التي كانت مخولة لهم من قبل.

وما يزال الشعب والتجارة يعانون كثيرا وسيعانون أكثر في المستقبل، إذا لم تتحسن الأحوال.

(١) الدفتردار: تعنى حرفيا الشخص الذي يقوم بعملية التسجيل، وكان هو المخزنجى المسئول عن سجل الملكية، وأسهم الملكية التي تمنح باسم السلطان، لا يمكن أن تصبح سارية قبل أن تعرض على هذا الضابط، ليقوم بتسجيلها في دفتره. والدفتردار هو المسئول عن الميزانية.

١٩- من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- انعقاد مؤتمر جديد.
- اقتراح الباشا حول تسوية مسألة البكوات .

القاهرة : ٧ فبراير ١٨٠٣

إن الاجتماع الذي أشرت إليه في خطابي السابق المؤرخ في ٢ الجاري قد انعقد بالفعل. وشعر الماجور ميسيه Misset بالسعادة لأن يتولى مهمة إبلاغ البكوات باقتراح محمد باشا، وهو أن يعطى للبكوات الأربعة الرئيسيين (المقرر خروجهم من مصر) ٢٤٠٠ بورصة[1]، فضلا عن معاش سنوي مضاعف يمنحه لهم الباب العالي، وتوفير إقامة، ومعيشة مناسبة لباقي المماليك الذين سيظلون في مصر، متفرقين، وليسوا في كيان واحد، مع توفير الأمان لهم جميعا بضمان من الإنجليز. وكان الباشا والوزير بالتحديد يعارضان الموافقة على هذا المبلغ. وبدءوا من ألف كيس*، وبعد عدة مناقشات اتفقوا في النهاية على أنه لا يجب أن يتعدى المبلغ ١٥٠٠، ولكن الماجور ميسيه رفض هذا المبلغ، فأضاف الباشا ٩٠٠ كيس أخرى ليكتمل بذلك المبلغ المذكور وهو ٢٤٠٠ كيس.ولو أن هذا الاقتراح لاقى قبولا من البكوات، سيشعر الباب العالي بالسعادة، ولكن شرط التسوية والاتفاق أخشى أن يتم رفضهما، لأن البكوات معرضون للإغراء والتحريض من الشعب ومن العديد من قبائل العرب الذين يساندوهم؛ ولأن الحكومة التركية لا تعجبهم حيث إن فسادها يفوق فسادهم.ولو أصر المماليك على أن يظلوا متحدين، قبل أن ينجح الباشا في القضاء عليهم، فسوف تعاني مصر المسكينة كثيراً من جرَّاء هذا.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم١١

---

(١) البورصة: كيس من الفضة يساوى ٥٠٠ قرش، أي ما يعادل ١١٠ فرانك ذهب تقريبا. وكيس الذهب كان يقدر بـ ١٠,٠٠٠ قرش، وفى هذا النص المقصود بها أكياس فضة.

* الكيس : كان الكيس يعد أكبر وحدة للتعامل النقدي في ولايات الدولة العثمانية، وكان يشتمل على خمسمائة قرش، ويشتمل القرش على عشر بارات . «المراجع»

٢٠- من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- الجنرال ستيوارت يكتب إلى الباشا.
- شعور دي روسيتي بالألم لأن الصلاحيات التي منحها له الباشا نفسه، لم تمكنه من التوصل إلى تسوية مسألة البكوات؛ في غضون أيام قليلة ستنسحب القوات الإنجليزية من مصر، ولكن قبل ذلك أراد أن يقوم بمحاولة أخرى لتهدئة البلاد، ونجح في إقناع البكوات بالانسحاب إلى مصر العليا.
- البكوات يشترطون أن يتسلموا جزءا من مخازن الإسكندرية. هذه هي آخر الأعمال الوظيفية التي يقدمها لمصر في وظيفته كجنرال وأهمها، وهو يتمنى أن يستطيع الباشا الحصول على موافقة الباب العالي.
- استمرار أعمال الحرب.
- تعسف رجائي أفندي .
- عودة اللورد بلانتير من القسطنطينية، وهو يحمل موافقة السلطات المدنية على السماح للبكوات بالاستقرار في مصر العليا.
- البكوات يبدءون في الرحيل من مصر السفلى، ولكنهم يفرضون الضرائب هناك.
- يبدو أنهم لا يشعرون بالسعادة؛ لأن السلطان خصص لهم أسوان كمحل إقامة، وهي مكان مجدب.

القاهرة: ٩ مارس ١٨٠٣

في خلال الثلاثة والعشرين يوما الأخيرة لم تصل إلى الباشا أية أخبار من الماجور ميسيه المكلف بمهمة التفاوض مع البكوات. واليوم تسلم خطابا من الجنرال ستيوارت بالإسكندرية مؤرخًا في ٢٣ من الشهر الماضي، وفي هذا الخطاب أخبره بأنه قد التقى بالماجور ميسيه المذكور في أثناء عودته من معسكر البكوات. وقال إنه غير سعيد؛ لأن الصلاحيات التي منحها له عظمته لم تسمح له بتقديم اقتراحات أخرى لتسوية مسالة البكوات غير تلك التي سبق أن رفضوها بشدة، على الرغم من كونهم في ظروف متدهورة للغاية، كما ذكر أن ملكه قد تأخر كثيرًا في استدعاء جيشه لسبب واحد، وهو المشاركة في استتباب الأمن في تلك الأنحاء، ولكن استمرار الباب العالي في الرفض، بعد أن جعل جلالته مصر للسلطة العثمانية بفضل نفقات خزينته وبدماء جنوده، سيجعله يأمر بانسحاب قواته وسفنه لتعمل في خدمة إمبراطوريته. وقبل الرحيل، رأى الجنرال أنه من واجبه أن يرفع الشقاء عن شعب قدم له براهين وأدلة كثيرة على تعلقه به، وذلك باتخاذه

الإجراءات كافة التي قد توقف على الأقل في الوقت الحالي حربًا مؤكدة ومدمرة تؤلمه. كما أكد أن البكوات بعد أن رفضوا كل المبادرات التي قدمت لهم، امتد نفوذهم حتى مصر السفلى (التي مازالت سهولها ناقلة للعدوى بسبب جموع الأتراك القتلى، وجثث أكثر من ٣٠٠٠ جندي من رجال الباشا لم يتم دفنها)، وقبائل العرب القوية المتعاطفة مع قضية البكوات مدت مساهماتها إلى الجزء الواقع إلى يسار النيل بأكمله.

وقد اختبأ الجنرال التركي في معسكره في إذلال خوفا من أن يجد نفسه مجبراً ومضطراً لأن يظل مجرد مشاهد صامت على مداهمتهم له، والإسكندرية نفسها تخشى بالفعل من عواقب اقترابهم منها بعد رحيل الإنجليز؛ لأن البكوات متأثرون جدا من المضايقات التي تعرضوا لها، فلن يفاجأ الجنرال بأن روح الانتقام هي التي سوف تحركهم، ولكنه ملتزم بأن يظل محافظًا على تأثيره حتى اللحظات الأخيرة من أجل الإنسانية، وليحول دون حدوث الدمار الشامل الذي يهدد مصالح الباب العالي، وقال إنه مكلف بإقناع البكوات بمواصلة اعتدالهم، وبالموافقة على الانسحاب بهدوء إلى مصر العليا، مؤكدا أنهم قد وافقوا على ذلك بسبب علاقة الصداقة التي أنقذت حياتهم يومًا ما، واعتقاداً منهم أنه سيأتي اليوم الذي ينصت فيه السلطان إلى توسلاتهم وتضرعاتهم. كما ذكر أنهم اشترطوا أن يَمنحَ لهم جزءاً معقولا من مخازن الإسكندرية- والتي ساعدت قيمتها في شن الحرب على عدوهم المشترك- كإعانة لهم لتلبية احتياجاتهم الضرورية، وأن يكون لهم أنصبة عادلة. وقال إنهم بتلك المساعدة قد اتفقوا على الجلاء عن مصر السفلي، وعلى تسهيل وتأمين انسحاب جيش كيايا بك حتى القاهرة، وإذا لم يقم ممثلو الباب العالي بمناوشات لمضايقتهم، فإنهم سيصيرون مخلصين في تأدية واجباتهم تجاه ملكهم الذين يقومون بخدمته، وسيدفعون ضريبة مناسبة وسيلتزمون بحدود الأراضي التي خصصت لهم.

وتابع الجنرال قوله: إن هذه هي أهم أعماله الوظيفية وآخرها في مصر، وأن السلام يعتمد في الوقت الحالي على الباب العالي، ويتمنى أن يستفيد الباشا من تلك الأزمة ليفتح أعين الوزراء في حكومته على مصلحة ملكهم، ويشعرهم بضرورة أن يتحد جميع رعاياه ليؤكدوا له سيطرته على الجزء القيم من مملكته، وأنهى خطابه ببعض عبارات المجاملة.

واللورد بلانتير، الذي جاء إلى هنا من أجل مسألة البكوات، لا أحد يعرف إذا ما كان قد عاد إلى بلاده، وما الذي نجح في تحقيقه؛ ولكننا في ظروف أسوأ من ذي قبل، وكان البكوات يدافعون عن أنفسهم حين كان الباشا يعارض عودتهم إلى مصر العليا، عندما يجدون قوة مساوية

لهم، ويهربون عندما يجدون قوة تفوقهم. ومن الطبيعي أن الأعمال التخريبية سوف تقلل الجباية وسوف تهلك وتدمر التجارة، والقوات تريد أن تحصل على مستحقاتها، وكلها أشياء تبشر بمستقبل مظلم، لو لم تتم تهدئة البكوات، وربما يكون هذا سهلا، لأن القضاء عليهم أمر أعتقد أنه صعب جدا.

وقد أثار رجائي أفندي Regiai Effendi الدفتردار ضيق البلاد بأسرها ؛ بسبب الضرائب الجديدة التي ينوى فرضها لجمع الأموال. وعلمت أنه قد وصل إلى الإسكندرية اللورد بلانتير برفقة أحد ضباط البلاط، الذي جاء حاملا للبكوات تصريحاً من السلطان للسماح لهم بالاستقرار في مصر العليا، الأمر الذي يجعلنا نأمل في إحلال الأمن والأمان اللذين لم يتحققا حتى الآن. والجزار باشا* الذي استولى مؤخراً على حيفا، تسلم تصديقاً على ذلك، وهو ما أسعده كثيراً.

ومن المنتظر بين يوم وآخر وصول الماجور ميسيه إلى القاهرة، بصفته ممثلا لحكومة إنجلترا. وفي الإسكندرية اختار الجنرال ستيوارت السيد برجس Briggs نائبا للقنصل الإنجليزي. وتراجعت بالفعل قوات الباشا بقيادة كيايا بك، كما يستعد البكوات للانتقال إلى مصر العليا، ولكنهم فرضوا ضرائب باهظة في جميع الأنحاء، الأمر الذي جعلني أعتقد أنهم لا يشعرون بالسعادة. وقد وافق لهم السلطان على الاستقرار في أسوان، ذلك المكان المجدب، حيث لا يستطيعون العيش فيه بالتأكيد، وعلى ذلك فمن المؤكد أن تستمر أعمال القتال التي سوف تنتهي حتما بتدمير التجارة والزراعة. وهناك أنباء تشير إلى أن ألفي بك سيرحل مع الجنرال الإنجليزي للذهاب إلى لندن ليطالب بالوعود المتفق عليها، التي وعده بها كبير الجنرالات هاتشينسون.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ١١

٢١-من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- ضرائب باهظة يفرضها رجائي أفندي الدفتردار على التجارة.
- احتجاج دي روسيتي.
- الامتيازات الكبيرة التي حصل عليها دى روسيتي لصالح التجارة النمساوية.

القاهرة: ٩ مارس ١٨٠٣

* أحمد باشا الجزار والي عكا . «المراجع»

لقد أثار رجائي أفندي الدفتردار سخط المدينة بأسرها بسبب الضرائب الجديدة التي فرضها بهدف جمع الأموال. ومن أجل أن أضع حدا لتلك الأمور، التي تنتهك المعاهدات، قدمت إلى عظمة الباشا، المذكرة التي أرفق لسيادتكم نسخة منها، وقد أحالها على الدفتردار للمعلومية. وكان بند العصفر(١)، هو أساس تلك المذكرة إذ لم يعد القرويون قادرين على أن يشتروا، أو يزنوا، أو ينقلوا، أو يركبوا البحر، بدون إذن خاص بكل عملية، وتلك الأوامر لم يرفض أحد إعطاءها لي بعد؛ نظرًا لأنني أتعامل مع ما هو موجود بالفعل، ولكن من يضطر إلى تنفيذ هذه الأوامر فسوف يصادف متاعب كثيرة، وإذا حرم هؤلاء التجار من الحرية المنصوص عليها في المعاهدات، فإنهم لن يستطيعوا القيام بأعمالهم، وأعتقد أنه من الضروري صدور أمر حاسم لحل هذا الأمر، كما سبق وأن التمست في خطابي المؤرخ في ٢ فبراير.

ويذكر أن شريف أفندي، الذي كان يشغل منصب الدفتردار قبل رجائي أفندي، ويحتل حاليا منصب والي جدة، سوف يسافر ليتسلم العمل في حكومته التي يملؤها السخط العام، وقمت باستغلال الفرصة لإعطائه مبلغ ٣٤٠٠٠ مقابل كمبيالات، قابلة للدفع في جدة، بدون أي فرق قيمة بين العملتين وبدون أية فوائد، طالبًا منه البيورلدى الذي منحه لي، وفيه يأمر، وفقًا للمعاهدات، أن لا يؤخذ من النمساويين في جدة غير ٣٪ من الجمارك المفروضة على البضائع الواردة من اليمن، وهو امتياز ينفذ في القاهرة، وقد عملت على تنفيذه في مصر العليا، وفى السويس وفى جدة نفسها. فعلى كل ٤٠٠٠ قنطار من البن، التي قد ترد على الأقل في العام، يمكن توفير الرسوم التي تزيد عن ١٤٠٠٠٠ قرش. وإذا نجحت، كما أتمنى، في منع طرح صنف العصفر للبيع في المزاد، فمن الممكن توفير أكثر من ٦٠٠٠٠ قرش في العام الواحد. وهناك العديد من الضرائب الأخرى التي رفعتها عن التجارة النمساوية، ولن أذكر سيادتكم بها، ولكن كل ما أقوله أنها ستوفر مع مرور الوقت وعلى مدار ١٠ سنوات حوالي ٢ مليون أو أكثر.

تورشيكا، ١٨٠٢، رقم ١١

(١) العصفر (الكركم)، وهو نبات عشبي، تستخرج منه مواد ملونة غالية الثمن، في فترة ما زرع بتوسع في مصر، وكان يحتل البنود الرئيسة للتصدير، ولكن حاليا استُبدل في الصناعة بألوان الأنيلين، ولذا أصبحت زراعته محدودة للاستخدام المحلى فقط، الاسم العربي له (الكركم).

٢٢-من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- اتهام تضمنته العديد من الخطابات.
- استلام الفرمان الصادر بإعفاء التجارة النمساوية من أية ضرائب.
- الدفتردار يؤكد أن الباب العالي أرسل خطًا شريفًا يعارض الفرمان.
- ضرورة اتخاذ إجراءات عاجلة.

القاهرة :٢١ مارس ١٨٠٣

تشرفت باستلام أصول خطابات سيادتكم وصورها المؤرخة في ٧ أكتوبر، و١٠و١٤ ديسمبر، كما تسلمت أصول خطاباتكم المؤرخة في ٣٠ منه، و٢٠ يناير، ولكن للأسف لم يكن لدى الوقت الكافي حتى أستطيع الرد عليها بسبب قرب موعد رحيل عمال البريد، وبالتالي لم أتمكن من إخبار سيادتكم بأنني استلمت الفرمان والتعريفة المرفقة طيه، التي قد تم الاتفاق عليها، والتي سأقوم باستخراج صور منها، موقعة من القاضي، وسأرسلها إلى السويس، وكين، وبولاق، ورشيد، والإسكندرية، ودمياط.

كما تسلمت أيضا الفرمان الذي كنت أتوق إليه، والذي بموجبه تعفى التجارة النمساوية من أية ضرائب، لاسيما التي ستفرض على صنف العصفر. وقد قمت على الفور بعرضه على الباشا، والدفتردار رجائي أفندي، حيث أعرب الأول عن احتجاجه، في حين حاول الثاني أن يجاملني، لكنه في الوقت نفسه أخبرني أن السلطان شخصيًا قد أصدر خطًا شريفًا[1] يقضى بأن يطرح في المزاد العصفر، وملح الأمونيا، وأنه لا يستطيع أن يفهم كيف استطاع الصدر الأعظم أن يصدر فرمانًا يتعارض مع خط شريف، وأقترح أن ترسل نسخة من هذا الفرمان بدون إجبار لتنفيذها، وبدون رفضها. وطلبت منه إجابة محددة إما نعم، أو لا، ولكنه كان دائما يحجم عن الرد بكلمات صريحة، فلم يكن يرغب في أن يجعلني أعاني هذا العام ما عانيته في العام الماضي. وإذا لم يكن من الممكن الحصول على خط شريف لهذا الأمر، فيكفي خطاب فقط إلى الدفتردار هنا في أقرب

(١) خط شريف، أو خط همايوني، من ناحية الاشتقاق تعنى الكتابة الشريفة، الكتابة السلطانية، كتابة لعظمته، وتعنى الأوامر التي كانت تصدر مباشرة من السلطان، وكانت تشتمل ليس على توقيعه فحسب، بل كانت هناك صيغة معينة تضاف إليها، هذا فضلا عن بصمة يد السلطان شخصيا. وهذه الصيغة كانت تميز هذه الأوامر عن الفرمان، فقد كان تفويضا بقوة السلطان.

وقت ممكن، حيث إنه لم يتبق سوى خمسين أو ستين يوماً على موعد الحصاد. وقد قمت بإعلام الوزير الروسي بهذا الموقف غير المناسب، وطلبت منه خطاً شريفاً، دون أن أخبره أن معاليكم قد حصلتم بالفعل على فرمان، وفي حالة إذا لم أحقق أية نتيجة، سأكرر الطلب نفسه للقائم بالأعمال الفرنسي، لأن تجارة فرنسا مازالت منتفعة من تجارتنا.

تورشيكا١٨٠٣، رقم ١١

٢٣- من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- جلاء الجيش الإنجليزي عن مصر، لكن يبدو أن الإنجليز لا ينوون الجلاء عن مالطة.
- البكوات يتجهون نحو مصر العليا، ولكنهم لن يذهبوا إلى أسوان.
- لن يستطيع الأتراك أو الإنجليز وضع أرجلهم في مصر فيما لو اتحد البكوات مع الفرنسيين.
- البكوات ليست لديهم ثقة كبيرة في وعود الإنجليز لهم، لذا تقربوا للأتراك الذين قاموا بذبحهم.
- الباب العالي يعتقد أنه بإمكانه القضاء على البكوات عن طريق الأرناؤوط ، لكنهم لم يبدوا شجاعة سوى في قتل المواطنين العزل.
- ضرائب باهظة يفرضها الباشا على الأرناؤوط ليبعدهم عن مصر.
- تجارة جدة تتوقف بسبب حركة (عبد الوهاب)*.
- ضرورة تهدئة البلاد وتأمينها.

القاهرة: ٢١ مارس ١٨٠٣

جلا الجيش الإنجليزي أخيرا عن مصر. ولكن هناك سفينة واحدة عادت إلى مياه الإسكندرية بسبب موت أحد الجنود مصابا بمرض الطاعون، ومن المقرر أن ترحل بعد أن تقضى فترة الحجر الصحي. ويبدو الإنجليز غير مستعدين للجلاء عن مالطة؛ لأن ممثل الحكومة الإنجليزية الذي ظل في الإسكندرية طلب السماح بمد الجيش بالحنطة اللازمة للجنود.

* سيتردد اسم عبد الوهاب في كثير من التقارير والرسائل التالية، والمقصود بحركة عبد الوهاب حركة الإصلاح الديني السلفي التي قامت في نجد حوالى منتصف القرن الثامن عشر وعلى وجه التحديد في عام ١٧٤٧ بتحالف الشيخ محمد ابن عبد الوهاب مع الأمير سعود، وكان من نتيجة ذلك التحالف قيام الدولة السعودية الأولى، التي نجح إبراهيم باشا في تحطيم عاصمتها الدرعية في عام ١٨١٨ . وقد نجح السعوديون في عام ١٨٠١ بقيادة أميرهم عبد العزيز في غزو الحجاز مما أدى إلى انقطاع وصول الحجاج إلى المدن المقدسة في مكة والمدينة وتوقف التجارة في البحر الأحمر. « المراجع»

وتعيش المملكة (مصر) حاليا في حالة من الرعب والفزع الشديدين. فالبكوات بدءوا يتجهون نحو مصر العليا، لكنهم بالتأكيد لن يذهبوا إلى أسوان، ذلك المكان الذي خصصه لهم السلطان؛ لأنه بالنسبة لهم صحراء جرداء، مجدبة لا يمكنهم العيش فيه. ولو أن اللورد بلانتير عرف ما هي أسوان من البداية، لما شكر الباب العالي على منحه إياها لهم.

وقد رحل ألفي بك مع الجيش الإنجليزي؛ لكي يطلب من بلاط إنجلترا الحفاظ على وعود كبير جنرالاتهم، التي قدمها باسم الملك والأمة والجيش للبكوات المماليك، خشية أن يساعدوا الفرنسيين، ففي الواقع لو أن البكوات اتحدوا مع الفرنسيين، فلن يستطيع أيٌّ من الأتراك أو الإنجليز وضع أرجلهم في مصر. فبدون الأمان الكامل الذي يشعر به البكوات تجاه وعود كبير الجنرالات، لما تقربوا من الصدر الأعظم، ولا من القبطان باشا. ولو أن كبير الجنرالات الإنجليزي هاتشيتسون، الذي سبق وأن أعلن رسميا أنه لن يرحل عن تلك المدينة قبل أن يتوصل إلى اتفاق لتسوية مسألة البكوات، واهتم بمناقشة الأمر مع الصدر الأعظم الذي كان موجوداً في القاهرة، لما وقعت مذبحة البكوات، وأمكن تجنب الفزع والرعب الذي نتج عنها.

وكان اعتقاد كل من الباب العالي والباشا أنه بإمكانهما القضاء على البكوات بواسطة ١٢٠٠ جنديٍّ من الأرناؤوط، الذين أرسلوهم خلفهم، إذ كان قادتهم دائما يقنعون الناس بأن لديهم المقدرة على صنع النصر. ولكن حقيقة الأمر، أنهم بمجرد أن بدءوا الهجوم، وقع نصفهم تقريبا جرحى. وهؤلاء الأرناؤوط لم يظهروا شجاعة سوى في اجتياح البلاد وتدميرها وقتل العزل، أو الاستيلاء على أموالهم بالقوة. وعندما علم الباشا بأنهم مدمرون، ويهددون الناس، ولا يأتي من ورائهم أي نفع، أراد أن يسرحهم قائداً تلو الآخر، لكن هؤلاء القادة المتحدين أعربوا عن رغبتهم في الحصول على جميع مستحقاتهم، وأن يرحلوا معًا، ولذلك اضطر إلى فرض ضرائب عامة باهظة، أثقلت كاهل الشعب، وجعلت السكان يعيشون في حالة من الاضطراب.

و فضلا عن ذلك فقد توقفت حركة التجارة في جدة، حيث أصبحت مكة مهددة من الفقيه الجديد عبد الوهاب*، الذي يريد أن يخلص الشعب من الطغيان ومن الرسوم والضرائب، الأمر الذي جعل له العديد من الأتباع. وقد اعتنقت اليمن بأسرها أفكاره وتعاليمه ** لذا أمر الباب العالي ثلاثة باشوات*** لقمع حركته، وإعادة السلطة إلى شريف مكة، الذي طلب تلك

* لم تكن مكة في ذلك الوقت مهددة من قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما ورد في السياق ، وإنما كان التهديد من قبل السعوديين أتباع الحركة الوهابية الذين نجحوا في غزو الحجاز. «المراجع»

** ليس هناك ما يؤكد من الناحية التاريخية اعتناق اليمن بأسرها كما ورد في السياق تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وإنما ظلت اليمن محتفظة بمذهب الإمامة الزيدية . «المراجع».

*** حاول الباب العالي الاعتماد في قمع الحركة الوهابية على الولاة التابعين له في كل من جدة والعراق والشام غير أنهم فشلوا في ذلك، ومن ثم لم يجد سبيلا سوى اللجوء إلى محمد علي واليه في مصر، الذي قام بإرسال أول حملة إلى الحجاز بقيادة ابنه طوسن باشا في عام ١٨١١ كما تمكن إبراهيم باشا بن محمد علي في عام ١٨١٨ من القضاء على الدولة السعودية الأولى بتحطيم عاصمتها الدرعية إلا أن الدولة السعودية لم تلبث أن انبعثت من جديد في عدة أدوار تالية كما ظلت التعاليم السلفية التي نادى بها الشيخ محمد عبد الوهاب قائمة إلى وقتنا الحاضر «المراجع».

المساعدة، ومن أجل جعل مكة والمدينة وجدة تابعة للباب العالي، وحتى الآن لم يتخذ شريف مكة أي موقف سوى أنه تحمل وجود والٍ عثمانيٍ في جدة، جعله يعيش فترة قصيرة من الوقت، ثم تخلص منه بالسم.

ومن مصلحة الباب العالي أن يمنح البكوات مقاطعة ملائمة ليقيموا فيها؛ حتى يعيش الشعب في أمان وهدوء، ويتمكن من الاعتناء بالزراعة والتجارة. ومن المؤكد أن تجارة أوروبا لن تزدهر بدون هذا الهدوء والاستقرار.

تورشيكا١٨٠٣، رقم ١١

٢٤-من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- يكتب والقنابل تنفجر بالقرب من منزله.
- الأرناؤوط يثورون على الباشا للحصول على مستحقاتهم.
- حاصروا أولا منزل الدفتردار.
- بعد أن أمر الباشا بإطلاق النيران عليهم من القلعة، استولوا عليها بقيادة طاهر باشا، وحاصروا الباشا.
- طاهر يؤكد أنه يتصرف باسم الباب العالي.
- البلاد ثائرة بسبب مخالفات محمد باشا وتجاوزاته، والجميع يفضلون طاهراً .
- بقروض حاول الباشا أن يتفق مع دي روسيتي؛ ليدفع مستحقات الأرناؤوط.

القاهرة: ٣٠ أبريل ١٨٠٣

أكتب لسيادتكم، وبالقرب من منزلي يدوّي انفجار القنابل الموجهة عن بعد، فعلى الرغم من كل الحيل والالتزامات الضريبية، لم تستطع حكومة خسرو باشا أن تجمع الأموال لتسدد المستحقات المتأخرة لجنود الأرناؤوط، الذين انتظروا لمدة ٥٠ يوماً. وبعد طول انتظار فرغ صبرهم، وثاروا فجأة صباح أمس مطالبين بالحصول على مستحقاتهم. وقاموا بمحاصرة منزل رجائي أفندي الدفتردار واستولوا عليه. وأرسل إلى الباشا يطلب منه أن ينقذه، فطلب الباشا مهلة أخرى لمدة ١٠ أيام، لكن الأرناؤوط رفضوا تلك المهلة، وأصروا على الحصول على مستحقاتهم المتأخرة، ومرتبات الخمسين يوما. واعتقد الباشا أن بإمكانه مراوغتهم وإجبارهم على الصبر والتحمل، في حين أنه كان يستعد لإطلاق النيران عليهم، وأرسل الدفتردار إليهم ليخبرهم أنه لن يقدم على مثل هذه الخطوة، ولكن دون جدوى. وقد جعلت أعمال القتال تلك المدينة بأسرها تمر بحالة من الاضطراب والفزع، خشية أن يقوم بنهبها الأرناؤوط الذين بلغ عددهم حوالى ٥٠٠٠ ، لكن لحسن حظ السكان المساكين، بدأت الأمور تأخذ مجرى آخر.

ويقيم في القاهرة منذ فترة طويلة طاهر باشا، الذي كان يقود العديد من الأرناؤوط قبل أن يتم تسريحهم، وقد جال في جميع أنحاء المدينة معطيا الأمان. ولكنه سرعان ما استولى على القلعة، وأوصى جميع الحراس بضرورة المحافظة على أمن البلد، وأمرهم بالقبض على أي أرناؤوطي إذا أثار أي شغب، أو اضطراب، وفي المقابل يجب عليهم أن يحترموا من لا يسبب إزعاجًا، ويبدو أن محمد علي الذي أصبح قائداً لتلك القوات قد اتفق معه على ذلك. كما أمر محمد باشا، المحصن داخل منزله، مدفعيته بأن تطلق النيران لمدة ٢٤ ساعة متواصلة، وأصدر أمراً إلى

طاهر باشا بإنزال بعض المدافع من القلعة وإقامة العديد من الوحدات المدفعية والحصون حول منزله، ولم تسمع أي انفجارات بعد ذلك.

ويبدو كما يقال أن طاهر باشا قد قرر أن يسيطر على محمد باشا ويستولي على البلد. حيث أنه سبق وقبض على الدفتردار، والخازندار[١]، والباستيبديل[٢]، والسلحدار[٣]، وأسر أكثر من ٤٠٠ جندي من القوات النظامية، التي كان محمد باشا قد أمر بتدريبها على النظم الأوروبية على يد عدد قليل من الضباط الفرنسيين الذين ظلوا هنا.

وادعى طاهر باشا بأنه يتصرف بناء على أوامر الباب العالي، وأن البلاد تفضله، بسبب الضرائب الباهظة التي عانت منها كثيراً، وبسبب أحكام الإعدام المفاجئة التي نفذها محمد باشا في الأشخاص الذين هاجموه، متهماً إياهم بجرائم ملفقة. ولم تكن اتجاهات طاهر باشا نابعة من سوء التفاهم بين هذين المنتصرين[٤]، ولم يكن يرى أن بإمكان أي مدافع عن محمد باشا الذي أصبح منهزما أن يأتي ليثأر وينتقم له، أما إذا حدث ذلك فسوف تعانى مصر المسكينة كثيراً، لاسيما أنها سبق وأن تعرضت للتدمير بعد عدة حوادث مشابهة، ولكن هذه المرة سيكون الدمار مصحوبا بخسارة فادحة للقوى الأوروبية التي تستفيد من التجارة، الأمر الذي يحتم على تلك القوى أن تطلب من الباب العالي الأمن الذي يتطلع إليه الجميع. ومن الواضح أن كل هذه الاضطرابات ناشئة من عدم الرغبة في تهدئة بكوات المماليك، والتوصل معهم إلى اتفاق، إذ لو كانت قد ضمنت لهم معيشة كريمة، لما كانت هناك حاجة للأرناؤوط، الذين وفدوا منذ العام الماضي، ولكان محمد باشا استطاع أن يعيش بالموارد الذاتية دون اللجوء إلى فرض الضرائب الباهظة التي أثارت سخط الجميع. ومنذ ثلاثة أشهر، قام الباشا بجمع الأموال للأرناؤوط، وقرر أن يدفع لهم مستحقاتهم ثم يقوم بطردهم، وقد اتخذ بالاتفاق مع الدفتردار كافة الإجراءات اللازمة لجباية الضرائب، وفي إطار تلك الإجراءات وضع كل من الباشا والدفتردار أعينهم عليّ، وحاولا مقابلتي، والتفاوض معي، ولكن بمجرد أن علما أنني أعمل للصالح العام وأقدم خدمات للباب العالي، فقد طلبا مني الموافقة على سحب ٤٥ ألف إردب من القمح، مقابل توفير ٢٠٠ ألف قرش كانا في حاجة ماسة إليها. وتصادف في ذلك الوقت أن وصلتني طلبات عديدة من قادة سفننا وتجارنا لكي أحصل لهم على إذن سحب للقمح لحاجتهم. ولذلك وافقت على الاتفاق مع الباشا والدفتردار شريطة ألا يطلبا مني أي شيء آخر، قبل أن يتم سحب الخمسة والأربعين ألف إردب.

(١) أمين الخزانة.

(٢) رئيس البوليس السري.

(٣) السلحدار تعنى الضابط الذي يقوم بحراسة الأسلحة، حامل الدرع.

(٤) يقصد الصدر الأعظم (يوسف باشا)، والقبطان باشا (حسين)؛ اللذين كان يفضلهما الوالي.

وبعد حوالي خمسين يومًا، طلب الباشا رؤيتي، وأخبرني أنه مازال بحاجة إلى ٥٠٠ ألف قرش ليكتمل المبلغ المطلوب لقوات الأرناؤوط، وأنه من المتوقع أن تصل إلى الميري خلال شهور قليلة كميات كبيرة من القمح، وأقنعني بأنني سأقدم خدمة جليلة للباب العالي إذا توصلت لاتفاق مع الدفتردار في تلك الصفقة الجديدة.

وقمت على إثر ذلك بالتفاوض مع الدفتردار، وتوصلت معه إلى اتفاق يقضى بأن أدفع مبلغ ٢٥٠ ألف قرش وأحصل على ٢٥ ألف إردب من القمح تسليمًا حرًا، بالمكيال السكندري، وبعد الاستلام، أدفع باقي المبلغ(٢٥٠ ألف قرش أخرى). وقد تم ذلك الاتفاق شفهيا، لكن بقي تسجيله على الورق، وبعد أن وقَّع عليه هو والباشا، أرسله إلي، وطلب منى أن أرسل على متن (رشيد)* جزءًا من الأموال المتفق عليها نقدًا وكمبيالة قيمتها ٢١٦٦٠ قرش لكي تدفع للقوات التي كانت هناك، وبالفعل كتبت الكمبيالة المطلوبة، وأرسلت مبلغ ١٠٠ ألف قرشًا. وتم كل هذا بصورة رسمية. وبعد ذلك أرسل الدفتردار نص الاتفاق لي دون أن يشير فيه إلى أن الإردب يجب أن يكون بالمكيال السكندري، ولذلك أعدته إليه حتى يشير إلى تلك النقطة ويوضحها، لأن هذا سينتج عنه فرق في القيمة بحوالي ٦٦ ٪ [(١)] وهو ما لم يوافق عليه. ومن ثم فقد ألغيت الصفقة بعد أن دفعت المائة ألف قرش والتي أحتفظ بإيصال عنها موقع من كل من الدفتردار، والباشا.

أما فيما يتعلق بالخمسة والأربعين ألف إردب التي سبق التفاوض عليها فلم يكتمل سحبها حتى الآن، ولهذا فإنني أرجو من معاليكم تزويدي في أقرب وقت ممكن بفرمان من الصدر الأعظم يتضمن أمرًا للدفتردار بتمكيني من سحب القمح بموجب الترخيص الذي منحه لي محمد باشا، وأن يرد لي المائة ألف قرش التي اقترضتها الخزانة العامة، فضلا عن إقراره بكل ما سلمته له من أموال، وأن يراعي بدقة المعاهدات المقدسة، وأن يجعلني أتمتع بالامتيازات الواردة في البيراتو الخاص بي.

تورشيكا١٨٠٣، رقم ١٦

* من الواضح أنها اسم لسفينة. «المراجع»

(١) الإردب حاليا يساوى ١٩٧,٧٤ لترا، لكن قبل محمد علي وفى بداية مملكته، كانت تختلف قيمة الإردب من مقاطعة إلى مقاطعة أخرى. ولكن تلك الاختلافات اختفت تماما بعد إنشاء الشون أو مخازن الدولة بالإسكندرية، وتوحدت قيمة الإردب في جميع أنحاء مصر وفقا لقيمته في الإسكندرية، واحتكار التجارة، المتمركز في أيدي الدولة أثناء حكم محمد علي، وكان الأثر المباشر لمحمد علي إدخال وحدة مقياس المكاييل في وادي النيل كله، كما أنه كان هو أيضا الذي أدخل وحدة قياس المساحات.

٢٥- من دي روسيتى إلى ستورمر

موجز

- طاهر يبعث رسالة إلى دي روسيتي ليطمئنه بأنه لن يهان أو يتعرض لأي أذى هو وأتباعه.
- طاهر باشا يدعو البكوات للدخول إلى المدينة، وهناك شك في قبولهم لتلك الدعوة.
- هروب محمد باشا.
- أحمد المحروقي* كان هو المتسبب في كل هذا القلق.
- وصول المبعوث الإنجليزي إلى بولاق ولحسن الحظ انتهت المأساة سريعا.
- وصول حمولة من بومباي.

القاهرة: ١ مايو ١٨٠٣

وصلتني رسالة من طاهر باشا، طمئنني فيها أنا، والمواطنين، والموظفين التابعين لي، مؤكداً أنه سيوفر لنا الحماية والمساعدة في جميع الظروف. وحمل لي تلك الرسالة أحد ضباط الصف، الذي أخبرني أن الباشا قد كتب بالفعل إلى البكوات ليحضروا إلى القاهرة، ونحن في انتظار الرد لنعرف ما إذا كانوا سيثقون في المجيء إلى مدينة يوجد بها الباشا بقواته العديدة أم لا؟؛ لأن بداخلهم اعتقاد سيء عن سياسة الباب العالي، ويعتقدون أنه من السهل أن يخدعهم الوالي، وتكون هذه مجرد حيلة ليجمعهم في شبكة ويقتلهم عن بكرة أبيهم. وهؤلاء البكوات بعيدون عن القاهرة منذ ثلاثة أيام، أو على الأكثر منذ أربعة أو خمسة أيام، ومن المنتظر أن نعرف ردهم في أقرب وقت.

في تمام الساعة الرابعة بعد منتصف اليوم، اشتعلت النيران في منزل محمد باشا، الذي كان موجوداً بداخله مع عدد قليل من الأشخاص، ولاذ بالفرار، ويقال: إن السيد أحمد المحروقى (السبب الرئيسي في كل اضطرابات مصر) قد هرب معه، وحاليا يقال إنه قد ألقي القبض عليه.

وقد تم نهب قصر الباشا، ومنازل المحروقى، وبعض الأشخاص الآخرين. أما باقي المدينة فلم تعان من أية أضرار وذلك بفضل أوامر طاهر باشا المشددة، التي جاءت في الوقت الذي كان يخشى فيه الجميع من عدم انضباط الجنود الأرناؤوط.

وكان طاهر باشا يفعل ما يفعله بموافقة كبار العلماء، وجميع رجال الدولة ذائعي الصيت. وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يعانون من تسلط المحروقي وابتزازاته، إضافة إلى العديد من

* أحمد المحروقي : كبير تجار القاهرة، أو فيما كان يعرف بشهبندر التجار . «المراجع»

رجال محمد باشا الآخرين، إلا أن طاهر باشا لم يكن يرغب في معاقبة أحد، أو رفع الضرائب والمظالم من جانب الدفتردار الجديد، الذي كان كل همه جباية الأموال. وفي الوقت الذي كان فيه الجميع، كباراً و صغاراً، يبدون سعادتهم بسقوط المحروقى، الذي كان بحق سوط عذاب مصر، كان الصدر الأعظم يحتفظ بتقدير خاص له، لأنه كان كثيرا ما يبصره بحقيقة الأوضاع، ولكنه لو علم بسلوكه السيء لما أسبغ عليه حمايته، أو تقديره.

وقد وصل إلى بولاق، في وقت الاضطرابات هذه، الماجور ميسيه، الممثل الإنجليزي، الذي سبق أن وفرت له منزلا ليقيم فيه، وبمجرد أن علمت بوصوله، حتى أحطت طاهر باشا علماً بذلك، وأقنعته بأن يرسل له حارس شرف، وهو ما وافق عليه بترحاب، ولكن حاكم بولاق قد سبقه إلى ذلك، وسوف يأتي ميسيه إلى القاهرة بعد أن تهدأ الأمور بها.

وعندما بدأت الاضطرابات لم أكن أتوقع أن تنتهي قبل مرور خمسين ساعة على الأقل، وكنت أشعر بألم كبير من أجل مصير حمولة السفينة التي وصلت إلى السويس قادمة من بومباي، تحت حراسة مائتي جندي، أرسلهم محمد باشا لاستقبالها. وعلى الرغم من أنني قد أوصيت شيوخ العرب الذين كان من المقرر أن تقوم جمالهم بنقل تلك الحمولة بضرورة توخي الحذر والدقة، إلا أنني كنت أخشى أن يشعروا بهذا الاضطراب المفاجىء، ويطغى عليهم الخوف، ومن ثم قامت بنقل الحمولة إحدى القبائل غير المتخصصة في النقل، وعندما شعرت حراسة القافلة بالاضطراب الحادث في القاهرة، تركت حراستها، لكن شيوخ العرب الذين اتفقت معهم على نقل الحمولة كانوا أمناء ومخلصين، حيث أرسلوا لي وهم بالقرب من القاهرة رسالة يخبرونني فيها بالمكان الذي توقفوا عنده، في انتظار نصيحتي. وقد جاءتني تلك الرسالة قبل فرار محمد باشا بساعتين تقريبا، وعلى الفور أرسلت أخبر طاهر باشا بما حدث طالبا منه توفير الأمن لهم، وكان لي ما طلبت.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ١٦

٢٦- من روسيتي إلى جودار

موجز

- الأرناؤوط يثورون للحصول على مستحقاتهم.
- استولوا على منزل الدفتردار وعاملوه معاملة الأسرى.
- بمجرد أن أمر الباشا بفتح النيران على الأرناؤوط، قاموا هم، بقيادة طاهر، باحتلال القلعة.
- الباشا يلوذ بالفرار، ويتم نهب قصره .
- الحكومة ظلت في يد طاهر، الذي كتب رسالة إلى روسيتي يطمئنه هو ومواطني بلدته والمسيحيين عارضا عليهم صداقته.
- لحسن الحظ انتهت الملهاة المأساوية بدون أن تسفر عن النتائج المحزنة التي كان من الممكن أن تسببها.

القاهرة: أول مايو ١٨٠٣

احتشدت صباح أمس في منزل الدفتردار قوات الأرناؤوط، التي سرحها الباشا منذ خمسين يوما أو أكثر، لتطالب بأموالها بعد أن سئمت من الانتظار، وعندما لم تجد أموالها جاهزة، حاصرت منزله، وأخرجت منه جميع أفراد حاشيته، واحتجزته بمفرده كرهينة. وعندما علم الباشا بهذا العنف، أرسل يطلب منهم الخروج من المدينة، واعداً إياهم بأنهم إذا استجابوا لأوامره، سيرسل لهم مستحقاتهم. ولكنهم أصروا على عدم الخروج من منزل الدفتردار قبل أن يحصلوا على أموالهم، ولذا أمر الباشا بإطلاق النيران عليهم من مدفعية قصره، ولكن ما زادهم ذلك إلا إصراراً وتمسكًا بموقفهم، واتحدوا جميعًا، وذهب طاهر باشا الأرناؤوطي ليستولي على القلعة، ووضع أمام منزل محمد باشا بعض قطع المدفعية التي استمرّتْ في إطلاق النيران ليلا ونهاراً بدون توقف.

وقام طاهر باشا بالتجول في المدينة ليطمئن الجميع، ولإزالة الخوف من قلوبهم، ودعاهم لأن تظل محالهم مفتوحة، وأصدر أمراً إلى قواته بمنع إشعال النيران في منزل الدفتردار، وفي غيره من المنازل. وفيما بين الأمس والليلة السابقة كان جميع أفراد حاشية محمد باشا تقريبا قد تركوه ليدخلوا في حماية طاهر باشا، والآن، وقد بلغت الساعة الرابعة بعد الظهر، فر محمد باشا دون أن يعرف أحد إلى أين ذهب، وقام الجنود الأرناؤوط بنهب قصره، وإشعال النيران فيه.

وأرسل لي طاهر باشا في هذا الصباح رسالة رقيقة، يدعوني فيها أن أطمئن الجميع سواء مواطني بلدي أو المسيحيين عموماً، وعرض علي استجابته لكل ما يلزمني، بعد أن أصبح الآن على رأس الحكومة، ووعد بتوفير الأمن والأمان للبلد، التي ما زالت تعاني من الاضطراب بسبب

ذلك التغيير المفاجئ، الذي يعتبر خروج القاهرة منه بسلام معجزة، ففي ظل وجود القنابل والمدافع والخوف من أن تقوم القوات غير المنضبطة بعمليات سلب ونهب، فضلا عن خطر انتشار الأمراض، كلها أمور كانت لا تبشر بالخير؛ وعندما لم تتخذ الإجراءات اللازمة لإنقاذ البلاد من تلك الاضطرابات، بادرت بفتح منزلي ليعالج فيه العديد من الفقراء المحتاجين، ولأستضيف الجنود والضباط الذين أرسلهم طاهر باشا إلي.

وأرسل خطابي هذا حتى يمكنكم تدارك المخاطر التي قد يسببها هذا الخبر إذا ما وصل لسيادتكم محرفًا، أو بطريق غير مباشر. وبمجرد أن تهدأ المدينة، سأطلب من الباشا الجديد، الأوامر الخاصة من أجل قمع تلك الاضطرابات. ولأنني ما زلت مذهولا من هذه الملهاة المأساوية احتججت... إلخ..

تورشيكا ١٨٠٣ رقم ١٦

٢٧-من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- وصول الحمولة القادمة من بومباي.
- الأرناؤوط يلاحقون محمد باشا.
- وصول الأرناؤوط وتقديمهم المحروقي لطاهر باشا.

القاهرة: ٢ مايو ١٨٠٣

وصلت صباح اليوم فرقة الحراسة التي سبق الحديث عنها، ومعها الحمولة وشخصان إنجليزيّان، وتقدر قيمة القافلة والبضائع التي تحملها بمليوني قرش تقريبا، الأمر الذي أزاح عن رأسي كثيرًا من القلق؛ لأن النجاة من العرب المتوحشين* بطبيعتهم، وخاصة في أثناء الثورة والاضطراب، يعد من طبائع العناية الإلهية.

وعندما علم الأرناؤوط الذين كانوا في بولاق، بأمر فرار محمد باشا، تتبعوه، حيث وجدوا السيد أحمد المحروقي ونجله، اللذين لم يتمكنا من العدو على ظهر البغال بنفس سرعة الخيول، ومن ثم تمكنوا من إلقاء القبض عليهما وأرسلوهما إلى بولاق، وقدموهما إلى طاهر باشا، الذي أمر

* وصف سيء أطلقه دي روسيتي على العرب، ولعل البدو أو الأعراب هم الذين قصدهم دي روسيتي بذلك الوصف. «المراجع»

بإرسالهما إلى منزلهما، بعد أن طلب من المحروقي تجهيز وتوفير الطعام والشراب المقرر إرسالهما لقافلة مكة، وحتى الآن لم تصل أخبار جديدة من تلك الأنحاء، ولا أحد يعرف ما هي الانتصارات التي حققها الفاتح عبد الوهاب *.

ويذكر أن محمد باشا قد سلك طريق الإسكندرية.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ١٦

٢٨-من جودار إلى ستورمر

موجز

- جودار يبعث بنسخة من خطاب روسيتي المؤرخ في أول مايو.
- ملحوظة: يطلب إعلان وزراء بروسيا وإسبانيا والدانمارك بالأمر.
- ملحوظة: يبعث الرسالة مرة ثانية عن طريق آخر لأنه يشك في أن النائب الإنجليزي أرسل من جانبه أخبارا أخرى إلى القسطنطينية، على خلاف الاتفاقية الموقعة بين ممثلي القوى العظمى .
- أحد الضباط الهاربين من محمد باشا يؤكد حادث القاهرة.

الإسكندرية: ٤ مايو ١٨٠٣

في تلك اللحظة التي تشير فيها دقات الساعة إلى السادسة مساء، وصلني ساعي بريد سريع من طرف السيد دي روسيتي بالقاهرة، حاملا معه خطاباً مؤرخاً في الأول من الشهر الجاري، وهو ما أرسلت لمعاليكم نسخة طبق الأصل منه، ولا يوجد شيء يمكن إضافته في الوقت الحالي فيما يخص المدينة، غير أنه منذ ثلاثة أيام، تم تسريح جميع الألبان الذين كانوا هنا بعد أن حصلوا على أموالهم. ولم تعد التدابير التي اتخذتها الحكومة تثير أي مجال للقلق، وذلك على الرغم مما حدث في القاهرة من اضطرابات، وأنتهز تلك الفرصة لأحيط سيادتكم علما بهذا الحدث الجديد.

مع خالص تقديري واحترامي ،،

ملحوظة: ألتمس من سيادتكم، إذا رأيتم ذلك في الصالح العام، إعلام السادة الوزراء التابعين لكل من بروسيا وإسبانيا والدانمارك بتسريح الألبان، لأنه ليس لدي الوقت الكافي لأكتب لهم.

* لم يكن عبد الوهاب أو على الأصح الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو الذي يحقق الانتصارات، كما يفهم من السياق، وإنما الذي قام بذلك هم السعوديون في عام ١٨٠٣على عهد أميرهم عبد العزيز . «المراجع»

ملحوظة: وبما أن هذا الحدث له أهمية قصوى ليس فقط بالنسبة لكل الأمم الأوروبية ولكن أيضا بالنسبة للحكومة المحلية، فقد قمت بدعوة جميع ممثلي القوى الأوروبية لاتخاذ الإجراءات الأمنية اللازمة، وللاتفاق على ما يجب القيام به في ظل الظروف الحالية، وكان من بين الأمور التي تم اقتراحها والاتفاق عليها، عدم السماح برحيل سفينتين محملتين بالمحروقات، إحداهما كانت متجهة إلى زميرنه (أزمير)، والأخرى إلى صفاقص Sfax، وكان من المفروض أن يبحرا في الصباح. ولكن، ربما سهواً أو خبثًا لا أعلم، ترك الملتزم الجمركي السفينتين المذكورتين ترحلان، وكان بداخلي شك في أنه قد أرسل إلى القسطنطينية شخصاً عن طريق زميرنه (أزمير) يحمل الخبر، وأن المبعوث الإنجليزي استفاد من ذلك بصفة شخصية، عندما اتفق مع الحكومة على أن ترسل مباشرة سفينة تحمل خطابات إلى جميع ممثلي القوى الأوروبية، وقد جعلني هذا الشك أن أقوم بإرسال هذا الخطاب مرة أخرى عن طريق قبرص.

وعلى الرغم من أن تلك الظروف التي أشرت إليها تتطلب الاتحاد بين القوى الأوروبية جميعها، إلا أنني أعتقد أن ذلك لن يتحقق، ومن ثم فقد تلزمني تعليمات وقواعد للعمل بها في المستقبل. وقد قررت الحكومة إرسال سفينة إلى مارماريس Marmaris في فجر اليوم التالي، ومن هناك سوف ترسل عن طريق البر شخصا موثوقًا به ليحمل ما اتخذته من قرارات. وسوف أسلم هذا الخطاب إلى بيكيس باتروني Bekis Patrone Bey ليقوم بتسليمه إلى معاليكم.

وقد وصل إلى هنا أحد الضباط الفارين من أتباع محمد باشا، الذي أكد أن القوات الألبانية قد تتبعت محمد باشا منذ فراره، كما قاموا بأسر الكيايا بك والدفتردار، حيث أصيب الأخير بجروح.

ونحن ننتظر بفارغ الصبر وصول رسائل أخرى، لنعرف النتائج المأساوية التي يمكن أن تحدث إذا ما اتحد طاهر باشا الأرناؤوطي مع المماليك، الموجودين على مسيرة يومين فقط من القاهرة، وهم يحتفظون بقمح مصر العليا.

فليساعدنا الرب

تورشيكا١٨٠٣، رقم ١٦

٢٩-من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- عقد مجلس كبير في منزل القاضي.
- حديث لطاهر باشا يبين فيه أخطاء محمد باشا الجسيمة .
- طاهر باشا ورجائي أفندي يعدان بإلغاء الضرائب والرسوم التي فرضها محمد باشا .
- تأكيد تعيين رجائي أفندي دفتردارا .
- اختيار محمد علي قائدا لجميع قوات الأرناؤوط.
- البكوات يبعثون بمذكرة لطاهر باشا يوضحون فيها موقفهم .
- أنباء عن هروب محمد باشا .

القاهرة: ٦ مايو ١٨٠٣

عقد اليوم في منزل القاضي مجلس كبير، حضره المشايخ وكبار رجال الدولة (الولاية)، وكذلك رجائي أفندي الدفتردار، وطاهر باشا الذي تم اختياره في هذا المجلس قائمقاما لحين وصول أوامر الباب العالي.

وقد طلب طاهر باشا من القاضي «أعلاما»[1] ليصف الطريقة التي حدث بها التمرد وموقفه منه، مؤكدا أنه لن يقول سوى الحقيقة الكاملة، وتوجه للحاضرين سائلا:

«هل يخفى على أحد، المبالغ الباهظة التي أنفقها محمد باشا لتشييد الأسوار والحصون والأبراج حول قصره؟ أليس واضحًا للجميع أن القوات الألبانية التي تم تسريحها منذ شهرين، لم تحصل على مستحقاتها المتأخرة، وأنها سئمت من الانتظار يوما بعد يوم حتى تحصل عليها؟ وإنني من أجل إطفاء جذوة هذا الغضب ذهبت شخصيًا لمحمد باشا، وطلبت منه أن يهدئ الجنود، وأن يرسل لهم إما الدفتردار أو ضابطين آخرين يعينهما، ويأخذونهما إلى خارج المدينة في بولاق، وبعد أن تدفع لهم مستحقاتهم يعود الضابطان ويتم ترحيل تلك القوات على الفور. غير أن إصرار محمد باشا على عدم دفع تلك المستحقات كان واضحًا للجميع، إذ كان ينوي مواجهتهم بحد السيف، ومعلوم لكم جميعا أنه فتح عليهم النيران وأصدر أوامره للشعب لكي يتسلح من أجل تدميرهم، يالها من مذبحة، ويالها من أضرار ومخاوف. ولحسن الحظ فإن الشعب المقهور من

(١) تحريف للكلمة العربية «إعلام» وهو المصطلح الفني الذي يشير إلى التصريح، أو التقرير الرسمي لأحد المجالس، أو حكم للمحكمة أو ما شابه، وهي جمع لكلمة «علم».

الرسوم والضرائب الباهظة المفروضة عليه، لم يقم بحمل السلاح أو المخاطرة بحياته أو بحياة عائلاته، ولكنه استمع إلى نصائحي بالالتزام بالهدوء، ومن أجل الحفاظ على هذا الهدوء اضطررت لأن أستولى على القلعة، ولكي أساند قضية الأرناؤوط، الذين كانوا سيتعرضون حتما للهلاك لمجرد مطالبتهم بمستحقاتهم» .

وأخذ الكلمة عمر أفندي* (نقيب الأشراف) منددا بالضرائب الجديدة، والالتزامات الضريبية الباهظة التي ترهق الفقراء والمساكين. وبناء على كلمته تقرر رفع الضرائب الجديدة عن كاهل الشعب، وحظي الحاضرون بوعد من طاهر باشا ورجائي أفندي الدفتردار بهذا القرار، وانتهى الأمر بأن تولى رجائي أفندي مهام منصبه.

كما تقرر عزل إبراهيم أفندي، متسلم رشيد، من منصبه بعد أن قدمت ضده العديد من الشكاوى، وهو الشيء الذي كان لابد أن يفعله محمد باشا منذ وقت طويل. كما عين محمد بك أبا علي** قائداً عاماً لجميع قوات الأرناؤوط.

وأرسل جميع البكوات والمماليك، الذين كانوا في مصر العليا، مذكرة إلى طاهر باشا، ولجميع المشايخ يوضحون فيها موقفهم، وليخبروهم بما قام به الصدر الأعظم، والقبطان باشا من حملة عنيفة ضدهم، وكل ما عانوه من جراء ذلك، وقالوا إنهم بسبب عدم وجود المؤونة اضطروا للعيش على النهب، وأنهم طلبوا التصريح لهم بالسيطرة على بهنسا، وما أعلاها، إلى أن تصل أخبار عما استطاع أن يحققه ألفي بك في لندن، ولحين وصول أوامر من السلطان، الذين يقرون بأنهم عبيد له. وهو ما يرجح أنهم سيجابون إلى مطالبهم.

ولقد تم العثور على محمد باشا في طريق دمياط، الذي كان قد سبق وأرسل حريمه إليها، ويعتقد أنه قد عبر النيل وانتقل إلى الرحمانية، وسيكمل رحلته برا إلى الإسكندرية، ولن يظل أمر تحركه سراً لفترة طويلة. وفي أثناء قيام محمد باشا برحلته هذه، قام بتحصيل الضرائب من الدلتا.

---

* عمر أفندي هو نفسه السيد عمر مكرم الذي تصدى للزعامة الشعبية التي اختارت محمد علي واليا على مصر في ١٣ مايو ١٨٠٥. ومن الملاحظ أن العثمانيين اتخذوا من كلمة أفندي المشتقة من الكلمة اليونانية Efendis لقبا لبعض كبار الموظفين، كما كان يطلق على المشايخ المسلمين، وبعض رجال الديانات الأخرى، وأطلق في مصر على كبار المتنفذين كالدفتردار وغيره، كما كان يطلق أيضا على نقيب الأشراف وذلك طبقا لما ذكره الجبرتي : عمر أفندي نقيب الأشراف. «المراجع»

** من المرجح أن المقصود بمحمد أبي علي هو محمد علي نفسه . «المراجع»

ولا أدري ماذا سيسفر عنه هذا التغيير، ولكن كل ما أعرفه هو أنني أود أن يتخذ الباب العالي الإجراءات اللازمة لتجنب حدوث أية اضطرابات أخرى.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ١٦

٣٠- من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- وصول قوافل من مكة تحمل أخباراً خطيرة.
- انتشار عقيدة عبد الوهاب* .
- البكوات يقتربون من القاهرة.
- محمد باشا يفكر في التحصن بالمنصورة.
- الإسكندرية في يد خورشيد باشا، ويانيب Yanib أفندي يمنع رحيل السفن الأوروبية المحملة بالمواد الغذائية.
- الجميع في حالة ضجر، والعديد من الأوروبيين يبتعدون عن القاهرة.

القاهرة: ١٨ مايو ١٨٠٣

وصلت إلى هنا قادمة من مكة قافلة من عشرين جملا، كما وصلت إلى السويس سفينة صغيرة قادمة من جدة، وجميعها ضمن حملة شريف مكة، وتحمل أخباراً تفيد بأن عبد الوهاب** وصل إلى أبواب المدينة الأخيرة، وأنه قد يحتجز قوافل دمشق ومصر، لكي تساعده في الهجوم، ولذا فإن قائد قافلة دمشق، وقائد القافلة المصرية، وشريف باشا بالاتحاد مع شريف مكة قد طلبوا سرعة وصول الإمدادات، والمواد الغذائية مع جميع القادرين على حمل السلاح من أجل الخروج ليتصدوا جميعا لعبد الوهاب.

وتمر دمشق وسوريا بأسرها بحالة من الثورة العارمة، وكل باشا يحارب الآخر، ويقترب عبد الوهاب منها لكي يحارب الجميع. وهو الآن بعد أن استولى على اليمن يتقدم نحو البصرة وبغداد،

* لم يكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب عقيدة أو مذهب جديد، فقد كان هو نفسه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولم تكن دعوته الدينية سوى إحياء للتعاليم الإسلامية الصحيحة. «المراجع»

** لم يكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو الذي وصل إلى أبواب مكة كما يفهم من النص، وإنما المقصود بذلك هم الوهابيون، أو على الأحرى السعوديون الذين اعتنقوا التعاليم السلفية التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب حول منتصف القرن الثامن عشر الميلادي. «المراجع»

ويبدأ مسيرته نحو دمشق. ولا يجد نظامه القائم على تبسيط القانون التركي أية معارضة؛ لأنه مما يناسب الجميع أن لا يدفعوا أي ضرائب سوى ١٠ في الألف في العام على القادرين فقط. وهو يحرم البذخ، ويريد أن يعيش الجميع في بساطة تامة. وقد أثار هذا التيار الشرقي ضيق الباب العالي، كما أثَّر على تجارة أوروبا بأسرها.

وأقام عدد صغير من البكوات والمماليك معسكرًا يقع على بعد ١٢ ساعة سيرا على الأقدام، بين القوات العثمانية الهاربة منهم، وبين العرب. ويذكر أنهم سيهبطون من مصر العليا، ليس بهدف دخولهم القاهرة، ولكن ليظلوا في المناطق المجاورة لها، وبالفعل توجد طليعة من هؤلاء البكوات في ضواحي الجيزة.

توقف محمد باشا الهارب في المنصورة، حيث يقال إنه يفكر في التحصن بها، بطريقة تمنع وجود اتصال بدمياط. وسنعرف قريبا ماذا فعلت القوات التي أرسلها ضد طاهر باشا. أما عن الإسكندرية فقد أصبحت في يد خورشيد باشا، ويانيب أفندي الذي يعمل على منع رحيل السفن الأوروبية المحملة بالمواد الغذائية، زاعماً أنه في ظل تلك الظروف ستكون البلاد بحاجة إليها، وهي حجة ليس الهدف من ورائها إلا إلحاق الضرر بالأوروبيين؛ لأن المحصول الجديد قد جمع، ولا يوجد نقص في المواد الغذائية الضرورية في أنحاء الإسكندرية كافة.

ونظرا لأن الإسكندرية ليست خاضعة لطاهر باشا، لم أستطع أن ألغي أيا من تلك الأوامر، الأمر الذي جعلني أحزن كثيرا لأصحاب المصلحة المساكين. وأتمنى أن ينجح نائب القنصل في أن يرفع عنهم ما يعانون.

ونحن هنا جميعا في حالة من الغضب والضيق بسبب الضرائب الباهظة والاضطراب العام، ويمكن أن أقول إن قرب البكوات هو نوع من أنواع الفرج بالنسبة لهؤلاء التعساء. آه! لو أن هؤلاء البكوات تمت ترضيتهم من البداية! لما تعرضت مصر لهذا الموقف العصيب الذي تمر به، والأسوأ من ذلك هو الخوف في أن يستمر الوضع كما هو عليه في المستقبل، مما يؤدي إلى ابتعاد العديد من الأوروبيين عن هنا، ولا أستطيع أن ألومهم على ذلك، فأنا نفسي كنت سأفعل الشيء نفسه، لو استطعت، بسبب المعاناة المستمرة التي أعيش فيها.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ١٩

٣١- من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- محمد باشا يرسل خطابا إلى دي روسيتي يشكو فيه من ثورة الأرناؤوط، ويهدد بالثأر، كما يحث دي روسيتي على الكتابة للبكوات ليطلب منهم عدم الاتحاد مع أعدائه، وحماية الحمولة القادمة من بومباي.
- المماليك ينتقلون إلى طاهر .
- محمد باشا يبعث بخطاب آخر إلى دي روسيتي.
- طاهر باشا يطلب الخطاب، الذي تسلمه دي روسيتي من محمد باشا .
- القبض على بعض كبار الساسة بعد ضبط مراسلاتهم مع محمد باشا.
- التوبيخ واللوم الذي وجهه طاهر باشا لهؤلاء الكبار.
- طاهر باشا يحكم عليهم بدفع ٢٠٠٠ كيس.
- مصر والشرق بأسره في حالة من الفوضى .

القاهرة: ٢٠ مايو ١٨٠٣

وصل مساء أول أمس مبعوث عاجل من المنصورة، القريبة من دمياط، ويحمل خطابا من محمد باشا الهارب، وفيه يشكو من ثورة قوات الأرناؤوط عليه، بطريقة تؤكد أنه لا يجد لهم عذراً فيما يقومون به، ويقترح الثأر منهم، وحثني على الكتابة إلى البكوات في مصر العليا، ليظلوا حيث هم، ووعدهم بأن أكتب إلى الباب العالي من أجلهم؛ حتى يمنحهم العفو، بشرط ألا يتحدوا مع أعدائه.

كما أكد عليَّ أن أطلب من المفوض الإنجليزي أن يكتب هو الأخر لصالح البكوات في الموضوع نفسه، وسألني عن أخبار المائة وخمسين مملوكا التابعين له، الذين أرسلهم إلى السويس، على حد قوله، من أجلى، لتوفير الحماية لحمولة السفينة القادمة من بومباي، مختتما الخطاب بأنه لن يطلب هؤلاء المماليك إلا مني، وكان الجزء الأكبر منهم عبيدا من الزنوج، الذين بمجرد أن شعروا عند وصولهم إلى الخانكة (Kanki) بالاضطراب الحادث في القاهرة، حتى تركوا القافلة، وتفرقوا في القرى، ثم جاءوا أخيرا إلى القاهرة، حيث استقبلهم طاهر باشا، في الوقت الذي كنت أعتقد فيه أنهم سوف يلحقون بسيدهم.

وفى صباح أمس عاد المبعوث ليأخذ الرد، وبما أن زيارته كانت علنية وانتشرت الأنباء أنني استلمت خطابا من الباشا الهارب، فلم أرغب المجازفة بالرد، وهو ما شعرت بالرضا من أجله، في

حين وصلتني أخبار تفيد أن طاهر باشا أمر بإلقاء القبض على بعض المسئولين الكبار بعد ضبط مراسلات خسرو معهم، وأرسل في طلب مترجمي الأول، وطلب منه أن يعلمني برغبته في رؤية الخطاب الذي بعث به إليّ وأن أرسله إليه. ولم أجد مانعاً في ذلك، حيث قمت بإرساله إليه على الرحب والسعة.

وتم لطاهر باشا القبض على هؤلاء المسئولين الكبار، الذين يقال إنهم كانوا يستعدون للاستيلاء بغتة على القلعة، حتى يقوموا بحراستها لحين عودة محمد باشا الهارب مع قواته، وبالتالي طرد طاهر باشا، وهو الأمر الذي لو حدث، لأدى إلى معاناة السكان المساكين. ولم يسمع بعد أن طاهر باشا قد وبخ أو لام هؤلاء المسئولين الكبار لهذا السبب. وإنما كان التوبيخ الذي وجهه لهم، لأنهم سمحوا بفرض الضرائب بدون أن يعترضوا عليها؛ وأنهم لو كانوا يضعون في قلوبهم ونصب أعينهم أمن وسلامة الشعب لهبوا لنجدته، وتدخلوا لرفع المعاناة عنه؛ غير أنهم لم يفعلوا ذلك. وكان حكم طاهر باشا عليهم بأن يقوموا بتزويد الميري بألفي كيس.

ومازال محمد باشا متواجداً في المنصورة وضواحيها، حيث يقوم بجمع ما يستطيع جمعه من أموال. ويذكر أن طاهر باشا أرسل خلفه عددا من الجنود.

وتمرّ حاليا جميع القرى بحالة من الفوضى؛ حيث يسطو العرب على السفن التي تبحر في النيل، الأمر الذي تسبب في قطع الاتصالات. ومن سوريا حتى البصرة وبغداد، لم يسمع أحد بغير المصائب والكوارث، بسبب غزوات عبد الوهاب*، وهكذا أصبح الشرق لا يطاق.

ومازال البكوات حيث هم في مصر العليا، وهم يطلبون ضرائب الأراضي، وإن كان ذلك بمنتهى الرفق واللين.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ١٦.

٣٢- من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- طاهر باشا يكشر عن أنيابه.
- قسوته ونهبه للأموال.

* لم يكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو القائم بتلك الغزوات كما هو وارد في السياق، وإنما الذي كان يقوم بها السعوديون من أتباع الدعوة الدينية السلفية التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب. «المراجع»

- سخط الإنكشاريين على طاهر باشا لقتله اثنين من قادتهم.
- مذبحة قتل فيها طاهر باشا ورجال بلاطه على يد الإنكشاريين.
- فزع الأرناؤوط.
- الإنكشاريون يلتفون حول أحمد باشا والي مكة، والأرناؤوط حول محمد علي، والأخير يدعو المماليك للمجيء إلى القاهرة، وهم يقبلون الدعوة.
- حكومة أحمد باشا قصيرة الأجل.
- هزيمة الإنكشاريين .
- أفكار دي روسيتي.
- لا أحد يعرف أين يوجد محمد باشا .

القاهرة: ٢٧ مايو ١٨٠٣

تحول طاهر باشا الذي كان يرتدى ثوب القس إلي طاغية قاس، فعندما طرد محمد باشا أعلن للجميع في الديوان العام بأنه سيتولى مهام الحكومة إلى أن يقرر السلطان تنصيب باشا آخر. وفيما يتعلق بهذه الحجة قال له الأمير أحمد، (كيايا أوجياك)(١) الإنكشاريين، ومصطفى كيايا كوجياك العزب Asseb*، إنه إذا كانت نيته خالصة، يجب أن يسلم القلعة إلى الأوجياك **، وهو الأمر الذي رفض تنفيذه، بل والأكثر من ذلك أنه أمر بالقبض على الشخصين المذكورين ومعهما بعض الرجال الآخرين من القلعة، كما أخذ منهما مبلغا من المال. وفى النهاية قام بقطع رأسيهما. كما استدعى كبار رجال الأقباط والشوام وأمرهم بأن يدفعوا في الحال الضرائب والرسوم التي سبق وأن فرضها محمد باشا الهارب، بزيادة عشرين كيسا. وقد نفذوا ما طلب بعد عناء وجهد كبيرين معتقدين أنهم بذلك تخلصوا من الضغوط، ولكنهم خدعوا، وتم القبض عليهم جميعا، وصدر الأمر بقطع رأس شخص يسمى مالاطى Malati، وهو مبعوث قبطي، وشخص آخر يدعى حنا صبحانى Hanna Subhani وطلب من الباقين دفع ٢٠٠٠ كيس إذا ما أرادوا الحفاظ على حياتهم وحتى لا يلقوا المصير نفسه الذي لحق برفاقهم. وبعد جهد مضن أطلق سراحهم بعد أن وعده الأقباط بأنهم سيدفعون ٥٠٠ والشوام ٤٠٠ كيس.

(١) فريق عسكري، وفقا للنظام الذي وضعه سليم الأول لمصر بعد الاحتلال عام ١٥١٧ وأعاد تنظيمه سليمان الثاني، وكانت تلك الفرق سبعة، وتطلق عليها أسماء مختلفة وفقا للمهام الموكلة إليها، وكان قادتهم يشاركون في ديوان الباشا، الذي كان لا يستطيع أن يتخذ أي قرار قبل الحصول على موافقتهم، وكان مخولا لهم أيضا تعليق تنفيذ أوامر الباشا، والرجوع إلى ديوان القسطنطينية لعزله، إذا كان هناك شك في أنه يخدع أو يضر بمصالح السلطان. والكيايا هو نائب القائد، ويقال له أغا.

* أوجاق العزب، أو فيما كان يعرف بأوجاق عزبان. وكان جنود هذا الأوجاق من المشاة الذين كانوا يكلفون بالعديد من المهام ومن بينها حراسة القلعة باعتبارها مركز الحكم في ذلك الوقت. «المراجع»

** الأوجياك ، وصحته الأوجاق. «المراجع»

وكان قتل طاهر باشا للضابطين الإنكشاريين بمثابة الشرارة التي جعلت فريق الإنكشاريين في حالة من الغليان والثورة قرروا بعدها قتل الطاغية. وأمس الأول أعلن مالاطيا أوغلو، بنباشي الإنكشاريين، بأنه مفوض من قبل قواته للحصول على مستحقاتهم، وقام بإدخال جنوده إلى قصر الباشا، وعندما وجد نفسه محميا حماية جيدة، تقدم ليطلب من طاهر باشا بمنتهى القوة والحزم أموال جنوده. ولكن طاهر باشا، بعد أن رأى نحو ثلاثين رجلا فقط، أمره أن يكف عن الوقاحة، وعندها استل خنجره وقتل الباشا. وانقض الإنكشاريون على حاشيته فذبحوا منهم حوالي عشرين رجلا. ونتيجة لما حدث أصيب الأرناؤوط بحالة من الفزع والاضطراب، في حين التف الإنكشاريون حول أحمد باشا، حاكم دمياط الأسبق، ثم باشا مكة والمدينة. وتظاهر الأرناؤوط بالخضوع والاستسلام، وبدأ أحمد باشا في اتخاذ الإجراءات اللازمة للحكم. وفي المساء اجتمع الأرناؤوط تحت قيادة محمد علي، قائدهم، وطلبوا من بكوات المماليك المجيء ليتولوا حكم البلاد، وطرد أحمد باشا وجميع الإنكشاريين. وبالفعل قبل البكوات الدعوة. وكانت القلعة آنذاك تحت سيطرة الأرناؤوط، ومع أول طلقة مدفعية سمعوها، اختفى الإنكشاريون تماما، وظل أحمد باشا مع مائة أو مائتين من الرجال على أقصى تقدير، ولكن مع أول أمر وصله من محمد علي يأمره بضرورة الخروج من القلعة، رحل بالأمس في تمام الخامسة بعد منتصف النهار. وقام الأرناؤوط بنهب منزل الباشا، ومنازل الإنكشاريين. ودخل العديد من المماليك المدينة ليدعون باسم إبراهيم بك، ومحمد على. وتعيش البلاد حاليا في حالة من الاضطراب والفزع خوفا من أن يتم سلب ونهب ما بها.

وكان أحمد باشا قد سبق له أن طمأنني مؤكدا أنه لن يمسني سوء أنا أو أي أحد من سكان الحي الذي أقطنه. والرسالة نفسها أرسلها لي أيضا محمد أبو علي بعد ذلك.

وصدر الأمر بقطع رأس كل من يوسف بك قائد قوات محمد باشا الهارب، ورجائي أفندي الدفتردار. والأول كان قائد الجيش الذي أرسله محمد علي ضد البكوات عندما كانوا في البحيرة، وهو الذي رفض من أجل أغراض وأهداف خبيثة الهدنة التي طلبها البكوات لحين تنظيم وضعهم من جديد، وقام بالهجوم عليهم دون أن يحقق أي نجاح ومني بالهزيمة. والثاني كان هو السبب في الاضطراب الذي حدث في القاهرة منذ بداية وصوله إلى مصر.

وتحصن أحمد باشا المطرود داخل حصن صغير يسمى بيبرس[1]، يبعد قليلا عن مدينة القاهرة، وكان معه حوالي مائتي رجل، ولكن الألبان حاصروه.

---

(١) جامع الظاهر(والنطق العربي بالقاهرة هو الضاهر)، بناه السلطان بيبرس الأول (١٢٦٠– ١٢٧٧)، وأعاد الفرنسيون تحصينه وأطلقوا عليه حصن Shulkousky .

ولا يزال البكوات في الجيزة، ولا أحد يعرف كيف ستنتهي تلك المأساة. فلو لم تقم الحكومة بتهدئة الأمور، فلن يستطيع أحد العيش في مصر. ولو أن البكوات كانت قد تمت ترضيتهم، لما كان هناك ما نخشاه، ولو استمر الباب العالي في عدم الاستجابة لهم، فسوف تتعرض البلاد لدمار شامل لا يمكن إصلاحه، وسيترتب عليه خسارة فادحة لتجارة الأوروبيين بوجه عام. وأتمنى الخروج من تلك الأزمة بهدوء.

ويذكر أن القوات التي كانت قد أُرسلت خلف محمد باشا عادت دون أن تستطيع اللحاق به، ولا أحد يعرف أين هو. فالبعض يقول: إنه ذهب إلى دمياط ومعه حوالي عشرين شخصا، ولكن أين هي الحقيقة؟ لا نعرف، لأنه لم تصل خطابات من دمياط.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ١٩

٣٣- من جودار إلى ستورمر

موجز

- وصول خبر رسمي عن مقتل طاهر باشا، واستدعاء محمد باشا ليتولى حكومة مصر.

الإسكندرية: ٢٨ مايو ١٨٠٣

في تلك اللحظة التي أكتب فيها إليكم وصل إلى خورشيد باشا* خبر رسمي سعيد من القاهرة، يفيد أن طاهر باشا قد قتل، وأن الأوضاع عادت إلى ما كانت عليه من قبل، وعلى الفور تم استدعاء محمد باشا من دمياط، التي فر إليها ليتولى حكم عاصمة مصر. ولا أستطيع أن أستطرد في الحديث أكثر من ذلك، لأن التتاري الذي أرسلته الحكومة أوشك على الرحيل.

مع خالص تقديري واحترامي ،،

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ١٥

* أحمد باشا خورشيد الذي كان حاكما على الإسكندرية ثم صار بعد ذلك واليا على مصر. «المراجع»

٣٤- من جودار إلى ستورمر

موجز

- الإسكندرية هادئة.
- لا يبدو أن الأمور ستهدأ في القاهرة .
- حكومة خورشيد باشا .
- وصول ليسبس Lesscpes ودروفيتي Drovetti.

الإسكندرية : ٣٠ مايو ١٨٠٣

حتى هذه اللحظة، نحن هادئون ومطمئنون في هذه المدينة، ولكننا في انتظار ما ستسفر عنه الأحوال في القاهرة التي يعتقد الجميع أنها لن تهدأ بسهولة. ويبدو أن البكوات سيأخذون موقف المراقبين دون التحيز لأي حزب. ودائما يتخذ خورشيد باشا الماهر كافة الإجراءات اللازمة للحفاظ على النظام، وهو ما يجعلني في حالة ترقب دائمة، وإلى تقليل العديد من مشاغلي بسبب ضيق الوقت.

وصل بالأمس من طولون بعد رحلة استمرت خمسة عشر يوماً إبريق فرنسي يحمل على متنه مبعوثين، أحدهما هو السيد ليسبس Lesseps [١]، المبعوث العام بالقاهرة، والآخر هو السيد دروفيتي Drovetti [٢]، نائب المبعوث بالإسكندرية، وكان برفقتهما تسعة أفراد من أتباعهما بين سكرتارية وخدم، وعندما لم يجدا في الإسكندرية المترجمين وغيرهم الذين كان مقررا مجيؤهم من القسطنطينية، نزلوا بصفتهم الشخصية، بدون الإعلان الرسمي عن مجيئهما.

تورشيكا ١٨٠٣ رقم ١٩

---

(١) ماتيو دى ليسيبس(١٧٧٤- ١٨٣٢) وهو والد فرديناند دي ليسيبس. ومن أجل معرفة المزيد من المعلومات عن سيرته الذاتية وأعماله في مصر ، ارجع إلى كتاب دوان المذكور سابقا.

(٢) ورد ذكره في مقدمة الكتاب.

٣٥ـ من دى روسيتي إلى ستورمر

موجز

- استسلام أحمد باشا، المحاصر من الألبان في حصن بيبرس.
- حكم بالموت على قتلة طاهر باشا .
- تسليم أحمد باشا إلى البكوات .
- مطاردة الإنكشاريين.
- جماعة البكوات تختار الحكام الجدد.
- يتشاور الحكام يوميا مع محمد علي في الشئون المختلفة.
- لم يعرف إلى متى سيستمر الاتفاق بين الأرناؤوط و المماليك.
- زيارة بعض البكوات لدي روسيتي.
- المصلحة الحقيقية للباب العالي تكون في التصالح مع البكوات.

لحق بأحمد باشا، الذي لجأ إلى حصن بيبرس حوالي مائتي شخص من الإنكشاريين، وثمانمائة آخرون. حيث حاصرهم الألبان، الذين أعلنوا وقف الحصار بشرط أن يسلموا لهم أحمد باشا، وقتلة طاهر باشا. وقد طلب أحمد باشا أن يتم تسليمه إلى بكوات المماليك، وهو ما أجيب إليه حيث ظل لديهم رهن الاعتقال، كما طالب الألبان بإعدام قتلة طاهر باشا وأجيبوا إلى طلبهم.وتم ترحيل الإنكشاريين الموجودين في الحصن مجردين من السلاح إلى صحراء سوريا تحت الحراسة حتى قطية * Kattie. ولم يكن الألبان سعداء بإعدام قتلة طاهر باشا، وإنما كانوا يودون المصير نفسه لأحمد باشا، ولكن البكوات بذلوا قصارى جهدهم لإنقاذه.

وقد أعلن باسم البكوات، وباسم محمد علي أن كل الذين لم يتم تجنيدهم يجب عليهم أن يقدموا أنفسهم في غضون ثلاثة أيام، ومن يعثر عليه في المدينة سوف يعدم. وقد انسحب العديد من الإنكشاريين إلى بيوت مختلفة بأسلحتهم عازمين على عدم الخروج منها، الأمر الذي سيؤدي إلى مشاكل جديدة.

ومن جانب جماعة البكوات المرابطين في الجيزة، كان منهم من يحكم، وهم إبراهيم بك، وعثمان بك البرديسى، ونائب محمد بك الألفي، إذ كان الألفي قد سافر مع الإنجليز، ووضع

---

* قطية: بلدة صغيرة تقع فى الطريق إلى العريش. «المراجع»

البكوات في المدينة كلاً من الأمير سليم، الأغا السابق للإنكشاريين، واليا[١]، والمحتسب[٢]، والمسئول عن الإمدادات لجماعة المماليك. أما الكيايا، ووزراء البكوات الثلاثة المذكورين، فهم يأتون كل يوم عند محمد علي ليتشاوروا معه في مختلف الشئون، وفى المساء يعودون إلى الجيزة حيث يعسكرون.

لم يعرف بعد مدى استمرارية اتحاد الأرناؤوط مع المماليك، الأمر الذي يبعث على الخوف من استمرار المتاعب التي قد تزداد بلا ضابط ولا رابط، فيما لو وصل قبطان باشا مع قواته إلى الإسكندرية. لأنه لو كانت قواته متفوقة على قدرات البكوات فقد يتجهون إلى النجاة بأنفسهم باللجوء إلى مصر العليا، وقد ينتهي الأمر بالجنود العثمانيين إلى تدمير العاصمة، بنفس درجة تدميرهم لكل أقاليم مصر السفلى التي هي في أسوأ حال بالفعل.

وإذا كان الباب العالي يرغب حقًا في معرفة مصلحته الحقيقية، فيكون ذلك بتصالحه مع البكوات وتهدئتهم كما كنت أنصح دائما، وإلا فسوف يضحي الباب العالي برعيته، وسيجعل مصر عسيرة على الأوروبيين بفقدانهم لتجارتهم.

أتمنى أن تنجح عظمتك في تعريف الباب العالي بهذه الأمور، و أن مصالحه ليست منفصلة إطلاقا عن تجارتنا.

جاءني أول من وصل من طرف بكوات المماليك يحملون لي تحياتهم. وقد أرسلت المترجمين لتهنئتهم، وأظهروا جميعًا رغبة شديدة لرؤيتي، ولأجل ذلك أفكر في زيارتهم هذا الأسبوع. وقد سبقني في زيارتهم السيد ميسيه، المندوب الإنجليزي المقيم، فاستقبلوه بفرحه بالغة واحترام زائد.

وكان يقال إن محمد باشا ربما يكون قد مر بدمياط وهو في طريقه إلى الإسكندرية، والآن يقال إنه قد عاد إلى المنصورة، حيث يتحصن فيها، و من الصعب معرفة الخبر اليقين لأن محمد باشا منع الاتصال بدمياط.

لو أن كل الممثلين الأوروبيين المتميزين يتحدون فيما بينهم لإيقاف كوارث هذا البلد، فإنهم بذلك سوف يقدمون خدمة كبيرة للباب العالي وإلى تجارة شعوبهم، بل وإلى الإنسانية عامة.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ١٩

(١) سوباشى هو اسم تركي ، ووالى اسم عربي لرئيس الشرطة.

(٢) يذكر دي روسيتي في النص المحتسب بكسر الميم ويرى أنه النطق العامي للمحتسب بضم الميم، ويشرحه طبقا لما جاء بالنص بأنه مفتش السوق ومراقب الأوزان والمكاييل.

٣٦ - من دى روسيتى إلى ستورمر

موجز

- الاتفاق بين الألبان والمماليك يستمر و تسليم القلعة إلى المماليك.
- أخبار حول محمد باشا، و أخبار أخرى حول شئون مكة.
- تقرير سيبستياني لا يتفق مع الواقع.
- التقرير غير صحيح فيما يتعلق بدي روسيتى والجنرال ستيوارت.
- وصول قافلة الحجيج .
- يقال إن دمياط تم الاستيلاء عليها.
- نائب القنصل الإنجليزي يأمر بوضع ضريبة عالية على تجارة العصفر.
- احتجاجات شديدة من دى روسيتى لدى كل من القنصل الإنجليزي و إبراهيم بك.
- إذا لم تلغ الضريبة فقد تنشأ نتائج خطيرة على مصالح الأوروبيين .
- عدم اهتمام ذكي من دى روسيتى.

ملحوظة: تقرير حول هزيمة محمد باشا وسقوط دمياط ونهبها من جانب عثمان بك.

القاهرة: ٧ يوليو ١٨٠٣

خطابي الأخير بتاريخ ٣١ الشهر الماضي.

اعتدل الألبان قليلا في كراهيتهم لأحمد باشا؛ نظرا لأنه مستمر في البقاء لدى البكوات وحين ذهب زعماء الألبان لزيارتهم، استقبلوهم استقبالا حسنا، وأجزلت لهم الهدايا. واتفقوا معهم على تسليم القلعة وتم ذلك أمس بالفعل، وبدأنا نرى قليلا من النظام والأمن.

حاول محمد باشا جاهدا العودة إلى منطقة نفوذه بناء على الدعوة التي تلقاها من أحمد باشا في دمياط، ولكنه بعد أن عرف بوصول البكوات، غيّر اتجاه سيره نحو الشرقية عند القرين على طريق بلبيس، حيث يقال إنها كانت محاطة بالجنود الذين أرسلهم طاهر باشا للحاق به. ومن خلال المجرى الذي اتخذته الأحداث لم يكن واضحا أنه سوف يستطيع العودة إلى القاهرة.

وسيعتمد الهدوء في مصر على الإجراءات التي سيتخذها الباب العالي، فمن أجل مصر المسكينة ومن أجل تجارة الأوروبيين، وأيضا لمصلحة الباب العالي نفسه، لابد من التصالح مع بكوات المماليك، وخاصة أمام تقدم عبد الوهاب (السعوديين)، والخلافات التي دبت بين الشرفاء، بعد فرار كل من شريف مكة، وشريف باشا إلى جدة، عقب استيلاء عبد الوهاب * على مكة.

* لم يكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو الذى استولى على مكة، كما هو وارد في السياق، وإنما كان السعوديون من أتباع الدعوة الدينية السلفية التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب هم الذين استولوا عليها . « المراجع»

أدى تغيير الحكومة إلى اختفاء عروض العصفر، وملح الأمونيا، اللذين كان رجائي أفندي الدفتردار يريد إدخالهما.

وصل إبريق * من مدينة طولون إلى الإسكندرية بعد رحلة استغرقت سبعة عشر يوماً مع مندوب عام إلى القاهرة ومندوب آخر إلى الإسكندرية، وهما ينتظران الوثائق لتعريف الحكومة بهما، وفي دمياط، تأكد قرار اعتماد الكولونيل سيبستياني بناء على اقتراحي؛ وهو الذي لا يتفق تقريره الذي طالعته في الوثائق العامة مع خطابه الذي كتبه لي، ولا مع اتفاقه معي ولا مع الترحيبات والتشريفات المعتادة التي حظي بها[١]، ولا مع الخدمات التي قدمتها إلى العديد من الفرنسيين قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر وبعد مغادرتها، ولو كان السيد الكولونيل المذكور يتخيل أن تقريره قد يصل إلى مصر، فأعتقد أنه كان سيعطيه صياغة مختلفة[٢].

لقد تعجبت من كل ما وجه إليَّ من انتقادات وتعجبت أكثر مما وجهه لي أيضا الجنرال الموقر ستيوارت، فهو شخص معروف بالنبل والأمانة.

استولى عبد الوهاب (الأمير عبد العزيز) على مكة والمدينة، وكان من الممكن أن يستولي أيضا على جدة، حيث انسحب منها كل من شريف مكة، وشريف باشا، ولكن ما ورد من أخبار أخيرة أكدت أن شريف باشا كان مدعماً في جدة، وأن جنود عبد الوهاب (الأمير عبد العزيز)لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها.

دخل موكب الحجاج إلى مكة بنجاح مع الأمير** ولم يتحرش بهم عبد الوهاب (الأمير عبد العزيز) مطلقا، بل إنه أعطى أوامر شديدة الصرامة لكل العرب كي يحترموا الموكب.

ويقال إن عثمان بك البرديسي الذي سافر مع جيشه؛ ليستولي على دمياط، حيث يتحصن محمد باشا، قد دخل المدينة، واستسلم له محمد باشا.

وفي دمياط كانت ترسو خمس سفن؛ لكي تحمل محمد باشا إلى سالونيك Salonico، كذلك تم الاستيلاء على رشيد التي ذهبت إليها فرقة أخرى، وسنرى ماذا سيكون مصير الإسكندرية؟

---

* نوع من السفن . «المراجع»

(١) مذكرة ١.

(٢)حول تقرير سيبستيانى وتأثيرات إصداره راجع: محمد شفيق غربال ، بدايات القضية المصرية، و نهضة محمد على he The Bigingings of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali ، لندن، ١٩٢٨، صفحات ١٧٨ -١٨١ ، ١٨٨، ٣٠١ - ٣٠٨ .

** المقصود بالأمير فيما يرجح هو أمير الحج . «المراجع»

وصلت إلى الإسكندرية سفينة حربية فرنسية ومعها خبر رسمي سيء، وهو أن إنجلترا أعلنت الحرب على فرنسا في ١٦ مايو. ويقال إن مندوب إنجلترا الذي وصل إلى الإسكندرية منذ وقت بعيد، أصبح الآن في طريقه إلى القاهرة.

المندوب الإنجليزي المقيم، المعين من جانب الجنرال ستيوارت، يتخذ كل الإجراءات اللازمة لتمرير خبر الحرب (بين إنجلترا وفرنسا)إلى الهند. أرجو من عظمتك أن تخبرني بالسلوك الذي يجب اتباعه مع ممثلي الدولتين المتحاربتين.

هناك شخص يدعي بيتروتشى Petrucci المالطي، كان قد جاء من مالطة مع الفرنسيين الذين غزوا مصر، وبعد خدمته للجيش الفرنسي كوكيل لهم في إقليم أسيوط، وبعد مغادرة الجيش الفرنسي، أقام في رشيد حيث بدأ في مزاولة التجارة، وقد عينه المندوب الإنجليزي المقيم السيد ميسيه نائبا للقنصل الإنجليزي، وبموجب هذه الوظيفة اتحد مع مترجم السيد ميسيه، وكان ينفذ الخدمات التي كانت إنجلترا تقدمها لبكوات المماليك، ودبر الأمر معه لكي يحصلا على امتياز صنف العصفر، والذي ذكرت في خطاباتي السابقة لمعاليكم المشاكل الكبرى التي عانيت منها من أجل إعفاء الأوروبيين من ضريبة الخمس باتاكي [1] للقنطار، التي خضع لها الصنف المذكور في العام الماضي، وما إن عرفت بما تم اتخاذه حتى تحدثت مع المندوب الإنجليزي، وأشعرته بمدى فظاعة أن يقوم كل من نائب القنصل والمترجم بالحصول على امتياز قد يضيّع على شعبيهما، وكل الشعوب الأخرى الامتيازات التي تكلفت الكثير من الجهود للحصول عليها؛ وقد أظهر تفهما لهذا الأمر شديد الأهمية، ووعد أن يصدر تعليماته بمنعهما عن ذلك.

وحين زارني الوكيل الذي أرسله نائب القنصل الإنجليزي بدمياط الذي يعمل مع مترجم المندوب الإنجليزي، تحدثت معه عن مدى فظاعة أن مسئولا معيناً لحفظ امتيازات الدولة التي يخدمها يعمل لتدميرها، بل وتدمير امتيازات الشعوب الأخرى، وقد أثرت عليه كلماتي أيما تأثير، مما جعله يؤكد لي أنه سوف يهتم بهذا الموضوع. ولم أكد أصدق بعد ذلك أن أرى خطاباً من إبراهيم بك يقول لي فيه إنه تنازل عن صنف العصفر إلى نائب القنصل الإنجليزي السيد بيتروشي، وكان نائبه هو السيد ريجو Riggo، مترجم السيد ميسيه، المندوب الإنجليزي، وأمر آخر لرئيس نظار إبراهيم بك، ويدعى جورج جوهرى، موجه إلى مدير جمارك بولاق، يأمره بعدم السماح

(١) تحريف للتعبير العربي «أبو طاقة» الذى يحتوى على طاقة، و نافذة نظراً للتشابه الكبير بين الدرع المطبوع على تاليرى ذلك العصر، والذى كان يشبه فى عيون المصريين المشربية التى كانوا يستخدمونها فى نوافذ منازلهم.

لأي من كان بشحن حمولة عصفر بدون تصريح من السيد ميسيه، المندوب الإنجليزي. الأوامر السابقة كانت مؤقتة وبالتالي فقد حذف منها التكليف الرسمي الذي يجبر نائب القنصل الإنجليزي على دفع عشرة باتاكى لقنطار العصفر الذي يستخرجه من خلال الامتياز الذي يتيح له هو وحده أن يشتري العصفر. وقد أوقف المترجم الإنجليزي كل العصفر دون تمييز، والذي كان قد تم شراؤه قبل هذه الفوضى، ومن أراد شحنه وجب عليه دفع إحدى عشر وثلث باتاكى للقنطار ضريبة جديدة، وكانت تلك الضريبة تساوي تقريبا قيمة العصفر نفسه. وقد طلبت من كل الأوروبيين الذي لا يخضعون للحماية الإنجليزية أن يمتنعوا عن شراء العصفر، حتى أتمكن من تخليص هذا الصنف من ذلك العبء الجسيم.

وقد اعترض المسئولون الأوروبيون لدى الحكومة المحلية على دفع ضريبة من هذا النوع، ويجب علينا أن ننتظر لنرى ما سوف يتخذ من قرارات تقضي بأن ندفع ضريبة تساوي قيمة البضاعة نفسها. وقدمت شكوى بذلك إلى إبراهيم بك الذي أكد لي أنه لم يقم بهذه البدعة ولكنه المندوب الإنجليزي، وتعهد باستثناء ألف قنطار من دفع الضريبة متنازلا عن مكسب قدره ٢٥,٥٠٠ قرش، وقد شكرته على ذلك قائلا له: إنني لا أبيع امتيازات الأوروبيين، ولا حتى بالملايين. ولا يزال الأمر محل خلاف؛ وعلاجه إن لم يأت من جانب إبراهيم بك فيمكن أن يأتي من الباب العالي، أو من جانب الوزير الإنجليزي، الذي يجب أن يشعر بالمهانة، لأن ممثليه قد عجلوا في جلب الضرر على تجارتهم، بل وعلى تجارة كل الدول الأوروبية.

ولي الشرف أن أكون ......إلخ.

ملحوظة: وصلني تقرير عن استيلاء عثمان بك البرديسي على دمياط، التي كانت محصنة تحصيناً جيداً، وكان محمد باشا على رأس كثرة من الجنود لحمايتها، ولذا لم يكن يعتقد أن عدداً قليلا من المماليك يستطيعون الاستيلاء عليها؛ ولكن الذي حدث هو أن عثمان بك وجنوده ألقوا بأنفسهم في ترعة واسعة، وعبروها، بمدافعهم، واقتحموا الخندق، وقاموا بمذبحة للجنود وفى أيديهم خناجر أيضا. وكمن محمد باشا في مكان ظل فيه لمدة يومين، وبعد ذلك استسلم في هدوء، بعد أن منحه عثمان بك الأمان ووضعه في خيمة قريبة منه كأسير حرب، مع أعوانه جميعا. وقتل نسيم أغا الكاتب، والأغاوات المختصون بالجمارك. وعند دخول عثمان بك إلى دمياط أنجز عملاً طيباً بإرسال السلحدار إلى منزل الوكيل القيصري والملكي، لكي يضمن له منزله من السلب الجاري

في المدينة من جانب الجنود ومن جانب الفرسان، و قام على قدر ما استطاع به من جهود لإيقاف تلك الحوادث. أما عن إبراهيم بك فقد أعلن نفسه قائداً، وبهذه الصفة أرسل موسيقاه إلى القنصلية.

لو سمع محمد باشا كلامي لم يكن ليصل به الحال إلى هذا الحد.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ٢١.

٣٧ - من جودار إلى ستورمر

موجز

- إعادة إرسال رسالة دي روسيتي.
- تم الاستيلاء على دمياط بعد مذبحة كبيرة، وعلى رشيد بدون مذبحة.
- وصول علي باشا(الجزايرلي).
- تم إخلاء رشيد من المماليك واحتلها الأتراك.
- لم يستطيعوا تقدير الأسباب الحقيقية لما حدث .
- المنافسة تزداد سفورا وفضائح بين الوزير الأعظم والقبطان باشا.
- نتائج مؤسفة سوف تترتب على هذه المنافسة .
- وضع مؤلم لمصر.
- استيلاء عبد الوهاب* على جدة أيضا.

الإسكندرية: ٢٥ يوليه ١٨٠٣

لي الشرف أن أرفع إليكم تقريري الملحق بالنسخة المرفقة، وأن أرفق بها أيضا الرسالة المسجلة للسيد المبجل دى روسيتي، وأيضا نسخة الخطاب المكتوب لي بتاريخ ٢٢ يونيو.

تم الاستيلاء على دمياط أخيراً بمذبحة كبيرة، وسلب لكل البلد، وظل محمد باشا أسيراً، ويقال إنه ربما يكون قد جن. كما تم الاستيلاء على رشيد بالمثل، ولكنها كمكان مفتوح فقد حدثت بها مقاومة شديدة لمدة ساعتين، لم ينتج عنها سوى وقوع أضرار بثلاثة أو أربعة بيوت فقط.

* المقصود بعبد الوهاب كما سبق أن أوضحنا الأمير عبد العزيز السعودي . « المراجع»

في الثامن من الشهر الجاري وصل علي باشا[1] بعد رحلة استغرقت خمسة عشر يوما مع حوالي ألف رجل، ويعتقد أنه مزود بتفويض كامل. لكنه إذا كان يرغب في استخدامه بصرامة شديدة لمصلحة الباب العالي، فمن المفترض أن يجد صعوبات كثيرة مثل تلك التي نشأت قبل نزع الأسلحة الإنجليزية، وبالنظر إلى قوة البكوات الحالية سنرى ما سوف يحدث للإسكندريين الفقراء، الذين يعانون بالفعل من سوء التموين ومن المياه المالحة التي تسبب الأمراض.

في اليوم الثاني عشر من الشهر الجاري تم إخلاء رشيد من الجنود المماليك واستردت القوات التركية التي كانت داخل حصن صغير السيطرة عليها بعد أن ارتكب جنودها كثيرا من عمليات السلب والنهب للسكان المحليين.

تمت مراعاة الجماعات الإفرنجية على قدر المستطاع. ونجهل تماما السبب الحقيقي لهذا الإخلاء والذي يرجع إلى تأثير المفاوضات مع علي باشا، أو الإشاعات المنتشرة في رشيد من أن علي باشا كانت برفقته قوات كبيرة، الأمر الذي أدى بالجنود المماليك إلى أن يعسكروا في قرية الرحمانية التي تبعد عن رشيد بمسيرة يوم واحد؛ ويقول آخرون: إن هذا الانسحاب يمكن أن يكون بهدف التجمع مع الجنود الذين كانوا موجودين في دمياط، لأجل الزحف بعد ذلك إلى الإسكندرية، كمدينة أكثر تحصينا، ونتيجة لذلك فإنها من الممكن أن تعاني أكثر من المدن الأخرى (ليحفظنا الله).

سافر علي بك شقيق علي باشا إلى رشيد مساء أمس، مع مائتي رجل ليغير حامية رشيد، كما تم تغيير حامية الإسكندرية، بترحيل كل الذين كانوا مرتبطين بمحمد باشا الأسير.

أما الأمر الذي يجعل الموقف حرجا جدا، أمام الدول والشعوب، فهو الشقاق بين الصدر الأعظم وقبطان باشا وما سوف يؤدي إليه هذا الشقاق من تمرد الجنود غير المنضبطين بصورة كبيرة، ويجعل النفور بينهما أكثر خطورة على السكان الأبرياء الفقراء. ومن المتوقع أن تكون الفوضى على وشك الحدوث بين الكبار عند وصول عليْ باشا، وخاصة بوجود أوامر يقال إنها صدرت من قبطان باشا بعدم استقباله، لولا ذكاء خورشيد باشا المبهر (رغم أنه صنيعة القبطان) الذي فكر في خير الدولة تفضيلا على رأي الوزراء الأوائل الذين يتصفون بعدم الذكاء. كل هذا يجعل من مجيء قبطان باشا شيئا مخيفا، ذلك أن العلاج ربما يكون أسوأ من المرض نفسه. ولأجل هذا تستطيع عظمتك أن تستدل على ما يمكن أن يكون عليه وضع مصر، وبصورة خاصة

(١) علي باشا الجزايرلي، يعني من الجزائر.

وضعنا الذي ساء من جوانب كثيرة، وكل جانب أسوأ من غيره، ومن اضطرابات كثيرة في التجارة سواء برا أو بحرا تؤدي إليها بالضرورة مثل هذه الاضطرابات، وكل هذا يعتبر انعكاسا لوضع الدولة التي لا تجد في أية حكومة ذلك النشاط وتلك الفطنة وذلك التنظيم المناسب جدا. ومع كل هذا تمضي الأمور إلى الأمام حتى الآن بدون تأثر؛ وهو الأمر الذي تساهم فيه بجهد ليس بقليل الهيئات الأوروبية، من أجل إعطاء القدوة الحسنة ليس إلا.

وبين لحظة وأخرى ينتظر وصول الرد من إبراهيم بك من القاهرة على فخامة علي باشا، ولن أكون ذا فاعلية دون حصولي على خطاب من السيد المبجل دي روسيتي، الذي سيمكنني من استخلاص أي مجرى سوف تأخذه تلك الشئون البالغة الدقة.

يمضى المصلح الجديد عبد الوهاب (الأمير عبد العزيز) للأمام، ويقال: إنه سيطر على جدة أيضا*، حيث هرب منها كل المفاوضين، منهم من هرب إلى مصر، ومنهم من هرب إلى الهند. ووصل ابن شريف مكة إلى القاهرة منذ أربعة أيام؛ وهذا الأمر ليس شيئا نابعا من الموقف المصري، والإجراءات التي يتخذها الباب العالي تبدو بطيئة جدا أو على الأقل لا تناظر فداحة الموقف. وكنا مطمئنين من الخطابات الأخيرة التي وصلت من القاهرة في يومي ١٥و ١٩ والتي ورد بها أن المصلح عبد الوهاب (الأمير عبد العزيز) انسحب خاسرا عقب هزيمته في جدة.

وتعيش مصر السفلى في فوضى كبيرة؛ نظرا لأن الجنود المماليك يعودون مرة أخرى إلى رشيد في أعداد كبيرة، والسكان، على غرار ما جرى في دمياط، يهربون فرارا من هذه الكارثة، بما فيهم الأوروبيون، منهم من يهرب إلى القاهرة، ومنهم من يهرب إلى الإسكندرية؛ والفوضى في كل مكان، ويتحتم علينا انتظارهم على الأقل بعد رشيد، بينما يبدو أن المفاوضات لا تزال غير قابلة للوصول إلى نتيجة إيجابية بسبب الغطرسة التركية والقوة المملوكية، لذلك يبدو وضعنا مؤلما للغاية.

---

* هناك خلط واضح وخطأ فادح من كاتب هذه الرسالة بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير عبد العزيز؛ فالذي يقال أنه سيطر على جدة هو الأمير عبد العزيز وليس الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي لم يكن على قيد الحياة وقتذاك كما أنه لم يكن محاربا بطبعه وإنما كان صاحب دعوة دينية. «المراجع»

٣٨ - من جودار الى ستورمر

موجز

- استسلام رشيد للمماليك.
- محاولة للصلح بين علي باشا والبكوات.
- احتمال ضئيل لنجاحها .
- الطائفتان، طائفة محمد باشا، وطائفة علي باشا، يسببان فوضى كبيرة.
- ملحوظة: وصول القنصل الأسباني .

الإسكندرية: ٢٩ يوليو ١٨٠٣

تم الاستيلاء على رشيد أمس دون طلقة مدفع واحدة، فمع إنذار المماليك الأول تراجع جنود علي باشا، بقيادة أخيه علي بك، داخل الحصن حيث كان لا يمكنهم الصمود كثيرا.

على الفور سافر مصطفى بك، ابن علي باشا من الإسكندرية، مع السيد برجس، من طرف القنصل الإنجليزي، ليحاولا الإصلاح، ومعهما تفويض كامل، وطبقا لما كتبه لي السيد المبجل دى روسيتي من القاهرة يبدو أن عثمان بك البرديسي، رئيس قوات المماليك وقائدها، قد فوض من جانب إبراهيم بك القائد العام في القاهرة لإجراء المصالحة بين علي باشا والمماليك، ليوفقهم الله، ولكنى أخشى من ذلك كثيرا لأن الأمر، مهمًا كان واضحا، لا يمثل ضرورة قصوى على الأقل بالنسبة لعلي باشا، خاصة وأن الخداع هو هدف الطرفين، ولكنه هدف أقوى عند العثمانيين. الطائفتان هما : محمد باشا في القاهرة (بالرغم من كونه أسيرًا)، من طرف قبطان باشا المستقطب من جانب الفرنسيين، والطائفة الأخرى من طرف علي باشا في الإسكندرية المحرض من جانب الإنجليز، ويتسبب الفريقان في اضطراب وفوضى، حتى أننا منذ عودة المفاوضين لم نلمس أي نوع من الأمان، إلا إذا لم يجنِ علي باشا شيئا من استمرار القتال، وهو الأمر الذي يضع هذه المدينة البائسة في محنة قاسية.

لم يتقرر بعد مغادرة السفينة التجارية، ولهذا فإنني أستغل طريق زميرنة (أزمير) لتوصيل خطاباتي وإرسالية السيد المبجل دى روسيتي إلى معاليكم.

ملحوظة: وصل بعد رحلة استغرقت تسعة عشر يومًا قادمًا من ماهون Mahon_Maone القنصل العام الأسباني في مصر وسوريا، السيد جوزيبي كامبو ي سولير Giuseppe Campo y Soler، ولم يحصل حتى الآن على فرمانات الاعتمادات الخاصة به.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ٢٢.

٣٩- من جودار إلى ستورمر

موجز

- هدنة لمدة ثلاثة أيام بين الأتراك والمماليك.
- مطالب مبالغ فيها من جانب المماليك.
- رفع العلم الإنجليزي في القاهرة.

الإسكندرية: ١ أغسطس ١٨٠٣

عاد حسن بك، ابن علي باشا، مرة أخرى من معسكر رشيد، وكذلك السيد برجس، الحاكم العام الإنجليزي. وقد حصلا على ثلاثة أيام هدنة بين الأتراك والمماليك. ولا يمكن التدخل أكثر من ذلك لمعرفة إلى أي درجة وصلت المفاوضات؛ ولكن يبدو أن الصعوبات الكبرى تأتي من جانب المماليك الواثقين من النصر، والذين يبالغون في مطالبهم؛ ولا يعرف عما إذا كان ذلك بسبب وضعهم القوي أو لضعف روح الفريق المقابل، ومهما كان الأمر فإنه مما يبدو لي أن المماليك يحسنون صنعا لو أنهم توافقوا مع الوضع القائم من أجل حصولهم على أكبر ميزات ممكنة، خاصة وأن الأمور تسير في صالحهم في الوقت الراهن؛ ولكن إن لم أكن واهماً، فإنني أشك في أن المساعي التي يجب أن تظهر في مثل هذه المواقف الدقيقة والحرجة لن يكون لها أي أثر يذكر.

أعتقد أن المفوضين قد يسافران غدا ومعهما الإنذار، ليساعدنا الله !

تم رفع العلم الإنجليزي في القاهرة وسط احتفالات صاخبة.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ٢٢.

٤٠ - من جودار إلى ستورمر

موجز

- المماليك يطالبون بالبقاء في القاهرة، كما كانوا قبل الغزو الفرنسي.
- عدم قبول علي باشا لمطالبهم.
- المنازعات تنشب من جديد.
- سكان الإسكندرية في قلق فظيع من النهب المحتمل.
- القوتان المتحاربتان.

الإسكندرية: ٧ أغسطس ١٨٠٣

عاد المفوضان بعد حصولهما على ثلاثة أيام فقط من الهدنة بين الأتراك والمماليك. ووافق معالي علي باشا على بعض الشروط التى كان من بينها توسيع الأرض المخصصة للمماليك في مصر العليا؛ ولكن يجب أن يتركوا القاهرة نهائيا. وغادر المفاوضان الإسكندرية، وعادا مرة أخرى أول أمس بطلب من المماليك للبقاء في القاهرة كما كانوا قبل الغزو الفرنسي؛ الأمر الذي لم يلق القبول من جانب علي باشا، فبدأت المنازعات مرة أخرى في حصن رشيد الذي نجح فيه المماليك في صد هجومين جريئين، مع ما تبع ذلك من خسائر متبادلة، ولم يلبث أن تحتم على قوات علي باشا ترك رشيد بسرعة والتوجه إلى الإسكندرية.

تصور جانبكم أي قلق تعانيه هذه المدينة المسكينة بعد ما عرف سكانها الكوارث التي وقعت في دمياط؛ ولأن هذه المدينة كان من المفروض أن تقوم بدفاع عنيد فمن المتوقع أن يكون الدمار فيها كبيراً.

يؤجر السكان الأوروبيون، والشرقيون، بل والأتراك أنفسهم، سفنا تجارية ويضعون على متنها كل ما يمكن وضعه. ولا أحكي لك عما سوف نعانيه من نقص في المواد الغذائية.

يجتمع رؤساء الجاليات الأوروبية المختلفة يوميا ليتخذوا الإجراءات المناسبة، خاصة وأن الاتصالات مع القاهرة ورشيد قطعت بصورة كاملة. ذلك هو وضعنا المؤلم حتى الآن.

جيش المماليك، بقيادة عثمان بك البرديسي، مكون من ألبانيين وعرب، حيث يقال إن قوته أصبح يتراوح عددها ما بين ثمانية إلى عشرة آلاف جندي، ثلاثة أرباعهم من الفرسان المجهزين تجهيزًا جيداً. بينما يرتفع عدد جنود علي باشا إلى حوالي مائة ألف رجل، ولكنهم غير قادرين على القتال خارج الحصون. ويقال دائما إنهم ينتظرون التعزيزات، ولكننا لم نجد شيئا يأتي إليهم.

مع عميق احترامي... إلخ.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ٢٢

٤١ - من جودار إلى ستورمر

موجز

- تم الاستيلاء على رشيد.
- من المتوقع زحف المماليك على الإسكندرية.
- الجميع يهربون من شفا الكارثة في الإسكندرية .

الإسكندرية ١٣ أغسطس ١٨٠٣

سوف يرحل الشاويش Ciaus [(١)] إلى زميرنه (أزمير) .

كما تم الاستيلاء على حصن رشيد بسقوط شقيق علي باشا الذي كان يقوده.

ولم يبق سوى الإسكندرية، حيث من المنتظر وصول المماليك إليها في أية لحظة .

الأوروبيون والأتراك وغيرهم يسافرون على متن المراكب بسبب اقتراب الكارثة.

الجبهة قوية بالمدافع ولكن ينقصها الناس والشجاعة.

ليس عندي وقت لأقول أكثر من ذلك.

مع خالص احترامي،،

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ٢٢.

٤٢ - من جودار إلى ستورمر

موجز

- يبدو أنه توجد محاولات من جانب علي باشا للحصول على هدنة من أجل انتظار تعليمات جديدة من الباب العالي.
- يعتقد أن المماليك وافقوا على الهدنة.
- الحزبان؛ حزب الصدر الأعظم، وحزب قبطان باشا، يقتسمان المدينة .
- الأخطار التي يتعرض لها السكان، لا يستبعد منها الأوروبيون.
- لم يشارك الحاكم العام الإنجليزي في المفاوضات.

(١) Shawus : كلمة تركية تعني بصورة حارساً خاصاً، حارس السلطان أو الباشا .... إلخ، وأخذت الشكل الإيطالى Claus في مدونات الرحالة، ويقال شاويش في اللهجة المصرية.

- الخطورة على الرايا، وتهديدات للأوروبيين .

- قد يكون من النافع صدور فرمان لأمان الدولتين الإمبرياليتين النمساوية والروسية.

- ملحوظة : ليس هناك من جديد.

الإسكندرية: ٢٠ أغسطس ١٨٠٣

سوف تبحر واحدة من سفننا التجارية، وهي فارغة، متجه إلى الأرخبيل، سوف أستغلها من أجل توصيل نسخ من خطاباتي.

وصل مساء أول أمس سليمان كاشف من جانب المماليك، والذي كان لا يزال معسكرا في رشيد، ويعتقد أن السيد علي، شقيق علي باشا، قد نصحه بأن يرتب أموره.

في هذا اليوم سافر سليمان كاشف، وكل ما يمكن تبينه هو أن هناك اقتراح هدنة لمدة خمسة وأربعين يوما لتلقى تعليمات جديدة من الباب العالي. وهناك شك في أن المماليك سوف يوافقون على تلك الهدنة، وأن قواتهم قد تظهر في أي وقت وهو ما يجعل الجالية الأوروبية وجميع السكان في حالة من القلق الشديد.

يوجد حزبان في المدينة، حزب علي باشا من جانب الصدر الأعظم، وحزب خورشيد باشا من جانب قبطان باشا المتحالف مع مجمد باشا في القاهرة (بالرغم من كونه سجينا)، وهناك شكوك في أنه يدبر بعض الخطط ضد علي باشا.

القبطان بك [١] بسفينته وفرقاطتين تم سحبهما إلى بوغاز الميناء القديم. وظهرت سفينة رياله بك[٢] ومعها زورق وبارجة، وقد تم الاتفاق مع قبطان بك على الرسو لمدة ثلاثة أيام في الميناء، و لا نعرف إلى أى مدى سوف تنتهي هذه المناورات. وخوفنا الكبير هو من اشتعال المعارك بين الأحزاب المختلفة، وأن تؤدي الميول غير الطيبة، المكشوفة حتى اليوم، للزعماء تجاه المسيحيين، بالإضافة إلى عدم انضباط الجنود إلى حدوث بعض النتائج المؤلمة للسكان، وفي المقام الأول للجاليات الإفرنجية.

يقال إنه بعد غد سيمكن معرفة إمكانية موافقة المماليك علي الهدنة؛ وهناك من يعتقد أنهم سوف يوافقون عليها لأن جيش الألبانيين الموجود في صفوفهم متعب من الهجوم ومما قد يلحق به من دمار.

---

(١) نائب الأميرالاى .

(٢) مساعد الأميرالاى.

الحاكم العام الإنجليزي لم يشارك في تلك المفاوضات، ويبدو أن العثمانيين أصبحوا ينظرون إليه بارتياب، أو أن مهاراته ليست كافيه وهو شيء لا أتصوره على الإطلاق. الاتصال بين القاهرة ورشيد لا يزال ممنوعًا بشدة، ويعتقد أن كل خطاباتنا حفظت لدى الجانبين. وعرفنا أن الأعلام الأربعة التابعة للإمبراطوريتين، وللدولتين الفرنسية والإنجليزية، قد تم رفعها في القاهرة باحتفال كبير، ورفع بالإسكندرية بالأمس العلم الفرنسي، حيثما كان من قبل، وقد تمت تحيته من جانب الحصن بعشرين طلقة نارية على الرغم من صعوبات كثيرة.

الاستيلاء على المؤن والمساهمات المالية لسكان الرايا Raja لم ينقطع، وكذلك تعرض الكثير من الأوروبيين للتوبيخ والتأنيب؛ لأنهم لم يبادروا بتقديم بعض القروض الجديدة. ونحن نسير في طريقنا محتمين بأسباب وجيهة، ولكن النظرة لنا تبدو سيئة، حيث يدور الحديث عن السفراء الكبار بأعظم الاحتقار، وأشد التهديدات، الأمر الذي يجعلنا مضطربين للغاية في ظل تلك الظروف الصعبة والمعاكسة.

صاحب العظمة الباشا يشعر أن الأمر لا يتمشى مع كرامته في أن يجيب على مذكرتنا الرسمية الموقعة من سبعة سفراء.

أكتب مع هذا الخطاب خطابا آخر إلى صاحب العظمة الوزير إيطالينيسكي Italianskuy (١) فيما لو كان في إمكانه أن يحصل على فرمان من الباب العالي لكل من علي باشا و خورشيد باشا، ما دمنا لا نستطيع أن نأمل في أي شيء من القاهرة الآن. إنني متأكد أن كل رفاقي سيكتبون إلى الوزراء الموقرين؛ وعلى هذا فإنني باسم أمتنا أعهد إلى عطفكم المعروف ومعتزا باحترام عميق أن أكون... إلخ .

ملحوظة: ليس هناك جديد؛ وكل شيء في سكون غامض، والبدائل المتاحة أمامنا سيئة للغاية.

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ٢٥

---

(١) خلف دي تمارال De Tamaral في منصب المبعوث الروسي إلى القسطنطينية، وتقلد هذه الوظيفة من ديسمبر ١٨٠٢ إلى ديسمبر ١٨٠٦ .

٤٣ـ من دى روسيتي إلى ستورمر

موجز

- عثمان بك يستولي على رشيد بدون نهبها.
- استسلام سيد علي وضباط آخرين .
- محاولات محمد باشا الهروب .
- لا توجد خطابات من الإسكندرية.
- محاولات الإصلاح من جانب نائب القنصل الإنجليزي .
- رد حازم من عثمان بك.
- عثمان بك يعلن عدم قدرته على توفير الأمن للحي الإفرنجي لو تم الاستيلاء على الإسكندرية.
- خطاب من رشيد يفيد أنه حدث اتفاق بين علي باشا والمماليك يسمح لهم بالحفاظ على وضعهم الراهن.
- فرض ضرائب في رشيد من جانب عثمان بك .
- زيارة دى روسيتي إلى ليسبس .
- فرض ضرائب من جانب إبراهيم بك على الرايين ومحاولاتهم التخلص منها .
- أخبار حول شئون مكة .

القاهرة: ٢٤ أغسطس ١٨٠٣

أود باشتياق أن أسمع بأن خطاباتي السابقة قد أصبحت بين يدي جنابكم والتي تشرفت بأن أنقل إليكم فيها جزءا من الأحداث الأكثر أهمية لهذه الدولة*.

أرسل عثمان بك البرديسي محمد باشا إلى القاهرة موصيا عليه سليم كاشف المهرانجي، مفوضه هناك، وبعد أن ترك حامية عسكرية في دمياط، ذهب بنفسه إلى رشيد التي كانت قد عادت تحت السيطرة العثمانية، لأن سليمان أغا الذي كان يحكمها، بعد أن سمع أن علي باشا قد وصل إلى الإسكندرية مع كثير من الجنود، انسحب بنفسه ليلا، وبالفعل وصل إلى رشيد سيد علي، شقيق علي باشا، في اليوم التالي مع جماعة من حوالي خمسمائة رجل زادوا فيما بعد إلى حوالي ١٥٠٠ انتشروا في المدينة بصورة أكبر من اختبائهم في الحصن، ولكن بعد أن اقترب عثمان بك على الرغم من زعم سيد علي بأنه سوف يحاربه حتى آخر نقطة دم، بدا أنه وجد من الأفضل أن ينسحب مع جنوده إلى الحصن، وأن يترك المدينة التي دخلها عثمان بك بدون حدوث أي ضرر

* المقصود بالدولة فيما ورد بالسياق الولاية المصرية . «المراجع»

مما وقع سابقا في دمياط؛ وهو الشيء الذي لم يكن يتوقعه السكان، حيث انسحب الجزء الأكبر منهم، بما فيهم الأوربيون وممثلوهم، منهم من هرب إلى الإسكندرية، ومنهم من هرب إلى القاهرة، و منهم من هرب إلى قرى مجاورة.

حاصر عثمان بك حصن جوليان Julien ، وبعد عشرة أيام من الحصار، كان سيد علي مع عشرة ضباط رئيسين قد سلموا أنفسهم إليه، وتم الاتفاق بين عثمان بك وسيد علي على خروج الجنود بدون أسلحة إلى سوريا وأن يظلوا هناك ؛ الأمر الذي تم تنفيذه. وبعد أن حاول محمد باشا، بدون نجاح، أن يهرب من منزل سليم كاشف المهرانجي، بحجة أنه لا يشعر بالراحة لنقص التدريب ومن ثم طلب السماح له بأن يذهب إلى الحقول لعمل بعض تدريبات ركوب الخيل، وحصل علي الموافقة من إبراهيم بك، وخرج في الصباح بحراسة بعض المماليك التابعين لسليم كاشف ؛ وعندما وصل إلى الحقول، وبعد أن قام بالعدو بالحصان لفترة وجيزة، اقتنص اللحظة المناسبة عندما ابتعد قليلا عن المماليك ليولي الأدبار.

وعلى الفور تبعه المماليك حتى وصل إلى منزل أحمد بك، زعيم الألبانيين، حيث التجأ، ومنع حارس أحمد بك الدخول لكل من كان يتتبعه؛ الأمر الذي أحدث الخوف من أن يكون هناك اتفاق بين محمد باشا والأرناؤوط. ولكن هذا الخوف انقشع عندما ذهب سليم كاشف ليأخذه ويقتاده إلى إبراهيم بك، حيث أبقاه عنده وعامله معاملة حسنة لا تقل عن تلك المعاملة التي كان يلقاها في منزل سليم كاشف المهرانجي. وعلى الرغم من ذلك فقد حاول الهرب للمرة الثالثة، لكن تم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لكي تقتلع من داخله فكرة الهرب من جديد.

الخطابات الأخيرة من الإسكندرية التي احتفظ بها، كانت بتاريخ ١ أغسطس؛ ولابد أن تكون هناك بعض المعوقات الشديدة لتأخر وصولها، لكن الجهود التي قام بها نائبي على نحو مختلف لم تتركني في غموض لمعرفة ما يحدث في ذلك الميناء لفترة طويلة.

أرسل علي باشا، الذي يحكم بمفرده، السيد برجس، نائب الحاكم العام الإنجليزي، إلى عثمان بك مرتين، ومعه بعض مقترحات للتصالح، لكن يبدو أنها لم تكن كافية، بينما ثار عثمان بك كثيراً، وبصورة خاصة في مواجهة التهديد بإعطاء دور للبلاط الملكي البريطاني في إيجاد تسوية بين الطرفين، وهو التهديد الذي رد عليه قائلا: إن امتلاك الأراضي المصرية لا يعدّ اغتصابا لها، لكن أخذها كان بموجب وعد من الجنرال هاتشينسون نفسه، وذلك باسم ملكه وأمته؛ ولو أن علي باشا لا يجد الخبز في مكان آخر، ويأتي ليستجديه في مصر، لأمكنه الحصول عليه بإجراء

مختلف، وذكر في النهاية أنه هو المتحكم في إعطاء كل شيء للقصر البريطاني؛ لأنه لو أراد القصر أن يشن الحرب على المماليك لاستطاع هو أن يجد قوة أوروبية أخرى تحميهم، ذلك أن قوة المماليك لا تقارن بقوة بريطانيا العظمي. ومن ثم فقد أعلن بأنه عزم على الزحف إلى الإسكندرية، وبعد أن طلب منه الحاكم العام الإنجليزي الأمن للحي الإفرنجي، أجاب أنه لا يستطيع الوفاء بذلك بسبب اندفاع جيشه؛ الأمر الذي وضع كل السكان في حالة شديدة من الخوف، وطبقا لما سمعت، يبدو أن الأوروبيين كانوا يرتبون أنفسهم لينقلوا متاعهم وأسرهم على متن السفن التي كانت راسية في الميناء.

لكن سيد علي كان على استعداد لاستئناف التفاوض، بينما لم يزحف عثمان بك بعد، وتؤكد الخطابات الآتية من رشيد أن الاتفاقية التي وقعت بينهما كانت تقضي بأن يترك علي باشا الإسكندرية، وأن يحضر إلى القاهرة واليا على الأسس القديمة أي كما كان الوضع قبل غزو الفرنسيين لمصر، مع عشرة أشخاص فقط، ثم يستكمل حاشيته من بكوات المماليك أنفسهم.

طلب علي باشا من علي بك أيوب أن يجري معه بعض التسويات، لكن الأخير أرسل له كاشف، ولم نعرف بعد ما هي نتيجة مهمته.

فرض عثمان بك على رشيد ضريبة مقدارها حوالي ٣٣٧,٥٠٠ قرش، وهو الأمر الذي لابد أنه قد قهر المدينة.

وفي القاهرة تم فرض ضريبة على المسيحيين بمقدار ١٢٠ كيس، وبعد تقسيمها، لجأ الكثيرون منهم ليكونوا تحت حماية الممثلين الفرنسي والإنجليزي، الأمر الذي خفض الضريبة إلى حوالي ٤٠ كيساً؛ والثمانون كيسا الباقية أصبح يدفعها من هم أكثر فقراً.

قام المفتش العام ليسبس فور وصوله إلى القاهرة بزيارة عامة وبأبهة شديدة إلى إبراهيم بك، ولم أحظَ بزيارة ليسبس لي إلا بعد خمسة أيام؛ لأنه أراد أن يقوم أولا بزيارته إلى إبراهيم بك.

وقد استقبله المماليك بصورة جيدة جدا، ولكن لأنه اصطحب معه كثيرا من المسيحيين، الذين كانوا يشكون من ضعف الحماية الفرنسية لهم، فقد أخبر إبراهيم بك مترجمه، في اليوم التالي، أنه لا يستطيع أن يسمح للرايبين أن يلجئوا إليه، وأنه قام بتخفيض عددهم من أربعة وعشرين إلى أربعة أو خمسة أشخاص فقط ووعدهم أن يأتي لهم بالبيرات. هذا هو السبب الذي جعل إبراهيم بك ينفر من المسيحيين، ويطالبهم بمائة وعشرين كيساً.

وبسبب تفشي الأمراض في جيش عبد الوهاب (الأمير عبدالعزيز)، قام برفع الحصار عن جدة، وزحف شريف باشا، مع الشريف إلى مكة، واستعاداها مرة أخرى طاردين عبد الوهاب (الأمير عبد العزيز) مع أتباعه الذين أخذوا طريق الطائف حيث طاردهم شريف باشا. ولما كان شريف مكة يكن كل الاحترام لشريف باشا، فقد ترك له قيادة الجيش وإدارة العمليات العسكرية.

و تفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير،،

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ٢٥

٤٤ـ من دى روسيتي إلى ستورمر

موجز

- عثمان بك يعد التجهيزات اللازمة للزحف على الإسكندرية.
- لكنه لم يقطع المفاوضات مع علي باشا .
- نجاح محتمل للمفاوضات، لأن عثمان بك يستعد ليعود مرة أخرى إلى القاهرة مع جيشه.
- رجوع الجنود يعد مؤلما جدا ؛ يطالب الأرناؤوط بمرتباتهم المتأخرة، وتسود حالة من الفقر المدقع .
- عثمان بك يريد أن يفرض ضرائب أيضا على الخاضعين للحماية.
- احتجاجات ممثلي السلطات الأوروبية.
- الممثل الفرنسي كان يريد أن يميز الخاضعين لحمايته.
- تنازلات الممثلين لتجنب الويلات الكبرى.
- إيثار كريم من دى روسيتي.
- أعباء أخرى على التجارة بفعل الوكيل الإنجليزي.
- لا يوجد أي أخبار عن مكة.
- يشارك نهر النيل في زيادة الفقر المدقع نتيجة انخفاض الفيضان .

القاهرة: ٢٠ سبتمبر ١٨٠٣

أقام عثمان بك البرديسي معسكره في دمنهور، وكان يعد التجهيزات الضرورية للزحف على الإسكندرية لكن دون أن يقطع المفاوضات مع علي باشا، الذي كان يريد أن يترك المماليك في حوزته الإسكندرية ورشيد ودمياط بصورة سلمية، حتى وصول رد الباب العالي.

وقرر البكوات في المقابل أن يقترحوا عليه حيازة الإسكندرية فقط، مع فتح الاتصال في الوقت نفسه مع رشيد والقاهرة؛ الأمر الذي يفترض أن يكون هناك اتفاق على ذلك، لأن الجنود يعودون، وعثمان بك سيكون في القاهرة مع معظم قواته؛ إذ إنه لن يترك سوى حوالي ألف جندي في دمنهور، وحامية عسكرية في رشيد.

هذا الاقتراب من الجنود من الممكن أن يكون مضراً جداً للبلد، إذ كان من الضروري إعطاء أكثر من ستة آلاف كيسٍ من المرتبات المتأخرة للأرناؤوط، ولكي يتم الحصول على تلك الأكياس سيحتاج الأمر إلى فرض ضرائب جديدة، ولا أعرف كيف يمكن الحصول على تلك الضرائب، نظراً لحالة الفقر العامة، ومما يزيد الضائقة سوءا، وخاصة بالنسبة للتجار، قطع الاتصال مع الإسكندرية، حيث يحتفظون هناك بأموالهم السائلة، سواء كانت قليلة أو كثيرة.

لست أدري كيف يمكن أن تنتهي هذه الفوضى الكبيرة، وحتى إذا نجح المماليك في تحصيل ستة آلاف كيس(وهو ما لا أتوقعه)، فسيحتاج الأمر إلى وقت طويل؛ وفي خلاله ستمر بعض الشهور ويتراكم الدين للجند، غير المنضبطين بحكم طبيعتهم، والذين سيقومون ببعض الاضطرابات، لأنه فيما يبدو لي لا توجد درجة من المصداقية بين قوات علي باشا، والمماليك غير المتحدين إلا سياسياً.

في الأيام الماضية، تم فرض ضريبة على المسيحيين، وكان المماليك يريدون فرض الضرائب أيضا على المحميين وأصحاب الامتيازات، الأمر الذي عارضته بشدة، أنا والسفير المقيم الإنجليزي، والمفتش العام الفرنسي، ووصل سليم كاشف، نائب عثمان بك، ليخبرنا بالضائقة المالية ويرجونا الموافقة على أن يجمع من المحميين وأصحاب الامتيازات مائتي أو ثلاثمائة كيس على سبيل السلفة، ليرفع عنهم فكرة فرض التزامات ضريبية جديدة، وإزاء إلحاحه الشديد، اقترحنا أن نمد يد العون من جانبنا بمائة وثمانين كيساً، نستردها مائة كيس بموجب إيصال على خزينة الدولة (روزمانى) [1]، وثمانين كيساً على جمرك بولاق، وذلك من أجل أن نضمن هدوء المحميين وعدم استيائهم.

فوضنا مترجمينا الموقرين ليقوموا بتقسيم المبالغ المالية التي اقترحناها، ولكن المفتش الفرنسي أنهى التقسيم بخمسة أكياس للإنجليز وخمسة وعشرين للفرنسيين بما فيهم بعض المحميين السويديين الذين يحظون برعايته، ومائة وثلاثين كيساً للأستراليين والروس، ولما كان

(١) لفظ عامي محور لكلمة روزنامة، من أصل فارسي، التي تعني خطابات اليوم، وتم استخدامها بمعنى الإدارة المالية .

هذا التقسيم غير متناسب، قدمت بعض الملاحظات الودية إليه (المفتش العام الفرنسي)؛ لكنه لم يُبْدِ اهتمامًا كبيرًا، وكفاني أنني لم أدخل في خلافات معه، وأن أبدأ في دفع المائة وثلاثين كيسا من عندي بنية خالصة وألا أطلب أي مبالغ من أي شخص، إلا إذا استحال عليّ إكمال دفع المبلغ المطلوب من عندي، إذ إن الضائقة المالية التي يعاني منها الجميع سواء أبناء البلد أو المحميون لم تشجعني أن أطلب منهم كيسًا واحدًا.

السيد بيتروتشى، الوكيل الإنجليزي، بعد أن تحكم في مناقصة العصفر وفى كل الضرائب المفروضة في رشيد حيث يقيم، وفى مناقصة الملح هنا، طلب أن يأخذ جمارك رشيد والإسكندرية، التي لو منحت له فأعتقد أن المصاعب والمتاعب قد تزداد بلا حدود.

ليس من جديد من جانب عبد الوهاب (السعوديين)، لكن يبدو أن شريف باشا كان يحقق بعض الانتصارات، وإلا لكنا عرفنا ما هو دون ذلك.

لإكمال خراب مصر المسكينة تسابق نهر النيل أيضا بأقصى ما لديه، حارمًا إياها من فيضانه العالي، لدرجه أن الجزء الغالب من الريف سيظل بدون فيضان هذا العام، ومن ثم فقد ازداد سعر القمح بالفعل إلى الضعف، ولا يعرف إلى أي مدى سيزداد سعره خلال العام.

لا يوجد أي تقرير من الإسكندرية، إلا أن بعض اليونانيين عبروا من هناك إلى دمياط وذكروا أن المدينة ربما تعاني من القحط الشديد.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،،

تورشيكا ١٨٠٣، رقم ٢٨

٤٥ـ من دى روسيتي إلى ستورمر

موجز

- الاتصال ينشط من جديد بين رشيد والإسكندرية .
- لكن تم قطعه من جديد بسبب حادث خطير وقع في رشيد.
- تجاوزات خطيرة ترتكبها السلطات في رشيد ضد الأوروبيين وممثليهم.
- ما إن يعرف بها قناصل القاهرة حتى يجتمعوا عند دي روسيتي للاحتجاج.
- كيف عرضت شكاوى القناصل على عثمان بك بناء على نصيحة دى روسيتي .

- عثمان بك يعد بترضية كافية .

- العفو والتنازلات التي يمنحها الباب العالي للبكوات.

- مشروع العفو أسوأ من العقاب.

- طابع علي باشا العنيف.

- هناك ما يبعث على الخوف من أن مصر سوف تصبح مسرحا للحرب من جديد.

ملحق

موجز

-الباب العالي يؤكد أنه تحمل تضحيات كثيرة ليسترد مصر، ومن ثم يعمل على تأسيس نظام إداري جديد بهدف إصلاح الخزانة العامة؛ كل الإيرادات يجب أن تكون محصلة بصورة مباشرة لمصلحة الباب العالي؛ بينما تترك إيرادات القرى فقط إلى البكوات والتي لم تزد عن ١٢,٥٠٠ قرش .

- الباب العالي يمنح العفو إلى كل الذين شاركوا في الأحداث السابقة، لكن الأمر يستلزم التنفيذ المحكم .

القاهرة: ١٨ نوفمبر ١٨٠٣

أعيد الاتصال بين الإسكندرية ورشيد، الذي أشرت إليه في خطابي السابق بتاريخ ٣١ أكتوبر، غير أنه لم يلبث أن أوقفه حادث مؤسف وقع في رشيد؛ حين قام شخص يدعى فيورنتيني Fiorentini، الذي كان في السابق يعمل في الجيش الفرنسي عطارا، بصنع سفينة تجارية صغيرة، رفع عليها العلم التركي، وأجّرها إلى المغاربة الحجاج العائدين من مكة في مقابل ٣٥٠٠ تاليري تلقاها مقدماً، غير أن سفينة قرصنة قامت بالاستيلاء على تلك السفينة وصادرتها، وأنزلت ما بها من الحجاج في أبى قير [1]، وحين عاد الحجاج إلى رشيد طالبوا باسترداد الـ ٣٥٠٠ تاليري التي دفعوها، وعندما استدعي فيورنتيني للمثول أمام المحكمة حكمت عليه بإعادة الأموال. وحتى يتهرب من تنفيذ الحكم انتقل خلسة إلى بعض الأنحاء. وشكا الحجاج من حماية عمر، زعيم حامية الأرناؤوط له؛ الذي طلب بوسائل عنيفة جدا أن يدفع الوكلاء الأوروبيون المبلغ المذكور لأولئك الحجاج، وأولى تلك الوسائل هي منعه مغادرة القوارب سواء إلى هنا أو إلى الإسكندرية، ثم قام فيما بعد باقتحام بيت الوكيل الفرنسي، حيث كان يسكن فيورنتيني،كما هاجم الوكلاء الآخرين مع تهديدهم بالقتل ونهب بيوتهم وأمتعة التجار التي كانت موجودة في القوارب، وأجبرهم على دفع مبلغ ١٤٠٠٠ قرش، وبعد أن حصل منهم على هذا المبلغ طلب ٤٠٠٠ قرش بمثابة منحة

(١) أطلق الرحالة الأوروبيون العديد من المسميات على هذه المنطقة؛ الإيطاليون يقولون: Bicher , Bichieri, Bocchir , Bocher والفرنسيون يقولون Le Béquier أو les Bequiers والإنجليز يقولون Vickerie.

له ولجنوده. وظل إيقاف القوارب مستمرا بحجج تافهة، لم تلبث أن تغيرت بعد طلب إقراض ثلاثين ألف باتاكي لممثل علي باشا.

عند وصول هذا التقرير المؤسف إلى هنا، اجتمع المقيم الإنجليزي، والمفتش العام الفرنسي في القنصلية الملكية الإمبراطورية؛ ليتفقا على طريقة لإلغاء هذه التجاوزات المالية. واقترحا إرسال كل المترجمين الموقرين إلى معالي عثمان بك، وأن يقولوا له إننا كنا نرغب في عقد اجتماع للديوان، المكون من جميع البكوات، والأغوات، والقضاة، وزعماء الأرناؤوط، حتى نلقي أمامه بيانا هاما. وقد فكرت في أن مثل هذه الرسالة يمكن أن تكون مفاجئة وتدفع البكوات إلى السؤال عن الدوافع التي وراءها، وأن المترجمين سوف يعترفون بالأسباب الحقيقية بعد الإلحاح عليهم بذلك. وتصادف أنه في وقت اجتماعنا تلقيت رسالة من الوزير الأول لإبراهيم بك، يدعوني فيها بالإضافة إلى الممثلين الفرنسيين والإنجليزي على العشاء في اليوم التالي، وكنا نعرف أن محمد علي بك وأحمد بك، وزعماء الأرناؤوط كان من المفروض أن يتواجدوا في هذا العشاء. وقد اقترحت على زملائي الرد قائلين: إننا منزعجون بشدة مما حدث في رشيد، ورأيت أن رداً مماثلا قد يربك الوزير المذكور، الذي سوف يحاول أن يعرف الشيء الذي يتعلق بهذا الأمر، ثم يقوم تلقائيا بتقديم ترضية كافية لنا. وقد وافق الجميع على ذلك؛ وأنتج ذلك الاقتراح التأثير المأمول منه.

وما أن تلقى عثمان بك تلك الرسائل حتى جاءني لكي يعرف سبب انزعاجنا، وقمت بإبلاغه بالأمر مع كل الأهمية التي يستحقها، وانصرف بعد أن قلت له: إننا لو كنا قد حصلنا على ترضية كافية لكنا قد لبينا دعوته.

علمت أنه ذهب في الليلة نفسها إلى إبراهيم بك، وأخبره بالأثر السّيء لسلوك القادة في رشيد، فأرسل في الحال أمرا إليهم بأن تترك الملاحة حرة.

كان الرد الذي أعطاه عثمان بك إلى المترجمين أنه قد يرسل في اليوم التالي لكي يحدد الوقت المناسب الذي يمكن أن نذهب فيه إليه. وجاء بعد ذلك مملوكان إلى مختلف بيوت القناصل، وذهبنا كلنا معا إلى عثمان بك.

كان الترحيب لطيفًا جداً، ولكننا وجدناه بمفرده، وحين قلنا له: إن هذا لا ينطبق على طلبنا؛ أجاب قائلا بأنه يمكننا أن نجد كل الاطمئنان الذي نرغب فيه عنده، وأبدى أسفًا عميقًا لانزعاجنا، وقرر أن يرسل واحداً من ضباطه بالإضافة إلى آخر إلى محمد علي بك، وأحمد بك،

ومعه أمر أن يحضر إلى هنا كل من القاضي، والمغاربة والـ ١٤٠٠٠ قرش، وأن تترك الملاحة حرة وأنه يجب احترام الأوروبيين، ... إلخ. وأبلغ ذلك الأمر همساً، وعندما حملوا مسودة الخطاب إليه، قرأه بمفرده، وطلبت منه وأنا أجلس إلى جواره أن أتعرف على مضمونه. وحين رأيت أنه كان يخص فقط الإنجليز، ونائب قنصلهم في رشيد، أشعرته أن الأمر يتعلق بالكل، ومن ثم يجب أن تكون التوصيات والاعتبارات عامة، وقد وافقني على هذا. ونحن الآن في انتظار النتيجة.

يصل من الإسكندرية كيايا بك التابع لعلي باشا ومعه نسخة من الأمر الشريف، والذي يحتفظ بأصله كابوتشي Capegi [1] الذي منعه قائد رشيد من مواصلة رحلته منتظراً الأوامر من هنا.

كان الأمر الشريف يسمح للبكوات بالبقاء في القاهرة (يعين إبراهيم بك شيخا للبلد، وعلى باشا واليا على مصر)، مع التعهد باتباع النظام الجديد، وكان يقصد بذلك أنه يجب أن يوجد دفتردار يعين من جانب السلطان ليدير الجمارك والمناقصات، وإيجارات الأراضي الزراعية، ويقرر أن كل تلك القرى التي تورد أقل من خمسة وعشرين كيساً في العام، يمكن التنازل عنها من خلال التسديد الفوري لمدة ثمان سنوات للميري، والقرى التي تعطي أكثر من المبلغ المذكور، تكون للسلطان الأعظم، مع ضرورة تركيز الاهتمام والعناية الشديدة بتلك الأموال؛ حتى يتم توريد جميع الإيرادات وخصم المصروفات التي صرفت في الأعمال التي أنفقت لاسترداد مصر. ولا ينبغي التحدث عن موضوع المرتبات المتأخرة للأرناؤوط، وبناء على طلب الصدر الأعظم وعلي باشا وطلب البكوات أنفسهم بوقف إرسال الجنود صدر العفو السلطاني ، وهو العفو الذي كان من المفترض أن ينشر الطمأنينة في مصر، إلا أنه مع وجود القيود المذكورة، فسوف يجعل ذلك المماليك أكثر تعاسة من ذي قبل؛ لأنه لو أراد الباب العالي الحصول على كل الإيرادات، فلن يجد الباشا أو البكوات سوى الابتزاز والنهب، وسيكونون مرغمين على ذلك، ولذلك فقد اعتبر مشروع العفو أسوأ من العقاب نفسه.

يتصف علي باشا (لكل من يعرف تاريخه) بأنه متكبر، ومتغطرس، وعدواني، ودموي ومرتش وليس من المفترض أن يسر البكوات بوصوله، وبكل ما يحتفظ به من الجنود، ولا بالتنازل له عن كل الإيرادات. إنني أخشى أن تصبح مصر مسرحاً للحرب من جديد.

وأتشرف بأن أكون خادمكم المطيع... إلخ .

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ١.

(١) كابوتشي، هذا الاسم يقصد به حارس باب القصر، وكان يعين في الدولة العثمانية حراس لبوابة القصر يعهد إليهم بتوصيل الوثائق الرسمية والدعوات لحضور حفلات البلاط الملكي.

ملحق

ترجمة فرمان الباب العالي الموجه إلى علي باشا، قائد مصر [(١)].

بعد العناوين

وزيري علي باشا رئيس القانون العثماني، أصحاب المعالي إبراهيم بك قائد مصر، عثمان بك نائبه، كل السادة رؤساء البلد الموقرين وزعماء الإنكشاريين، تحياتي.

نرسل إليكم مكتوبنا هذا لنعلمكم بأنه عندما استولى الفرنسيون على مصر، وجب علينا القيام بالكثير من التضحيات في الأرواح والأموال من أجل استردادها من جديد، ولإعادة فتح الاتصالات مع مصر والعمل على إصلاح المالية العامة فيها من خلال نظام جديد، وتلقي المواد الغذائية الموجهة إلى الأماكن المقدسة في مكة في الوقت المناسب، وكذلك كل الإيرادات المتعلقة بخزانتنا الخاصة بالمؤن والترسانة العامة، ولكي تكون المناقصات كلها خاضعة لنا، فإننا نرسل إداريا عاما من بلاطنا بالأمر التالي:

كل الأملاك والقرى التي يصل إيرادها إلى ١٢٥٠٠ قرش أو أقل، يمكن أن تؤجر لثماني سنوات مقدماً. ولو كان إيرادها أكبر من هذا المبلغ، حينئذ تتم إدارتها لحساب بابنا العالي.

كل إيرادات مصر الناتجة عن المناقصات، والخراج، والولايات، منذ عام ١٢١٧ هجرية * حتى الآن، لابد أن تدخل ضمن الأموال الأميرية.

---

(١) لتوضيح مضمون هذا الملحق و فقرات أخرى من الوثائق الحالية، المتعلقة بالنظام المالي والإداري لمصر، راجع البحوث الثلاثة لسيلفستر دي ساسي حول طبيعة قانون ملكية الأرض في مصر منذ فتح المسلمين لهذه البلاد، وحتى الحملة الفرنسية، في بحوث المعهد الملكي الفرنسي، باريس، الجزء الأول (١٨١٥) والجزء الخامس (١٨٢١) والجزء السابع (١٨٢٤) والتي أعيد طبعها في عدد خاص من مكتبة المستعربين الفرنسيين، والتي نشرت تحت إشراف جورج فوكار، السلسلة الأولى، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٢٣. هذا العمل لدى ساسي والذي يلخص ويدرس الكتابات السابقة أيضا ما يزال يحتفظ حتى اليوم بأهميته. وبعد ذلك فإن أهم ما نشر كان ليعقوب أرتين بك وجاء بعنوان الملكية العقارية في مصر، القاهرة ١٨٨٣ حيث تمت دراسة التجديد الذي أدخله محمد علي على قانون الملكية..

الملحق الحالي منقول ، ومترجم إلى الفرنسية ، النصان متشابهان جوهرياً، ولكن هناك بعض الاختلافات التي تؤدي إلى اختلاف في المفهوم . وسوف نسجل الاختلافات الأكثر أهمية .

* موافق لعام ١٨٠٢ م وهو العام الذي أعقب خروج الفرنسيين من مصر .«المراجع»

حقوق الخراج، وإيرادات أراضي الوسية، أو الأراضي التابعة لأصحاب القرى[١]، ستكون من الآن أميرية في خدمة الباب العالي، وأيضا حق الكشوفية [٢] لأصحاب العطاءات في القرية، الذي سوف يحصله الإداري التابع لنا على حدة [٣].

سيتم تكليف مديرنا بالقيام بالنفقات المعتادة للمملكة، وتقديم الإيرادات التي يتم دفعها إليه سنويا إلى خزانتنا العامة. وسوف يدخل في النظام الجديد كل من الإسكندرية، ورشيد، وبولاق، ومصر القديمة، والسويس والقصير وسوف يتم إرسال رجال الجمارك من القسطنطينية على غرار نظام العاصمة؛ إما تقديم عطاء بالجباية إلى رجل الجمارك، أو تحصل لحساب الباب العالي، كما كنا قد قررنا من قبل.

علمنا فيما بعد بالتغيرات في مصر، وفي اللحظة التي كنا نتخذ فيها بعض الترتيبات اللازمة لإرسال القوات براً وبحراً، ومن ثم إعادة ترتيب أوضاع مصر، وصل إلينا التماسكم، حيث ذكرتم أن الإيرادات التابعة لبابنا العالي لم تكن تتأثر بأدنى تغيير، وطالبتم منا في الوقت نفسه العفو عن قادة القاهرة[٤].

---

(١) الوسية، هي المصطلح الذي كان يطلق على الأراضي التي يتم الحصول عليها من الفلاحين المتوفين بدون ورثة، ومن الفلاحين الذين ليس لديهم إمكانيات لزراعة أراضيهم، وكانوا يتنازلون عنها مقابل مبلغ بسيط للملتزم، أو كما يقول دي روسيتي، إلى صاحب القرية . وحول المعنى المحدد لكلمة (ملتزم) دار نقاش كبير ؛ فمن المعتقد أن الملتزم يتميز بخصائص متنوعة تنوعا كبيرا ويقصد به المستفيد، المالك، السيد الإقطاعي، المزارع، ... إلخ وفي الحقيقة كان الملتزم يجمع في ذاته خصائص المقاول والمالك؛ فهو يدفع مبلغاً محدداً ومقرراً إلى الحكومة، في مقابل الحق في الحصول على إيرادات الأراضي من القرية، لكن مع مرور الوقت أصبح هذا الحق مورثا وأخذ بعض سمات الملكية الحقيقية .

(٢) يقصد بذلك حقوق الكاشف، التي تعني بصورة خاصة من يكتشف، ويتحرى، وكان يشير إلى قائد حي تابع للبكوات، وكان يكلف أيضا بتحصيل ضرائب الدخل . كان يتمتع الكاشف براتب، ويقصد بذلك مبلغ محدد سنويا ولا يجب عليه أن يحصل على أية أرباح من التحصيل الذي تم تكليفه به، لكن تكليفه كان له صفة العطاء (التزام) ولم يكن له صفة الاحتكار، لأنه كان يضمن مبلغاً محدداً ومقرراً .

(٣) هناك اختلافات طفيفة بين النصين الفرنسي والترجمة الإيطالية، ويقول النص الفرنسي:

Les droits des présens, les revenus des terrai qusié, *ainsi que* les terrains appartenant aux segneurs des villages, seront dès à présent miri, au profit del la Subime Porte, et de mème les droits des kashefs et appalteurs de village, qui seront perçus a part notre administrateur.

والكلمات بالخط المائل تشير إلى الاختلافات عن النص الإيطالي.

(٤) يقول النص الفرنسي :

'Ensiut, nous avons appris le changements opérés en Égypt e au moment oú nous prenions de fortes mesures pour expédier des troupes de terre et de mer alin de la rétablir dans l'ordre, est venue votre lettre par laquelle vous disiez que le revenus appartenant à notre Sublime Porte *n'ont souffert* aucun changement, demandant en même temps pardon pour *le gouverneur* du Caire'.

ومن ثم فلأجل اعتباركم، واعتبارا للشعب كله الذي يعاني من تشدد الجنود، فإننا نظرنا بعين العطف والرحمة، وتراجعنا عن إرسال الحملات التي كنا على وشك إرسالها، وبموجب هذه الخطابات نعفو عن الماضي كله.

كذلك تلقينا التماساً من إبراهيم بك، يعلن فيه أنه قد لا يعمل على إنقاص المواد الغذائية المرسلة إلى البيت المقدس* وكل المميزات التابعة لبابنا العالي، وأيضا كل الإيرادات الأخرى لمصر، وقد وعدنا بإرسال كل شيء في الوقت المناسب، وطلب منا العفو والسماح، ولذلك عفونا عنه بصورة نهائية، ويمكن أن يطمئن، وأن يتوجه إلى بابنا العالي في كل ما يلزمه. كما أن الصدر الأعظم طلب أيضا أن نعفو عن كل بكوات القاهرة، ووافقنا على طلبه، وتأكيدا على ذلك نرسل إليكم مع أحد تابعينا، صالح أغا، خطابنا الحالي، فنفذوا مضمونه، واحرصوا على عدم مخالفته، وهذا هو الشرط الأول.

وبموجب كتابنا الحالي نعين إبراهيم بك قائداً كما كان قبل ذلك، ومسئولا عن القاهرة؛ لتنفيذ ما تم إعلانه سابقًا هنا، وفي هذا الموضوع سيتلقى الإرشادات من الصدر الأعظم.

ومن ثم نوصي نائب الملك** التابع لنا وكل القادة المذكورين أعلاه، والكبراء، والقضاة، ... إلخ بالقاهرة أن ينفذوا بأمانة ما تم عرضه في كتابنا الحالي، الممهور بتوقيعنا السامي، وألا يخالفوا أي شيء فيه، مع القيام بإرسال كل ما نوهنا عنه أعلاه في أسرع وقت.

بتاريخ ١٥ ربيع الآخر ١٢١٨.

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٣.

٤٦- من جودار إلى ستورمر

موجز

- جودار يرجو الرسول البابوي، والممثلين الموقرين الآخرين، إقناع الباب العالي أن يلح على خورشيد باشا ليدفع الديون المجمدة لرعايا الإمبراطورية، وإنجلترا والسويد، ولفرانشيسكو بنسا Francesco Pensa.
- الأموال المقترضة استخدمت في الحفاظ على الإسكندرية للباب العالي.

---

* المقصود بالبيت المقدس الأراضي المقدسة في مكة والمدينة التي اعتادت مصر أن ترسل لها في كل عام صرة الحرمين.«المراجع»

** نائب الملك، والصحيح نائب السلطان، أو الوالي العثماني . «المراجع»

- تم تكليف دي روسيتي بحل مسألة الديون.

- تصريح عثمان بك بفتح التجارة، لكن على باشا يعرقل تنفيذ التصريح بكل الوسائل، ويحقر من شأن الشعوب الأوربية وممثليها.

- الإقامة في الإسكندرية أصبحت لا تطاق.

- المماليك لا يفكرون في الهجوم على الإسكندرية، وعلي باشا ليست لديه قوات أيضا لمهاجمة المدينة .

الإسكندرية: ٢٥ نوفمبر ١٨٠٣.

أتشرف بأن أرفق إلى عظمتكم نسخة من خطابي المتواضع الأخير بتاريخ ١٠ من الشهر الماضي، ومع خطابي الحالي أجد نفسي ملزماً أن أخبر عظمتكم بحالة الضيق التي لا مفر منها، مع ترجمة لتصريح خورشيد باشا، الذي ستستنتج منه أن رعايا الإمبراطوريتين، وإنجلترا والسويد، زودوا خورشيد باشا بمبلغ ٢٥ ألف قرش، وذلك المبلغ قد ساهم رعايانا فيه بمبلغ ٦٢٥٠ قرش. بجانب ذلك أتشرف بتقديم التماس السيد فرانسيسكو بنسا، الذي يعتبر الدائن لمبلغ ٦٧٤٠٠ قرش عند خورشيد، الذي يُظهر دائماً عدم قدرته على تسديد التزاماته، وسوف يرسل الخازندار التابع له والموصى به من السيد برجس، الحاكم العام البريطاني، إلى جناب السيد دروموند Drumond [١] ومعه المستندات اللازمة؛ حتى يقوم بالاشتراك مع عظمتكم، ومع الوزير السويدي، بتوجيه شكوى إلى الباب العالي من أجل استعادة المبالغ الخاصة بكل من الدول سالفة الذكر.

الجميع مقتنعون بأن المسئولين الكبار حريصون على تعريف الباب العالي بالأثر المفيد جداً للقروض على دولته، وبصورة خاصة إنقاذ مدينة الإسكندرية، التي تعد واحدة من المفاتيح الرئيسة لمصر؛ لأنه لولا القروض المذكورة لسقطت المدينة في أيدي المماليك والألبانيين.

على أثر ثورات القاهرة، وتنصيب طاهر باشا بالولاية، فإن الباب العالي لن يتسبب في أية متاعب وحسب، ولكنه لن يسمح بأدنى ضرر للدول المذكورة من جانب خورشيد باشا، الذي وثق هذه القروض كتابة مع التزامه الكامل بتسديدها. ومن حسن الحظ أن مسألة الديون هذه قد تم تكليف السيد المبجل كارلو دي روسيتي، القنصل العام في القاهرة بإيجاد حلول لها، حيث طلب منه ممثلو الدول الأوروبية دعم طلبهم لدى جنابكم، فيما يتعلق بالنصيب الخاص بدولة

(١) W.Drummond، سفير إنجلترا في القسطنطينية بعد اللورد إلجنLord Elgin؛ كان مكلفا بهذه الوظيفة لبضعة شهور فقط، من مايو إلى نوفمبر ١٨٠٣، وتولى المنصب بعده ستراتون من نوفمبر ١٨٠٣ إلى يونيو ١٨٠٥ .

الإسكندرية*، والأخذ في الاعتبار الحالة التي ربما سنكون عليها ما لم يتم صرف الألبان ورحيلهم حال عدم توافر هذه القروض. ولهذا أرجو، ونرجو جميعا مساعي جنابكم الحميدة ونطلب المغفرة عن الجرأة والإزعاج؛ لأنه بدون مجيء علي باشا إلى الإسكندرية لم نكن لنحتاج لأن نرفع هذا الأمر إلى جنابكم، ولكان خورشيد باشا المعروف بإدارته الجيدة قد دبر من الموارد ما يكفي لتسديد ديوننا.

أخيراً في ٣١ من الشهر الجاري استقبلنا مفوض من رشيد ومعه خطابات من قناصل الإمبراطوريات الثلاث ** في القاهرة، معلنا أن صاحب العظمة عثمان بك يوافق على إعادة فتح التجارة بالشروط نفسها المعتادة التي تمليها قوانين الحرب. أوصلنا هذا الخبر السعيد في الحال إلى علي باشا باعتباره شيئا مهماً جدا بالنسبة له وبالنسبة لنا، ولكن لم يقتصر تلقيه ذلك الخبر بالبرود فحسب، وإنما أيضا بالتجبر والاحتقار وبكل أنواع الاحتيال التي يمكن أن يتخيلها المرء من رجل يحتقر بشدة، وفي العلن، وبدون أي اعتبار كل الدول الأوروبية وممثليها، إلى الحد الذي أتمنى أن تسمعه بالتفصيل من السيد دي روسيتي. ولو استمر على هذا الحال فترة من الوقت، فسوف تضطر الجماعات الإفرنجية أن تترك الإقامة في المدينة التي أصبحت اليوم لا تطاق.

لم تتم الموافقة لنا إلا على ستة زوارق فقط؛ لتمرير قسم صغير من الأغراض المخصصة للقاهرة إلى رشيد، ولسحب الأغراض التي من المفترض أن تستخدم لإتمام تحميل السفن التي كانت تعاني من التوقف طوال فترة الحروب.ولكن عند عودة تلك الزوارق التي رحلت أول أمس فقط، سوف يكون علينا أن نتوقع المتاعب الجديدة والتي لا نهاية لها، خاصة لصنف البن الذي لم يعرف طريقه حتى الآن إلى أوروبا، وبدون عودة هذه الزوارق فلن تقوم لتجارة فينسيا وتريسته أية قائمة.

الله وحده هو القادر على إنقاذنا من هذه الحكومة الظالمة، ويمنحنا القوة لانتظار الخاتمة التي لا يعرف أحد كيف تكون، لأن لدينا بعض الدلائل التي تؤكد أن المماليك لا يفكرون أبدا في المجيء لمهاجمة الإسكندرية، ولا يملك علي باشا من القوة ما يكفي لمهاجمتها، وكبرياؤه يمنعه من الالتزام بالمعاهدات؛ ونتيجة لذلك فنحن رهن أفكاره.

مع عميق احترامي ».

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٢٨.

* إطلاق عبارة دولة الإسكندرية قد ترجع إلى أن الإسكندرية كانت مدينة قائمة بذاتها ولم تكن قد اندمجت بعد في الولاية المصرية ، ولم يحدث ذلك الاندماج إلا بعد هزيمة حملة فريزر في السنوات الأولى من عهد محمد علي، وعلى وجه التحديد في عام ١٨٠٧. «المراجع»

** الإمبراطوريات الثلاث المشار إليها هي على الأرجح إمبراطورية النمسا، وروسيا، وبريطانيا . « المراجع»

٤٧ - أحداث الإسكندرية

(محضر اجتماع مجلس القناصل)

موجز

- بسبب الحالة المرضية للقنصل فانتوتسيFantozzi، يجتمع القناصل على متن السفينة الإمبراطورية.
- يتم مناقشة الاقتراحات التي يقدمها علي باشا إلى القناصل، فيما يتعلق بإصلاح الإهانات الموجهة إليهم .
- عديد من الاعتبارات تؤدي بالقناصل إلى قبول عروض الإصلاح.
- القنصل جودار يشارك بصفته نائب القنصل الإمبراطوري، وليس بصفته قنصل إمبراطور البلاد الروسية كلها. الإهانة الموجهة إلى العلم الروسي خطيرة جدا .
- لسبب مماثل شارك القنصل فانتوتسي بصفته قنصل ملك نابولي، وليس بصفته قنصل ملك السويد.

الإسكندرية: أول ديسمبر ١٨٠٣

في أول ديسمبر من عام ١٨٠٣ الموافق اليوم التاسع من شهر بريميير (الأول) من السنة الثانية عشرة للجمهورية الفرنسية وفي الساعة الثامنة مساء، اجتمع الموقعون أدناه على متن الفرقاطة الإمبراطورية «بوبي Pobêa» الصغيرة، نظرا للحالة المرضية التي منعت السيد فانتوتسي القنصل العام لصاحب الجلالة ملك السويد، من الحضور على متن السفينة «أميرال» من سفن البحرية العثمانية، وهو المكان المعتاد لعقد مجلسهم، وذلك للتداول حول قبول أو رفض مقترحات صاحب العظمة علي باشا، نائب الملك على مصر كلها، التي اقترحها نهار اليوم على الموقعين أدناه بواسطة لجنة من أصحاب العظمة خورشيد باشا، وكابيتانا بك، وسالي أغا، وتتمثل هذه المقترحات في عرض لبعض الإصلاحات لموضوعات الشكاوى والإهانات، التي جعلت الموقعين أدناه يتخذون إجراء ترك إقامتهم في الإسكندرية، وبأن يتعهد علي باشا بالاشتراك مع أصحاب العظمة المذكورين بالعمل من الآن فصاعداً على إيقاف جميع أنواع التعسف المخالفة للاتفاقيات والتي تنتهك السلامة والأمن الشخصيين للموقعين أدناه، ولعائلاتهم، ومواطنيهم، والخاضعين لحمايتهم، والمزعجة لمصالح منشأتهم التجارية، وأخيراً كفالة التكريم لأعلام دول القناصل المعنيين، وأشخاصهم بعد أن تم إنزالها إلى الأرض بما يشهد على الاحترام الذي يكنه أصحاب العظمة للحكومات التي يتشرف الموقعون أدناه بتمثيلها.

نوقشت المقترحات، وبعد المداولة الخاصة بينهم قال القناصل العموم للجمهورية الفرنسية، ولصاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى، ووكيل المفتش العام للعلاقات التجارية للجمهورية

الفرنسية، إن الإهانة التي حاقت بأعلام، وشعارات صاحب السمو إمبراطور البلاد الروسية كلها وملك السويد كانت هي الأخطر ويجب الشكوى منها، ونظرا لطبيعتها فإنها تتطلب إصلاحا قويا، وكان على قناصل أصحاب الجلالة المذكورين توضيح آرائهم التي سوف تستخدم كقاعدة يسير عليها الآخرون؛ لأنها كانت أساسا لجميع المناقشات التي تهدف إلى الصالح العام، وعلى كل ما يتخذ لصالح القضية المشتركة.

وبناء على هذا فإن السيد جودار أعلن بصفته قنصل صاحب الجلالة إمبراطور البلاد الروسية كلها أنه لا يستطيع أن ينصت لأي من هذه المقترحات، ولا يستطيع أن يتفاوض على إهانة علم صاحب الجلالة المذكور دون الرجوع إلى القنصل العام بالقاهرة، والذي ينتظر منه الأوامر والتعليمات اللازمة في هذا الموضوع، ولكنه بصفته نائب القنصل الإمبراطوري يعتقد أنه يستطيع أن ينصت إلى مقترحات الإصلاح التي قدمها صاحب العظمة علي باشا.

كذلك أعلن السيد فانتوتسي بصفته قنصل صاحب الجلالة ملك السويد أنه لا يستطيع أن يدخل في مفاوضات بشأن الإهانة التي لحقت بشعار صاحب الجلالة المذكور، ولكنه بصفته قنصل صاحب الجلالة ملك نابولي، والمفتش العام للعلاقات التجارية للجمهورية الفرنسية يعتقد أنه يملك سلطة التفاوض.

وعقب هذه الآراء أعلن السيد ستافراتشي Stavrachy أنه ليس لديه ما يشكو منه، وليست لديه قضية مشتركة مع باقي القناصل، ولهذا فلا يوجد ما يمنعه من الإنصات لجميع المقترحات التي تتناسب مع الصالح العام. وأخيرا انضم قناصل إسبانيا، وإنجلترا، ووكيل المفتش الفرنسي للعلاقات التجارية إلى هذه الآراء سواء؛ بالتأكيد على أن هذه الإهانات تستحق إصلاحًا في المكان نفسه، وبهذه الاعتبارات المشتركة، فإنه ينبغي على جميع الموقعين أدناه أن يتبينوا أن صاحب العظمة علي باشا قد منحهم سلطة تقديم مقترحات لطرق إصلاح ما تعرضوا له من إهانات، ومن ثم فهم يستطيعون اقتراح ما يليق بشرف حكوماتهم، وما هو في صالح منشآتهم التجارية، التي تشكل الهدف الرئيسي لمهمتهم في هذه البلاد، لأن أقل ترضية، بشرط أن تكون في العلن، سوف يكون لها آثار جيدة على الروح المعنوية للسكان. وعلى أن يفرض على المجرمين، وعلى الجرائم التي وقعت عقوبات صارمة يمكن أن تضمن السكينة والأمان للإفرنج الذين تقتضي الحاجة لوجودهم بالإسكندرية.

لكل هذه الأفكار والآراء تم الاتفاق بالإجماع على ما يلي:

١- أن يعلن السيدان جودار وفانتوتسي بصفتيهما قنصلين لإمبراطور جميع البلاد الروسية والسويد إلى صاحب العظمة علي باشا أنهما لا يستطيعان سماع أية مقترحات للتسوية بشأن الإهانات التي لحقت بعلم وشعار صاحبي الجلالة المذكورين.

٢- إن كلاً من السيد جودار وفانتوتسي، الأول بصفته نائبا للقنصل الإمبراطوري والثاني بصفته قنصل صاحب الجلالة ملك نابولي، بالإضافة إلى الآخرين، سوف يستمعون إلى مقترحات التسوية التي ستقدم لهم، وأنهم سوف يعملون في نهار اليوم التالي على صياغة بنود يتم الاتفاق عليها؛ لتقديمها إلى صاحب العظمة علي باشا، وبتنفيذها يمكنهم قبول العرض الذي قدم لهم وأن ينزلوا من السفينة إلى الأرض؛ لكي يرفعوا أعلامهم في مدينة الإسكندرية.

٤٨ - من دى روسيتي إلى ستورمر

موجز

-دعوة علي باشا للبكوات للانتقال إلى الإسكندرية .

- إهانات خطيرة موجهة إلى الأوروبيين ولممثليهم القناصل في الإسكندرية .

- هؤلاء لم يتلقوا ترضية من علي باشا، فانسحبوا على متن سفينة رياله بك .

- روسيتي يرجو السفير البابوي أن يطلب من الباب العالي استدعاء علي باشا.

- يتصف علي باشا بالعنف، وأنه جشع ومحتقر للأوروبيين.

- إذا ذهب علي باشا إلى القاهرة سيكون أسوأ من ذهابه إلى الإسكندرية .

- وصول فرمان من الباب العالي يأمر الألبانيين بالعودة إلى وطنهم .

- إهانات علي باشا للأوروبيين ستستفز القوتين المتحاربتين للتدخل.

- مؤشرات على احتمال قدوم الإنجليز .

- تعيين بكوات جدد.

- عدم الرضا من بعضهم .

- بلغنا من الإسكندرية أن التجارة أعيد تنشيطها، والقناصل يستعدون للنزول من السفينة .

القاهرة: ٥ ديسمبر ١٨٠٣

بعد تقريري المؤرخ في ١٨ نوفمبر دعا البكوات علي باشا لأن يحضر إلى هنا قائلين له إنهم كانوا قد بحثوا هذا الحضور بناء على أوامر الباب العالي. كان علي باشا، قبل وصول الرسول حامل الدعوة المذكورة، قد أعد الاستعدادات اللازمة للقيام بالرحلة. المراكب التجارية التي كانوا قد احتجزوها في رشيد، تم إطلاق سراحها قبل أن يصل إلى هناك الضابط المرسل من هنا، واحتجزها علي باشا فيما بعد في الإسكندرية حتى مرور طاقمه والجنود إلى رشيد.

الضابط المرسل إلى رشيد لإعادة الاتصال مع الإسكندرية ولاسترداد مبلغ ١٤٠٠٠ قرش، التي أراد زعيم الأرناؤوط جمعها قسراً من الحجيج، عاد بدون أي نجاح يذكر في استرداد المبلغ المذكور، لأن الحجاج كانوا قد سافروا بالفعل. التحصيل الجبري قام به الوكيل الإنجليزي مع وكيلنا ضمن مشروع إعادة صرفه على الآثار الناجمة عن أعمال السلب، ولكن المشروع ما يزال معلقاً.

في الإسكندرية وقعت أشد الأحداث المؤسفة؛ كان علي باشا هو القدوة السيئة في احتقاره للممثلين الأوروبيين مما شجع جنوده للقيام ببعض التجاوزات؛ فبدأ هؤلاء بالقيام بإطلاق النار يميناً ويساراً مارين بالحي الأوروبي، وفي ١٦من الشهر الماضي (نوفمبر)، وفي أثناء عودتهم من التدريب مع كيابا بك، لم يكتفوا بتوجيه بعض الإهانات إلى الأوروبيين الذين قابلوهم، بل كانوا يطلقون النار على الشعارات السامية، والأعلام التي علقت على أبواب ممثلي الدول الأوروبية كلها، وبدون استثناء. إهانات خطيرة تسببت في احتجاجات أكثر من قوة أوروبية على علي باشا، الذي لم يبالِ بإعطائهم أدنى ترضية، فاستقر رأي الجميع على الانسحاب على متن سفينة رياله بك، الذي استقبلهم بالتأكيد. أما عموم المواطنين فقد فروا إلى متن السفن الأوروبية التجارية المختلفة، الأوائل احتجوا على علي باشا مهددين ألا يعودوا إلى القنصليات إلا بعد ترضية كافية عن الإهانات التي وجهت لهم سواء من علي باشا أو من جنوده. لدينا تقرير من كل نواب القناصل بالإسكندرية، لكن ليس لدينا أنباء عن الأحداث الأخيرة إلا بلاغ عرضي من رشيد، يؤكد أن الممثلين المتحدين بالإسكندرية أرسلوا من هناك سفينة تجارية إلى الوزراء الموقرين بتفصيل لتلك الأحداث المؤسفة، وتقرير آخر إلى دمياط مع تقرير لنا أيضا، نظراً لأن علي باشا لم يسمح لهم بإرسال حقائب بريد، أو قوارب بصورة مباشرة.

لن يسمح الوقت الحالي بسهولة لرسو السفينة التي أرسلوها إلى دمياط، ويحتمل أن تستقبل عظمتك هذا التقرير المؤسف قبلي، والذي سيدفع عظمتكم بالتأكيد وكل الوزراء

الموقرين ليحتجوا بصورة شديدة؛ لأنه لو لم يتم إيقاف علي باشا فورا واستدعاؤه، فلن يستطيع أي أوروبي أن يعيش في هذه المملكة بعد اليوم.

يحتاج الباب العالي إلى كل إيرادات مصر كما ستلاحظ عظمتكم من الترجمة للخط الشريف الذي أرسلته لكم، ويريد أن يعين وزيراً للمالية يقوم بجمع هذه الإيرادات.

أعتقد أن الفساد المعروف عن علي باشا يجعله يتخذ أعلى درجة من الاحتقار تجاه الأوروبيين جميعا، حتى لا يبقى شخصٌ واحد منهم في هذه المملكة، ومن ثم لا يتبقى أمامه أية معارضة للاحتكار والابتزاز، التي يستطيع من خلالهما أن يشبع جشعه.

وفي الإسكندرية أظهر علي باشا أعلى درجة من هذا الجشع المميت بالفعل. فهو لا يريد أن تنتقل البضائع إلى رشيد، إلا بعد دفع الآلاف من القروش. وكل التجار، سواء الإسكندريون أو الأجانب، يتم القبض عليهم ومعاملتهم معاملة سيئة، بحجج واهية ولا يستطيعون أن يخلصوا أنفسهم إلا بعد ضياع ثرواتهم.

ولو جاء علي باشا إلى القاهرة، سيكون سلوكه أسوأ، ويؤدي ذلك إلى الخراب لتجار البلد، وستظل أيضا تجارة الأوروبيين مدمرة. وعلى ذلك سوف يكون من الضروري جدا أن يتم إبعاده.

كنت أريد أن أرسل إلى عظمتكم ترجمة الخط الشريف الآخر الذي تلقاه الزعماء الألبانيون، ولكنه لم يصلني حتى الآن. مضمون الخط الشريف هو ضمان العفو عنهم وتشجيعهم على العودة إلى أهاليهم الذين ينتظرونهم بفارغ الصبر.

يعرف الباب العالي جيدا أن الألبانيين لن يخرجوا من مصر إذا لم يدفع لهم أولا، ولذلك فسوف يناصرون الحزب الذي سوف يعتقدون أنه أكثر احتمالا في الوصول إلى السلطة. فإذا ناصروا حزب علي باشا فسوف تقع مجازر لا حصر لها، لأنه إذا كان القائد وحشياً دموياً فاسداً فسوف يكون الجنود كذلك فاسدين وشرسين، ولن يؤدي هذا إلا للضياع الكامل لمصر.

وقيل إن محمد باشا عزتلي، الصدر الأعظم السابق، كان من المفروض أن يأتي إلى هنا، ورقّته وأسلوبه المهذب قد يكون لهما تأثير قوي في طمأنة هذه المملكة، وضمان مصالح الباب العالي على عكس التعاملات الحقيرة والسيئة من علي باشا لممثلي القوى الأوروبية جميعا في الإسكندرية، والإهانات المتكررة التي يقوم بها جنوده ضد شعاراتهم وأعلامهم، التي يمكن أن

تستخدم كحجة قوية من جانب القوتين المتحاربتين العظميين * من أجل العودة بأسلحتهم؛ ومن يسبق منهم سوف يمنع الآخر من دخول المملكة، ولا يعرف ماذا سيصيبنا من عناء مجددا. أرجو ألا أغيب عن نظر معاليكم، وأن تبلغوني بالتوصيات التي تعتقدون أنها يمكن أن تبعدني عن المضايقات.

الإبريق الإنجليزي، الذي جاء بالكابتن تابرنا Taberna [1] من مالطة، تم إرساله مرة أخرى إلى هنا من جانب السيد المقيم الأكبر ميسيه، وذلك قبل وقوع التجاوزات التي قام بها علي باشا في الإسكندرية.

والآن السيد المقيم سوف يرسل الكابتن تابرنا مع طبيبه الخاص إلى دمياط، حيث من المفروض أن ينتقل إلى مالطة.

أعتقد أن هذه الإرسالية تحاول أن تعجل بقدوم الجيش الإنجليزي إلى الإسكندرية، والذي سيتبعه الفرنسيون بسهولة ولا أعرف أي سلوك سيتعامل به علي باشا الغاضب مع الأوروبيين.

استعجل خلفاء البكوات المتوفين عقب وصول الفرنسيين في تعيين أنفسهم في منصب البكوات، وأراد الثلاثة بكوات الرئيسيون ترقية بعض رجالهم إلى درجة البكوية؛ لتتوازن قواتهم، ولما كان هؤلاء الذين كان من المفترض أن يحلوا محل المتوفين ينوون أن ينقلوا إلى أنفسهم

---

* المقصود بالقوتين المتحاربتين العظميين هما إنجلترا وفرنسا . وكل منهما كان يتطلع إلى النفوذ، والعودة إلى مصر. «المراجع».

(١) Vincenzo Taberna من أصل بيومونتي، تم اختطافه عندما كان شابا من جانب (القراصنة) المسلمين وبيع كعبد إلى علي بك الكبير، البك المشهور الذي نجح في إخراج مصر لبضع سنوات (١٧٦٨- ١٧٧٣) من تبعية الباب العالي . ولشجاعته وإخلاصه حصل تابرنا على رضا الحاكم، الذي استخدمه في مهام عظيمة. وبعد وفاة علي بك، ظل تابرنا مع المماليك، وقاتل معهم ضد الفرنسيين الذين غزوا مصر . وعندما وصل الجيشان التركي والإنجليزي إلى مصر (١٨٠١)، التحق بخدمة أركان حرب الجيش الإنجليزي، حيث أدى له خدمات خاصة لتحرير المماليك من يد الصدر الأعظم. وبعد أن ترك مصر مع الإنجليز، عاد إليها كمبعوث إلى البكوات، حسبما يتضح من هذه الوثيقة، ثم عمل سكرتيراً ومترجماً في البعثة البريطانية. وفي أثناء الحملة العسكرية الخاسرة التي قام بها الإنجليز عام ١٨٠٧ ضد محمد علي، خدم تابرنا كمرشد ومترجم في جيشهم، وتم أسره، ويظهر اسمه مقرونا بلقب الكابتن في صدر قائمة الضباط الإنجليز الذين سقطوا في أيدي العدو . راجع L.A.Baldini، الإيطاليون في الحضارة المصرية للقرن التاسع عشر، إسكندرية مصر، ١٩٠٦، المجلد الأول، الصفحات من ٢١٢ إلى ٢١٤، Charles Roux op. cit. المجلد الثاني، صفحة ٣٣٩ . Douin et Fawtier - Jones, op. cit. ، صفحة ١٠٨؛ إنجلترا ومصر، حملة ١٨٠٧، القاهرة ١٩٢٨، ص ٥٧ .

إرثهم كله طبقا للعادات القديمة، فإن عثمان بك البرديسي أعلمهم أنه بسبب الظروف الطارئة ومن أجل الحفاظ على القوات وإعاشتها، فإن من الأجدر بهم أن يحصلوا فقط على ما يكفي لإعاشتهم عيشة كريمة، وأن يذهب الباقي إلى الأموال الأميرية، حيث تصرف على النفقات العامة، ونظرا لأن عدد المماليك قد قل إلى درجة كبيرة فإن نفقات البكوات الجدد لن تكون بالمعيار نفسه الذي كانت عليه نفقات البكوات الراحلين.

وقد أكد الطامحون في البكوية أنهم يريدون كل شيء، وانسحبوا بعنف إلى أثر النبي وهي منطقة متاخمة للقاهرة تفصل بين مصر العليا، ومصر السفلى. وقد تدخل العديد من رفاقهم بنجاح ليحصلوا لهم على موافقة عثمان بك البرديسي، وأخيرا تم اليوم تعيين ١٥ بك، ستطالع عظمتكم أسماءهم في المذكرة المرفقة، وكذلك أسماء البكوات الذين كانوا موجودين من قبل، ليصبح عددهم الآن ٢٧، وهو ما يساوي سدس عدد المماليك الذين كانوا موجودين في السابق.

لا أعرف كيف سيتقبل علي باشا هذا الأمر، فالأرناؤوط في أثناء خروج البكوات من القلعة بأبهة عظيمة وبهرجة غضبوا واضطربوا، ولكن عثمان بك هدأ الأمر بوعده لشقيق طاهر باشا (والذي كان أكثر من أثار الفتنة) بدفع ثلاثمائة وخمسين كيسا التي كانت متبقية لهم، ودفع لهم على الفور مائة كيس.

في هذه اللحظة وصل بريد من الإسكندرية بخطابات تعلن أن المختص الجمركي أخبر الجماعات الإفرنجية أنهم يستطيعون أن ينزلوا من السفينة ليعتنوا بشئونهم، وأنهم سيجدون كل الحماية، والرعاية، ... إلخ.

بينما لا يزال القناصل موجودين على متن سفينة رياله بك، لكنهم سوف يهبطون منها قريبا؛ وفي الوقت نفسه أذيع في الإسكندرية أن حركة المرور أصبحت حرة لكل الدول، وتم شحن العديد من السفن التجارية للذهاب إلى رشيد، ولم يمنعها من ترك الإسكندرية سوى الجو العاصف.

لم أتلق رسميا حتى الآن هذا الخبر السعيد من السيد جودار، ولكن ليس من المتوقع أن يتأخر في الوصول.

مع خالص التقدير لعظمتكم »

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٣

٤٩- من جودار إلى ستورمر

موجز

- استمرار الجمود التجاري.
- انسحاب المماليك إلى القاهرة، ولكن حامياتهم العسكرية لا تزال تحتل رشيد، والقرى المجاورة للإسكندرية.
- استمرار الإلحاح على علي باشا ليفتح حركة التجارة.
- ردوده مراوغة.
- موافقته على السماح بإرسال خطابات إلى القاهرة إلى الثلاثة قناصل العموم.
- لكنه فرض بعض الشروط.
- ومع ذلك تم اعتراض الخطابات من جانب قائد رشيد، وأرسلت إلى عثمان بك بالقاهرة .
- بعدها علم القناصل بالأمر .
- ينتظر ردهم .
- من المأمول أن ينجح القناصل في الحصول على استئناف نشاط التجارة من الحكومة بالقاهرة .
- لا يزال وضع الأوروبيين مؤلما .
- كثرة طلب الأموال من جانب علي باشا ومن خورشيد باشا.

الإسكندرية : ١٠ ديسمبر ١٨٠٣

لي الشرف أن أرفق نسخة من خطابي الأخير بتاريخ ٢٥ الشهر الماضي، وأحمل إلى عظمتكم مدى الحزن الذي أشعر به لأن السوق لا يزال في حالة من الجمود التجاري لنقص الاتصالات مع رشيد والقاهرة.

انسحب المماليك إلى القاهرة بصورة فعلية، ولكن رشيد والقرى المجاورة للإسكندرية لا تزال في سلطة حامياتهم العسكرية الألبانية، ولم نتوصل إلى معرفة السبب في إيقاف النزاع المسلح.

لم تتوقف الوساطات لحمل صاحب العظمة علي باشا إلى الاهتمام بإعادة فتح حركة تجارة البضائع، والاستيراد والتصدير مع القاهرة، وبتنفيذ مطالبنا التي تستشعرها الشعوب الأوروبية، ولكن الردود على هذه الوساطات كانت مماطلة وخادعة لكسب الوقت.

وأخيراً بعد ضغط متواصل من ممثلينا، وافق علي باشا، في يوم ٢٧ من الشهر الماضي، على أنه يمكن إرسال حقيبة بريد إلى القاهرة عن طريق رشيد بها خطابات، بدون تشميع؛ لأنه يريد

قراءة الخطابات الموجهة إلى القناصل العموم الإمبراطوري والإنجليزي والفرنسي؛ وأن هذه الخطابات لابد أن تصاغ لكي تظهر أنهم يأملون في الحصول من علي باشا على تصريح لإرسال بضائعهم إلى القاهرة، وتهيئة مسئولينا الكبار للحصول على التصريح نفسه من الحكومة بالقاهرة، وعلي باشا يقصد بهذا ألا يعرض كرامته للاهتزاز بأن المماليك كانوا هم أول من طالبوا بهذا التنازل، وفي جميع الأحوال فإن التنازل يتم لبلوغ الهدف، وهو مصلحة التجار الذين تمت التضحية بها.

وأخيرا، تم إرسال حقيبة بريد بها ثلاث رسائل غير مباشرة إلى القناصل العموم الثلاثة، عن طريق الوكيل الإنجليزي في رشيد، حيث إن الوكيل الإمبراطورى في القاهرة كان يعرف، ولحسن الحظ أنه تم اتخاذ مثل هذا الإجراء؛ لأن الإرسالية تم اعتراضها من جانب البك قائد رشيد الذي انتزع منها الرسائل الثلاث المتجهة إلى القاهرة، وأرسل فقط الرسالة المرفقة إلى الوكيل في رشيد، وبموجبها طالب بالرسائل الثلاث، وأجاب عليه البك أنه بموجب أوامر عثمان بك البرديسي، القائد العام للجيش المملوكي، أنه فعل ما فعله بالرسائل الثلاث، وفي الحال أرسل الوكيل الإنجليزي بريداً إلى القناصل الثلاثة المذكورين في مصر؛ حتى يطالبوا برسائلهم، وننتظر بفارغ الصبر ردودهم ونتيجة تدخلاتهم لدى الحكومة في القاهرة، ولدينا دلائل متعددة تبعث فينا الأمل بألا يكون هناك تعاطف لصالح تجارتنا وحسب، بل أيضا تسهيل خروج الأصناف التجارية الأخرى، الأمر الذي نرغب في حدوثه بشدة حتى نثبت لعلي باشا أن جميع الصعوبات وتحت أي مظهر كانت بسببه، وأنه يتصرف دائما ضد جميع الشعوب والدول والمصالح الأوروبية تصرف العدو أكثر من تصرف الصديق، مما يتسبب في إحداث حالة من الاستياء.

الأمتعة كلها التي تم وضعها على متن السفن التجارية، أنزلت من جديد إلى الأرض سواء بسبب الطقس في هذا الميناء السيء، أو بسبب القيود المفروضة. وهذا هو وضعنا المؤلم على أية حال دون أن تكون لنا القدرة على تقدير حد له، والذي نتوقع للأسف أن يكون بعيدا؛ كما لا نستطيع أن نفهم بأية موارد يأمل علي باشا أن يحافظ على وضعه في هذا البلد الصغير المنهك.

المطالبة بالأموال من جانب علي باشا وخورشيد باشا إلى كل ممثلي الدول الأوروبية، وبصورة خاصة دولتنا باعتبار أن رعاياها هم الأكبر عددا، ما تزال مستمرةو ونحن نطالبه بالتلميح بفتح التجارة، الأمر الذي قد يمكنه من الحصول على بعض الأموال بواسطة الجمارك، ونذكره أيضا أن قروضنا(١) هي التي أنقذت الإسكندرية لتبقى في سلطة الباب العالي، وهو الأمر الذي لا يمكن إنكاره، ولكنه كان لا يصغي إلى أي شيء لا يشبع رغبته واحتياجاته، وهذا هو السبب الواضح حتى الآن للمتاعب والمظالم التي يذيقنا إياها.

---

(١) دفع مال مقدما، قروض .

أتمنى ألا تشعر بضيق في ظل فقدان الاتصالات مع القاهرة، لأنني أحيط عظمتكم علما بما يجري في هذا الميناء.

وإذا كنت أتحدث إلى عظمتكم بحرارة شديدة تجاه علي باشا، فإنني ألتمس أن ترجعوا هذا إلى المتاعب التي يجعلنا نعيش فيها، في الوقت الذي كان الأوروبيون يستحقون شيئا من العرفان بالجميل بعد كل ما فعلوه قبل وصوله، وهو ما أستطيع أن أخبر عظمتكم به في خطاب آخر.

مع خالص احترامي »

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٢٨.

٥٠ - من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- ما زال لا يوجد تأكيد رسمي من الإسكندرية أن القناصل تلقوا ترضية من علي باشا .
- يجب على الباب العالي أن يصلح بسرعة الإهانة الموجهة إلى ممثلي السلطات الأوروبية لو أراد أن يبطل أية ذريعة لغزو جديد.
- علي باشا في طريقه إلى القاهرة .
- تخوفات دي روسيتي من هذا القدوم .
- تعاملات القنصلين الإنجليزي والفرنسي مع البكوات .
- وصول Filippo Agnello في بعثة علمية .
- سوف يساعده دي روسيتي .

القاهرة: ١٠ ديسمبر ١٨٠٣.

أود أن يصل خطابي بتاريخ ٥ الشهر الحالي، المرسل ثلاث مرات، بسرعة إلى عناية عظمتكم.

كنت في انتظار سماع الأخبار المحققة التي نوهت عنها، والقادمة من جانب بعض المواطنين بالإسكندرية، لكن مع بالغ أسفي لم تصلني بعد الخطابات الرسمية، الأمر الذي يؤكد أن الممثلين الأوروبيين هناك لم يتلقوا بعد من علي باشا الترضية التي يتطلبها الموقف الخطير. ولم يزعجني نفور علي باشا المذكور؛ لأن الترضية سوف تكون على القدر نفسه.

لابد أن عظمتكم والوزراء الموقرين الأخرين قد سمعتم بالإهانة الفظيعة الموجهة إلى شعارات وأعلام كل القوى الأوروبية، ولابد أنكم دعوتم الباب العالي لإصلاح مثل هذه الإهانة الكبيرة. فلن يخسر الباب العالي أي شيء إذا خلع عن مصر هذا الشخص المؤذي، لكنه يجب أن يسرع في ذلك ليكسب الوقت حتى يبطل حجة أي غزو جديد، وهو الحدث الذي أرجو عظمتك أن تفكر فيه، إذ إنه يبدو لي مؤكدا.

يقال إن علي باشا في طريقه إلى القاهرة. ويرى البكوات أنه قادم لكي يهرب بينهم، وليس لكي يحكم، ولذلك فقد سمحوا له بالقدوم مع جنوده.

يوجد الكثير من الإنكشاريين في جماعة الألبانيين الموجودين هنا، ومن المحتمل جدا أن يتحد هؤلاء مع جنود علي باشا المنتظر قدومهم، ومن المتوقع أن يتمرد الألبان، الذين مهما بدوا غير متحدين إلا أنني أتصور أنهم متفقون فيما بينهم، وأخاف أن تؤدي حجة الأجور المتأخرة إلى تصاعد الدمار.

يتعامل ممثلا القوتين* المتخاصمتين سياسيا، وكل واحد منهما منتبه جدا لخطوات الأخر، وكلاهما حريص على تأليب البكوات، ويقدمان لهم بالتناوب منحا وعروضا، لا يستطيع البكوات إخفاءها بصورة كاملة، بطريقة تجعل كلا منهما يطلع على نوايا الآخر.

وصل إلى هنا، منذ ٢٨ يوما تقريبا، السيد فيليبو أنجيلو لينتقل إلى مصر العليا ليجمع الأسماك والطيور النادرة ومن ثم يثري ديوان التاريخ الطبيعي لصاحب الجلالة ملكنا الرحيم. وقد أوصاني صاحب العظمة لويجي كونتى كوبنزل Luigi Conte Cobenzl [1] به كثيرا، وكنت أود أن أذهب إليه في مقره لو لم تكن الحكومة غير مستقرة الأوضاع بهذا الشكل. الآن ولم تعد الحكومة كذلك ويستعد حسن بك ليكون حاكما لمصر العليا كلها، فسوف أرسله إليه ومعه توصية جيدة من الحكومة، وتوصيات مني إلى العديد من المواطنين، وكلي رغبة في أن ينجح في العثور على ما يسعد صاحب الجلالة.

مع أسمى التقدير والاعتبار ،،

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٣.

---

* إنجلترا وفرنسا. «المراجع»

(١) ولد في بروكسيل عام ١٧٥٣ وتوفى في فيينا عام ١٨٠٩، كان أحد المعارضين الأشداء للثورة الفرنسية وضد نابليون، تولى وزارة الشئون الخارجية من عام ١٨٠١ إلى عام ١٨٠٦.

١٨٠٤

٥١ - أحداث الإسكندرية

تقرير كارلو فانتوتسي، القنصل العام لصقلية والسويد في مصر، إلى السيد فالنWallen القائم بأعمال صاحب الجلالة السويدي في القسطنطينية.

موجز

- اقتراحات الإصلاح المقدمة من علي باشا إلى القناصل.
- القناصل يوافقون.
- يشارك فانتوتسي باعتباره ممثلا لصاحب الجلالة الملك الصقلي فقط.
- التكريم الذي يستقبل به علي باشا القناصل عندما ينزلون من السفينة.
- فانتوتسي يحث على إيجاد ترضية واضحة باعتباره ممثلا لصاحب الجلالة السويدي.

الإسكندرية: يناير ١٨٠٤

تشرفت بأن أرسلت لكم بتقاريري أول الشهر الماضي ومرفق بهذا نسخة مطابقة، وبها بعض القطع التي أرفع عنها تقريراً كاملاً.

ومنذ ذلك الحين تلقى القناصل مقترحات ترضية مختلفة من علي باشا وقد وافقوا عليها بعد المداولة العامة. وتستطيعون سيادتكم رؤية موجز لها في القطعتين المرفقتين رقمي ١١ و١٢، وقد قبلها السادة القناصل وكذلك قبلتها أنا، باعتباري نائبا لقنصل صاحب الجلالة ملك صقلية، نظرا لأنني، كما أوضحت في خطابي الماضي، أردت أن أظهر للحكومة التركية أنني علقت تمثيلي لصاحب الجلالة ملك السويد، حتى يتم إصلاح ما تم من إهانة بصورة قوية ومرضية.

وأخيراً وافق القناصل على مقترحات علي باشا، ونزلوا من السفينة للبر بكل تشريف وتكريم ممكنين. وعند نزولنا من سفينة كابيتانا بك حيّتنا فرقة الجيش العثماني بعدة طلقات من المدفعية، وما أن وصلنا إلى الشاطئ؛ حتى وجدنا جميع قادة علي باشا وضباطه في استقبالنا، وعلى صوت العديد من الآلات الموسيقية التي صاحبتنا نحن القناصل ومترجمينا، وكان كل قنصل تلوح أمامه رايته، ثم دخلنا إلى المدينة وذهب كل منا إلى مقره حيث رفعنا أعلامنا، التي تلقت تحية بإحدى وعشرين طلقة مدفعية من كل حصن.

هذا ملخص للاستقبال الذي استقبلونا به عند عودتنا إلى المدينة، وواجبي الآن هو تجديد الحث والإلحاح القوي من أجل الحصول على ترضية قوية ومؤثرة لصاحب الجلالة ملك السويد. وأنا أنتظر أن يكون ما سيفعلونه معي مساويا لما سوف يفعلونه مع نائب القنصل الروسي هنا. وأتعشم يا سيدي أن تحصلوا من الباب العالي على تعويض قدره ١٢٠٠ فرنك وهو المبلغ الذي اضطررت لإنفاقه، وفي النهاية أنتظر في أول خطاب لكم ردا وافيا شافيا.

منذ عدة أيام سافر علي باشا إلى القاهرة، وأصبحت المدينة تنعم بالهدوء التام.

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٥.

٥٢ - أحداث الإسكندرية

ترجمة فرمان موجه إلى علي باشا، والي مصر، وإلى حسين شاكي زعيم الأوزبك، المندوب المكلف بتنفيذ الفرمان الحالي.

موجز

- وفقا للمعاهدات المبرمة بين الباب العالي والقوى الأوروبية، يجب ضمان الأمن المطلق لمثليهم.
- تم تقديم احتجاجات إلى الباب العالي بشأن الإهانات الخطيرة الموجهة إلى الممثلين الأوروبيين من قبل الجنود العثمانيين .
- السلطات بالإسكندرية لم تمنع هذه الإهانات أو تعاقب عليها رغم الشكاوى المقدمة من الممثلين الأوروبيين.
- الصدر الأعظم كتب إلى الباشا لكي يعمل على ترضية الممثلين الأوروبيين، لكنه لم يتلق رداً .
- أوامر إلى الوالي بدعوة الممثلين الأوروبيين بالعودة إلى مقرات قنصلياتهم واستقبالهم بأكرم طريقة، وأن يضمن لهم الأمان الكامل ويعاقب المذنبين .
- الباب العالي يطلب من الوالي أن ينفذ هذه الأوامر فورا وأن ينتظر التعليمات التي سترسل إليه عن طريق المندوب المكلف بتنفيذ الفرمان.

القسطنطينية: ١٠ فبراير ١٨٠٤

وفقًا للمعاهدات المبرمة بين بابنا العالي والقوى الأوروبية الصديقة للإمبراطورية العثمانية فإنه يجب إسباغ الحماية الخاصة على القناصل ونواب القناصل المقيمين بالإسكندرية بموجب بيرات أو فرمان لرعاية مصالح مواطنيهم. هذا هو المعنى الموجز للمعاهدات.

بيد أنه وصل إلى علمنا الإمبراطوري أن القوات العسكرية، عملاً بأوامركم غير الموفقة، قاموا بإطلاق النار على منازل القناصل المذكورين، الواقعة في الحي الإفرنجي، ولم تتوقف كافة أنواع التجاوزات التي عكرت صفو هدوئهم. وأنه في يوم ١٥ نوفمبر الماضي قام جنود تلك القوات بأوامر من حسين بك ومن الكيايا الخاص بكم وهم عائدون من التدريبات، بإطلاق العديد من طلقات البنادق على نوافذ البيوت الأوروبية، وأن المقرات الأوروبية لم تنج من هذه الإهانات التي لحقت ببعض الأعلام والشعارات، وأنه على الرغم من تقدم الممثلين الرسميين لتلك القنصليات بالاحتجاجات على أمل أن توقفوا هذه الفوضى إلا أنكم لم تستجيبوا لشكواهم، ولم تعاقبوا مثيري الشغب بما يستحقونه، وقد شجعهم غياب العقاب على التمادي، وأن الأوروبيين عندما لم يجدوا لديكم الأمان والحماية المكفولين لهم بموجب المعاهدات قرروا الابتعاد عن الإسكندرية وأن يصعدوا على متن سفينة كابيتانا بك. هذه الأفعال متناقضة تماما مع حقوق الصداقة وهي تؤسفني جدا.

وقد كتب صدري الأعظم إليكم بما تقدم لكي يوصيكم بالقبض على المذنبين ومعاقبتهم عقابا ميدانيا وأن تسهروا على أمن القنصليات والمفوضين الإفرنج، وأن ينالوا منكم الترضية المطلوبة، وأن تقوموا بما من شأنه أن يجعلهم يستمتعون بالهدوء الذي تضمنه لهم المعاهدات، وقد أعطيت لكم تعليمات محددة في هذا الموضوع، وكنا ننتظر استجابة من طرفكم.

ونظرا لأنكم لم تقدموا أي شيء فقد تقرر أن يرسل إليكم مفوض يحمل هذا الأمر، وقد أعطيت له جميع التعليمات اللازمة، وسوف يبلغها لكم، وسوف يكون عليكم أن تمعنوا النظر فيها. وإذا لم يكن القناصل والمفوضون الإفرنج قد عادوا إلى مقارهم، وإذا لم يكونوا قد تلقوا الترضية اللازمة في اللحظة التي يصلكم فيها هذا الأمر الإمبراطوري فإنه يلزم عليكم دعوة القناصل والمفوضين المذكورين إلى العودة إلى بيوتهم، وأن تسهروا على توفير الهدوء والأمان التامّين لهم وأن تعاقبوا المذنبين عقابا حازما دون استخدام أقل قدر من التسامح ودون أي تحيز، وأن تحرصوا على عدم السماح للقوات العسكرية في المستقبل بأي عمل ينتهك حقوق الضيافة، والحفاظ على تنفيذ المعاهدات وأن ترفعوا تقريركم دون تأخير حول هذا الموضوع إلى بابنا العالي.

ووفقا للروابط القائمة بين الإمبراطورية العثمانية والقوى الأوروبية، فإن جلالتنا لن يغض الطرف أبدا إذا ما أصيب أحدٌ منهم بمكروه. وسوف يعيد المفوض المكلف بهذا الأمر على مسامعكم بصوته الصريح، وسوف تعملون على التوافق معه، وإذا لم تقوموا بتنفيذ تعليمات بابنا

العالي فإنكم في اللحظة التي تتلقون فيها هذا الأمر عليكم دعوة القناصل إلى العودة إلى بيوتهم وأن تؤمنوهم بكل السبل الممكنة، وأن تقوموا بالمعاقبة الميدانية لجميع المذنبين بلا استثناء وألا يمنعكم من هذا أي مانع، وأن تحرصوا على ألا يلقى الأوروبيون في مصر أية معاملة سيئة، لا من جانب قواتكم ولا من جانب أيٍّ من كان.

إن الإرادة الحاسمة لجلالتنا تقضي بأن يتمتع الأوروبيون جميعا بالهدوء الذي تضمنه لهم المعاهدات. وإذا نما إلى علمنا أن هذه المعاهدات لم تحترم، وإذا قمتم بأدنى تقصير في تنفيذ أوامري، أو لم تنفذوها تنفيذا دقيقا، فاعلموا أن لا شيء يمكن أن يبرر هذا التصرف من جانبكم، وأنكم سوف تستحقون سخطي الإمبراطوري.

وسوف تحرصون على إبلاغ بابنا العالي أولا بأول عن نتائج الأوامر التي أعطيت لكم. ويامفوضنا المختار من بين أندادك لكي تقوم بتنفيذ هذه المهمة الدقيقة، يريد منك جلالتنا أن تقنع علي باشا بأن فطنته تتطلب منه أن ينفذ حرفيا التعليمات التي أعطيت لكم شفاهة، وأن تكرروها على مسامعه، أي أن يقوم بإعادة القناصل والمفوضين إلى منازلهم، إذا لم يكونوا قد عادوا، وأن يحرص على أمنهم، وأن يعاقب من يكدرون الراحة العامة، وبكلمة واحدة يمنح الترضية المطلوبة للأشخاص المضارين. هذه هي الأوامر الدقيقة لجلالتنا، فقوموا بتنفيذ أوامرنا خير تنفيذ، وقدموا البرهان على ذكائكم ودأبكم، واحرصوا على ألا تسمحوا بأقل عمل يخالف الأوامر التي أعطيت لكم.

صدر في القسطنطينية في ٢٤ شوال ١٢١٨

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٥.

٥٣- من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- عرض إنجلترا على البكوات الدفاع عن الإسكندرية بوضع إحدى الحاميات العسكرية هناك.
- تم قبول العرض.
- لم يستطع دي روسيتي إبلاغ الخبر في وقته بصورة واضحة.
- عودة الألفي بك من إنجلترا إلى مصر .

- مؤامرات عثمان بك ضد الألفي بك وأتباعه.
- نهب الجيزة.
- حملة عسكرية من عثمان بك ضد الألفي بك.
- هروب الألفي بك.
- الصراعات الداخلية تزيد المماليك ضعفا بصورة دائمة.
- ومن ثم يصبح الأرناؤوط أكثر قوة.
- أسباب المنازعات بين عثمان بك والألفي بك.
- انتقال المندوب الإنجليزي المقيم إلى الإسكندرية.
- المفتش الفرنسي يحاول أن يفعل الشيء نفسه ليراقب خطوات المندوب الإنجليزي المقيم.
- لا تزال مطالب الأموال التي يوجهها عثمان بك إلى الأوروبيين مستمرة.

القاهرة: ٢٤ فبراير ١٨٠٤.

كان لي الشرف أن أخبر عظمتك بوصول الكابتن فيتشينسو تابرنا وبرفقته أحد أفنديات الألفي بك، وقد جاء الأول بوظيفة سكرتير للمفوضية البريطانية، كما أخبرتكم كذلك بالاستقبال المميز له، وذلك في خطابي الأخير بتاريخ ٣١ أكتوبر العام الماضي(١). وقد علمت، ولكن برباط الكتمان المقدس، أن الضابط المذكور قد جاء بمهمة محددة وهي أن يعرض على البكوات حامية عسكرية إنجليزية من ٦٠٠٠ رجل تتحمل إنجلترا نفقاتها، لحماية الإسكندرية ودمياط، مع توفير الأسلحة والعتاد والأموال التي تلزمهم، والتوصل لاتفاق مع المماليك يمكنهم من الدفاع عن مصر ضد أي غزو جديد.

وتم قبول بكوات المماليك للعرض المذكور في اليوم التالي، وتم إرسال الأفندي على الفور إلى مالطة ومعه رسائل من هذه الحكومة ومن الماجور ميسيه، المندوب الإنجليزي المقيم. وبعد أن علم بالسلوك السيء لعلي باشا في الإسكندرية، قام بتسفير الطبيب الخاص به أدريانو Adriano إلى مالطة، عن طريق دمياط، ليعجل بوصول تلك الحامية.

لم أكن أستطيع استغلال تلك الثقة لأنني لم أزود بشفرة، ولو فعلت ذلك لكنت قد انتهكت هذه الثقة، ولذلك فقد اضطررت إلى أن أقتصر في رسالتي بتاريخ ٥ ديسمبر، على إخبار معاليكم فقط بأن السلوك السيء لعلي باشا قد يستخدم كحجة قوية للقوتين العظميين المتحاربتين

(١) فقد هذا الخطاب؛ وكانت أول وثيقة يأتي فيها ذكر تابرنا يعود تاريخها إلى ٥ ديسمبر ١٨٠٣، انظر الوثيقة رقم ٤٨.

ليعودا بأسلحتهما إلى هنا، ورجوت من معاليك أن تحيطني برعايتك الدائمة وأن توجه لي نصائح يمكن أن تبعدني عن المتاعب، وأعتقد أن ألمعية معاليكم قد فطنت إلى جوهر الموضوع. الآن والحديث يدور كثيرا حول وصول القوات الإنجليزية، ولعلي لا أكون قد انتهكت شيئا بإبلاغ معاليكم جزءا مما حدث، وعلى الرغم مما يقال فإننا لم نر أشياء محددة.

في اليوم السادس عشر من الشهر الحالي وصل خبر إلى المندوب الإنجليزي المقيم بقدوم فرقاطة إنجليزية إلى أبي قير من لندن ومالطة وبها أربعون مدفعًا وعلى متنها محمد بك الألفي، هذا الخبر تلقاه بعد قليل عثمان بك البرديسي عن طريق خورشيد باشا بالإسكندرية، الأمر الذي أذيع في المدينة مع الكثير من طلقات المدفعية، وبصورة خاصة أيضا من مدافع الجيزة، حيث كان يقيم محمد بك، وكيل الألفي المذكور. ووسط كل هذه الفرحة كان يعتقد أنه يجب عمل بعض التجهيزات الكبرى لمقابلته؛ لكن على العكس لم يتم اتخاذ أي إجراء مناسب، ومحمد بك الألفي الصغير نفسه، الذي كان يجب عليه الذهاب مع كل المماليك لزعيمهم، ظل موجودا بالجيزة، وقرر أن يقوم بتجهيز معسكره على مسافة قليلة، وقد أرسل الآن حسين بك الوشاز كطليعة للجيش.

في مساء يوم ١٨ إلى يوم ١٩، زحف عثمان بك البرديسي مع هيئة المماليك كاملة وحوالي ألفين من الأرناؤوط إلى الجيزة من خلال بعض الطرق غير المباشرة، وحاصروها من الفجر. وكان عثمان بك في اليوم السابق قد قام بتسفير أربعة بكوات لمقابلة الألفي، ولكنه أمر جنوده بمهاجمة حسين بك الوشاز، الأمر الذي قاموا به بالفعل في الوقت نفسه الذي كانت فيه الجيزة محاصرة؛ وقتل البك المذكور. وعندما انتبه الألفي الصغير إلى الضربة، اعتلى ظهر جواده مع جزء كبير من رجاله، وفتح لنفسه طريقا بين القوات المحاصرة، وهرب تاركا الجيزة، التي تم نهبها وذهبت ممتلكات السكان المساكين ضحية لهذا النهب الذي أتي عليها كلها.

انتقل محمد بك الألفي إلى رشيد، حيث أبلغ أنه قد يظل بها لمدة ٦ أيام، لكنه انتقل في اليوم التالي مع اثنى عشر من المماليك في أحد القوارب الخاصة.

كان عثمان بك البرديسي قد اتخذ استعداداته لكي يقتل محمد بك في رشيد في الوقت نفسه الذي يذهب فيه لمحاصرة الجيزة، فأرسل إلى رشيد مسبقا قاربا بأربعة وعشرين مجدافًا مع أشخاص مكلفين بتنفيذ تلك العملية، وكان مخططا أن يتوقف الألفي في منوف، وهي قرية صغيرة بعيدة عن الطريق المباشر، ولكنه لم يقابل القارب المذكور، فاستأنف رحلته إلى رشيد.

وفي منوف تنبه البك إلى ما يحاك له من تآمر، ونزل على الأرض مع مماليكه، وهرب على قدميه. ولما عرف عثمان بك بهذا أرسل العديد من البكوات للبحث عنه، لكنهم لم يلقوا إلا بعض مماليكه الذين لم يستطيعوا متابعة سيدهم من الإرهاق، ونجح الألفي في الوصول إلى قبيلة عرب الحويطات Huetat (التي تعسكر بالقرب من القاهرة). الآن وقد عرف أن زعيمهما ناصر بن شديد كان متواجدا في معسكر عثمان بك البرديسي، أظهر عدم ارتياحه ؛ لكن زوجة العربي المذكور ألزمت نفسها أن تنقذه بأي ثمن حتى وإن كلفها ذلك كما قالت رأس زوجها، فأعطت له ثلاثة من أفضل خيول زوجها، وجَمَلاً عربياً وحيد السنام وأربعة فرسان عرب ليحرسوه؛ وهذه المساعدة هي التي قضت على أمل عثمان بك في أن يتمكن من الإيقاع به. ويعتقد أن الألفي سلك طريق السويس ليجتازه فيما بعد إلى مصر العليا، حيث يتقابل مع وكيله محمد بك الصغير، ولن يكون غريبا أن يلحقا ببعضهما بعضًا قريبا.

هذه الأحداث غير المتوقعة لا يمكن أن يترتب عليها سوى نتائج مؤلمة، فالمماليك ضعفاء في حد ذاتهم، وهناك عدد كبير من الأرناؤوط يفوقونهم، ويحصلون على كل إيرادات مصر دون أن يشبعوا أبدا، لأنهم ما إن تسدد إليهم متأخراتهم حتى تبدأ ديون أخرى فادحة في التراكم. هؤلاء الأرناؤوط، غير المروضين، سوف يزيد تمردهم في المستقبل بعد أن انفرط عقد بلاط الألفي بك، الذي كان يعد الأكثر قوة وهيبة، وسوف تظهر بعض الانشقاقات الأخرى والأحزاب المختلفة، ولو تمكن الألفي من أن يجمع رجاله، فسوف يسيطر على مصر العليا وسيمنع وصول الإيرادات والمساعدات إلى القاهرة، مما سيؤدي إلى حدوث نقص في الأموال والتموين.

حصل الألفي قبل سفره إلى لندن على تصريح من إبراهيم بك ومن البرديسي بأنه لو نجح في تحقيق الغرض من رحلته*، قد يتنازلون له عن السيادة، واتفق معهما أن يترك مملوكا له يقوم بوظيفة الوكيل، يتولى العمل مع إبراهيم وعثمان بك؛ لكن هذا المملوك أراد في كل المناسبات أن يصبح سيدا على الاثنين الآخرين، وكان يطالب دائما أن يكون مميزا عنهما، وتصرف في كل المناسبات بغطرسة شديدة.

ولم يفكر محمد بك الألفي الذي تلقى أعظم التحية في إنجلترا، أن يوغر صدر عثمان وإبراهيم بك بإبلاغهما بوصوله إلى أبي قير؛ الأمر الذي يجعل من المفترض أن يكون هدفه الانتقال إلى الجيزة ليضع نفسه على رأس بلاطه الملكي الحافل وحاشيته ولكي يطمس بريق الآخرين.

* كان الغرض من رحلة محمد بك الألفي إلى لندن الحصول على موافقة الحكومة الإنجليزية على تنفيذ الوعود التي وعد بها الجنرال هاتشينسون بكوات المماليك في أثناء وجوده بمصر بأن يستردوا المكانة التي كانت لهم قبل الغزو الفرنسي. «المراجع»

وقبل أن يتمكن المماليك من محاربة كيايا بك التابع لمحمد باشا، كان لدى محمد بك الألفي بعض الخلافات مع عثمان بك، ولكن نظرا للموقف المزعزع الذي كانا يوجدان فيه فقد عقدا هدنة فيما بينهما على أن يستأنفا نزاعهما من جديد إذا ما نجحا في إعادة السيطرة على القاهرة.

الماجور ميسيه، المندوب البريطاني المقيم، طلب من قائد الفرقاطة أن يدعو الألفي للمجيء إلى الإسكندرية لإبلاغه بالعديد من المهام التي كان عليه إعلامه بها حتى يختصر الوقت الطويل اللازم للمراسلة. أول أمس كان الماجور ميسيه في محادثة طويلة مع عثمان بك البرديسي، وبدأ بالأمس رحلته إلى الإسكندرية وبرفقته الكابتن فيتشنسو تابرنا. تاركا مترجمه الأول السيد ريدجو هنا، مع مترجم آخر وذلك في مقر إقامته.

ولدي من المبررات ما يبعث بي إلى الاعتقاد بأن الغرض من رحلة البرديسي هو إلقاء الضوء على مشروع الحملة المقترح إرسالها إلى الإسكندرية. وبعد مغادرة المندوب المقيم، قام السيد ليسبس، المفتش العام الفرنسي بزيارة لعثمان بك، وعند عودته أعلن قرب سفره إلى الإسكندرية، والغرض من سفره التجسس على تعاملات المندوب البريطاني المقيم، وفي حالة إذا ما رأى أن خورشيد باشا مستعدا لاستقبال الإنجليز، فإنه سوف يعتبر سلوكه هذا بمثابة قطع باتر للعلاقات مع فرنسا، وسوف يحتج عليه. وفي هذا المساء أعلن المفتش الفرنسي أن عثمان بك أبلغه أن سفره المفاجئ لا يرضيه، ومن ثم قام بتأجيله.

الخلاصة هي أننا في موقف مزعزع جدا؛ وكل الوسائل للحصول على الأموال وضعت قيد التنفيذ، حتى ولو كانت غير شرعية. وعثمان بك البرديسي يقدم إلى الأوروبيين بعض الطلبات. فقد طلب منذ أسبوعين من الممثلين الثلاثة سلفة بمائتي كيس على أن يتم جمعها من الخاضعين للحماية.

وبعناء شديد خفضنا السلفة إلى مائة وعشرين كيساً وبجهد شديد أيضا كان يجب علينا تجميعها. وقد تم تقسيم ستة وسبعين كيسا علينا، وثلاثين كيسا على الفرنسيين، وأربعة عشر على الإنجليز؛ وأعطانا عثمان بك مقابل هذا أمرا لكي تخصم تلك المبالغ من الجمارك، الأمر الذي سوف لا يتم بسرعة، لأن مواطنينا والخاضعين للحماية لديهم فائض مقدم بالفعل.

الآن وصلتني مذكرة من عثمان بك يطلب فيها أن أوفر له مائتي كيس، مؤكدا أنه سيردها في غضون ثلاثين يوما، مانحا لي مجوهرات زوجته وواضعا القرى التابعة له رهن إشارتي.

هذا المبلغ ليس عندي، ولا أستطيع أن أجبر به الخاضعين للحماية حيث إنني أعلم أنه ليس لديهم ما يقدمونه، لكني لا أستطيع أن أعفي نفسي من تنفيذ المهمة، نظرًا لأن الأرناؤوط يتحركون بالفعل، ويطلبون بإلحاح أن يتم تسديد متأخراتهم المالية، وعثمان بك، الذي كان يعتزم أن يرسل بعضا منهم للبحث عن الألفي، سيقوم بأي شيء لكي يرضيهم.

نحن نريد معجزة كبيرة من العناية الإلهية لتنقذنا من هذه الورطة المليئة بالمخاطر والبؤس.

مع عميق احترامي»

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ١٤.

٥٤ - من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- الخلافات الأولى بين المماليك والأرناؤوط.
- عثمان بك يفرض ضرائب باهظة ليجمع الأموال ويدفع للأرناؤوط.
- الشعب يتذمر.
- الأرناؤوط يقفون مع الشعب .
- محمد علي يحرض الأرناؤوط ضد المماليك ويتحالف مع زعماء مجلس الشرع والمسئولين بقصر محمد باشا.
- محمد علي مع بعض الزعماء الآخرين يطالبون عثمان بك بالمرتبات المستحقة للأرناؤوط.
- رد مهين من عثمان بك.
- الأرناؤوط يحاصرون عثمان بك وإبراهيم بك في منزليهما.
- الإنكشاريون ينضمون للأرناؤوط في دعواهم.
- محمد علي يحتل القلعة.
- محمد باشا خسرو وضع على رأس الحكومة، وقامت المدينة كلها بتكريمه.
- هذا التغيير لا يبشر بتحسن الموقف.
- سافر المندوب الفرنسي ليسبس إلى الإسكندرية، حيث لا يزال يتواجد المندوب الإنجليزي المقيم هناك.
- الجنود الإنجليز القادمون إلى الإسكندرية مع الألفي بك، لم يغادروا السفينة.
- دخول محتمل لأسطول بحري روسي - عثماني في البحر المتوسط.
- ملحوظة: الأرناؤوط يتخلون عن محمد باشا.

- إشاعات حول موت عثمان بك، وإبراهيم بك.
- دى روسيتي يستعجل الفرمان لتحصيل ديونه من الميري.
- ملحوظة: لم يمت عثمان بك ولا إبراهيم بك.
- بداية الأحداث الجسيمة.

القاهرة: ١٢ مارس ١٨٠٤

كان لي الشرف أن أنقل إلى عظمتكم مخاوفي من السلوك المتهور لعثمان بك البرديسي تجاه غريمه محمد بك الألفي والذي قد يؤدي إلى نتائج مؤلمة، وذلك بموجب خطابي السابق بتاريخ ٢٤ فبراير.

الأرناؤوط الذين ساعدوا البكوات لإقصاء محمد بك، وكيل الألفي عن الجيزة، عند تلقيهم الأمر بالزحف ضد المماليك خافوا أن يكون هذا الأمر يستهدفهم؛ جزء منهم لم يريدوا الذهاب، وظلوا في المدينة، وجزء آخر ذهب، لكن بخوف شديد وبكثير من الحرص، ولما عادوا إلى المدينة، أراد عثمان بك إرسالهم ليطاردوا الألفي، لكنهم رفضوا قائلين إنهم لن يقوموا بذلك مالم يحصلوا على مرتباتهم، ووعدهم عثمان بك بجزء مقدم من الأكياس التي دفعها لهم بالفعل، مرهقا البلد كله من أجل تحصيلها، كما وعدهم بتسديد ٣٧٠٠ كيس التي كانوا يدينونه بها خلال عشرين أو ثلاثين يومًا، ولكنه أعلنهم صراحة، بأنه لن يكون مجبورًا بعد ذلك على أن يدفع لهم شيئا آخر، وأنهم إذا كانوا يريدون أن يظلوا بمرتبات بسيطة، فمرحبا بهم، وإلا فهم أحرار في الرحيل.

الدفعة المقدمة من المال التي حصلوا عليها طمأنتهم، لكن الحملة العسكرية المقترحة ضد الألفي لم يبدأ تنفيذها بعد.

وحتى يتمكن عثمان بك البرديسي من تسديد مبلغ ٣٧٠٠ كيس، قام بفرض ضريبة سنوية قدرها إيجار سنة على المنازل والمنشآت الأخرى، وقام بإرسال بعض المهندسين إلى كل حي ليقدروا تلك الضريبة، وكل واحد منهم كان برفقته كاشف.

انتفض الشعب الغاضب من تلك الإجراءات، وقاموا بطرد الكشاف والمهندسين، وفي بعض الأحياء أساءوا معاملتهم أو قتلهم. ولم يكن الأرناؤوط مجرد مشاهدين مسالمين لهذه الانتفاضة، بل احتجوا مع الشعب حيث إن رواتبهم كانت واجبة على الحكومة، ولم تكن واجبة على الأهالي، وكانوا يرون بأسف شديد مدى الظلم الذي كان يحيق بالبلد، ولذا لم يشتركوا في هذه المظالم لصالح البكوات، وإنما على العكس تدخلوا لصالح الشعب.

وبعد أن رأى البكوات أن الأرناؤوط يناصرون الشعب بصورة أكبر من مناصرتهم لهم، دعوا زعماء مجلس الشرع ليطمئنوا السكان، مؤكدين إلغاء الضرائب التي فرضوها عليهم.

وكان الأرناؤوط منذ وقت طويل يبدون نفورهم من بعض الأهداف المتغطرسة للمماليك، لكنهم لم يجرؤوا على إظهار ذلك النفور لاعتقادهم في قوة المماليك ومهارتهم. غير أن محمد علي زعيم الأرناؤوط لكي يضعف المماليك أقنع قواته بالقيام ضد الألفي، ولما سقط المماليك في الشرك، استطاع أن يجعل زعماء الأرناؤوط جميعا يحسون بالفزع قائلا لهم: إن مثل أولئك الذين غدروا برفيقهم، لا ينتظر منهم إلا الغدر بمن هو ضدهم، وأن من الأسلم توقي ضرباتهم المتوقعة. وكان ذلك الرأي مقبولا من الجميع، وعقب ذلك اتحد محمد علي مع نقيب الأشراف ومع زعماء مجلس الشرع، واستصدروا فرمانا من الباب العالي لخورشيد في الإسكندرية – أرسل إليكم نسخة منه – وعلى أثر ذلك قام الأرناؤوط بمهاجمة كل البكوات فجأة وفي لحظة واحدة في بيوتهم ليدمروهم مع مماليكهم.

ولضمان أفضل ضربة يمكن توجيهها إلى المماليك، تم استبعاد قادة قصر محمد باشا من الخطة، وهؤلاء بالاتحاد مع الأرناؤوط قاموا بجذب الجنود المرتزقة الأجانب، الذين كانوا يمثلون نوعًا من الحرس الشخصي إلى حزبهم، إضافة إلى كل جنود المدفعية الذين كانوا في الحصون. ولبدء تنفيذ الخطة انتقل محمد علي مع العديد من الزعماء الآخرين إلى عثمان بك مطالبين إياه برواتبهم، فأجابهم بشيء من الشراسة قائلا: إنه ليس لديه ما يعطيه لهم، فردوا عليه أن ديونهم ليست على المماليك، وإنما على محمد باشا، وطلبوا منه أن يوصلهم إليه لكي يدفع لهم رواتبهم. وبعد أن فطن البرديسي إلى تلك الحيلة، أجابهم بأنه كان ذاهبا ليركب الخيل، وأنه سوف يذهب بمحمد باشا إلى الحقول، وأنهم، لو كانوا يريدونه، يستطيعون أن يذهبوا ليقابلوه هناك.

ولما انسحب الأرناؤوط، أرسل عثمان بك محمد باشا إلى القلعة، وأمر كل البكوات بالخروج منها، بينما ظل هو موجوداً في بيته، الذي كان قد قام بتحصينه من قبل.

وقد عمل عثمان بك على جمع قوة مضادة للأرناؤوط في حالة تعرضه لمهاجمتهم، وكانت تلك القوة تتكون من حرسه الخاص ومن كل الإنكشاريين المتبقين والمشتتين، حيث فوض إليهم حراسة القلعة، والحصون المقامة حول مسكنه.

غير أنه لم يتبادر إلى ذهنه أن هؤلاء الإنكشاريين كانوا رفاقا وزملاء للأرناؤوط، وأنهم لم ينسوا أنه سبق له أن قتل بعض قادتهم، ولذلك قبلوا بترحاب دعوة محمد علي، ووعدوه بأن يفتحوا الأبواب لقواته عندما يصلون، بل وينضمون إليهم.

وبالفعل، وفي مساء الليلة الماضية، نهب الأرناؤوط كل بيوت المماليك الذين كانوا قد خرجوا من المدينة، وفي هذا الصباح انتقلوا إلى بيتي عثمان بك، وإبراهيم بك، وحاصروهما. وأطلق العثمانيون، الذين كانوا في وحدة المدفعية التابعة لعثمان بك، نيران المدفعية، على الأرناؤوط، الذين توقُّوا الضربة، ثم قاموا بالهجوم على المماليك الذين كانوا بالداخل، وقتلوا العديد منهم. وفر عثمان بك مع عدد من رفاقه هاربًا، بينما قام الأرناؤوط، والإنكشاريون بسلب منازلهم.

أما عن إبراهيم بك فقد أظهر شجاعة أكبر؛ فعندما كان محاصراً ركب الخيل مع نسائه، ومع حوالي ٥٠٠ مملوك شاهرين الأسلحة في أيديهم، واستطاع أن يفتح طريقًا للنجاة بين قوات الأرناؤوط، واتجه إلى الريف بعد أن فقد أربعين من مماليكه، والكثير من خيوله.

وحين وصل محمد علي مع عدد كبير من جنوده إلى القلعة كان يوجد بها ثلاثة بكوات مع خليط من المماليك والإنكشاريين والمغاربة، ودعاهم للاستسلام، فكّر الأوائل في الهرب من خلال أحد الأبواب الذي لم يكن محاصراً، وكانوا يريدون أن يأخذوا معهم محمد باشا، لكن المغاربة منعوهم من ذلك، وتركوا البكوات يهربون، وفتحوا الأبواب للأرناؤوط الذين سيطروا على القلعة، لكن بدون محمد باشا، الذين قاموا بإنزاله منها في عظمة شديدة، وقادوه إلى بيت محمد علي، وأعلنوا باسمه الأمن، وأعادوا إليه قيادة المدينة، مبدين له الطاعة التامة.

ولا أعرف أين اختفت تقريبا كل الحاشية التي كانت لدى محمد باشا، وكنت أعتقد أن جزءاً منهم قد قتل وجزءاً آخر هرب؛ ولكن على العكس وجدناهم كلهم مجتمعين ليستأنفوا خدمة سيدهم القديم.

خرجت البلدة كلها لتكريم محمد باشا. وأرسلت إليه المترجمين لتهنئته، واستقبلهم خير استقبال، وكلفهم أن يبلغوني بأشياء كثيرة واجبة التنفيذ. وعلى الرغم من أن السيد أحمد المحروقي، كان أكثر تميزاً بالقرب من عثمان بك، إلا أنه بادر بتجديد تأييده لمحمد باشا، الذي استقبله خير استقبال.

لم يبد لي مع كل هذا التغيير الذي لا يصدق أننا سوف نعيش في ظروف أفضل عما كنا عليه من ذي قبل؛ إذ لم تنجح الخطة التي تخيلها الأرناؤوط لذبح كل البكوات، باستثناء نحو عشرين منهم، أما الباقون فقد نجوا بأنفسهم، واجتمعوا على مسافة قليلة من المدينة؛ ولا أعرف هل سيسلكون طريق مصر العليا، أم سيفكرون في زعزعة الأمن.

على أية حال لن نكون إلا في وضع سيء؛ نظرًا لأن المماليك وهم في الخلاء لن يخشوا من أية قوة أخرى، ولا أعتقد أنه من الممكن تدميرهم، إلا إذا أثارت قضية الألفي خلافات جديدة فيما بينهم.

في خطابي السابق بتاريخ ٢٤ فبراير كنت قد أبلغت معاليكم أن السيد ليسبس، المندوب الفرنسي، أجّل رحلته إلى الإسكندرية بناء على طلب عثمان بك كما يقول، لكن بعد مرور خمسة أيام، سافر فجأة مع مترجمه الأول، وقد أخبرت في خطاب بتاريخ ٧ مارس بوصوله إلى الإسكندرية، حيث لا يزال الماجور ميسيه، المندوب البريطاني المقيم، موجودًا هناك، رغم ما صرح به بأنه سوف يعود إلى القاهرة فورًا.

بالإضافة إلى السفن الإنجليزية التي حملت الألفي من إنجلترا إلى الإسكندرية، وصلت سفينتان أخريان، إحداهما مزودة بأربعة وستين مدفعًا. وقد جرى تشاور مكثف بين قادة تلك السفن والماجور ميسيه، وخورشيد باشا، وبعد هذه المشاورات غادرت السفن وظهر أن الماجور ميسيه ليس سعيدا لما حدث، دون أن أتمكن من الحصول على معلومات أخرى إيجابية. ويقال إن خورشيد باشا رفض أن يستقبل السفن الثلاث حمولة أربعمائة رجل. وقد ظل المفتش ليسبس يراقب كل شيء، ويكتب إلى جميع الجهات المعنية.

قد يكون من المفيد والمرضي بالنسبة لي وسط كل هذه الأمور الخارجية والداخلية أن أحصل على النوط الإمبراطوري. ولذا ألتمس من عطف معاليكم أن تذكروني وأن تتأكدوا من عرفاني الدائم لكم.

تؤكد خطابات الإسكندرية أن الفرقة البحرية الروسية العثمانية مستعدة للدخول في البحر المتوسط، و في تلك اللحظات الحرجة سيكون من المفيد جدا أن أكون على علم بما سوف يجري من أحداث مهمة في هذه المدينة، و سأكون حريصًا على إبلاغها لمعاليكم. مع عميق احترامي لسيادتك»

ملحوظة: ١٤ مارس: توجس الأرناؤوط من أن يقوم محمد باشا ببعض الحيل خاصة مع وجود الكثير من الإنكشاريين معه، ولذلك قام الأرناؤوط في الساعة الثانية بعد منتصف الليل بتسفيره إلى الإسكندرية. وظل محمد علي قائمقاما، وقد أعلن أن خورشيد باشا سوف يتولى القيادة ومعه جانب أفندي الدفتردار.

البلد مطمئنة، على الرغم مما يقال إنه وقع شجار بين البكوات، وهناك من يقول إن عثمان بك مات، ومن يقول إنه إبراهيم بك.

الفرمان الذي سبق لمعاليكم إخباري بتعليقه؛ لعدم معرفة من يوجه إليه، يسعدني جداً في الوقت الحالي الإسراع بصياغته بأقوى أسلوب ممكن؛ حتى يتم حساب كل ما أخذه مني الميري بحجة دفع مرتبات الجند، وأن يتم الحفاظ على عقودي مع الميري نفسه، ولكن هذا الفرمان يستلزم تدعيمه بأمر صريح مما يسمى «نظام جديد»؛ لأن جانب أفندي الدفتردار لا يريد أن يعترف إلا بالأوامر الصادرة من هذا النظام. كما أرجو معاليكم أن ترسلوا لي الوثائق المذكورة مع مباشر Mubascer.(١)

ملحوظة: ١٥ مارس - لم يتم التأكد من وفاة أي من البكوات المذكورين، فهما لا يزالان على قيد الحياة. ويقال إن سيد علي، شقيق المرحوم علي باشا، سيسافر إلى الإسكندرية. وبالأمس سافر فجأة السيد برامبتون Prampton والمترجم الذي كان المندوب الإنجليزي ماجور ميسيه قد تركه، ومن المفترض أن يكونا قد سافرا من الإسكندرية.

ولا تزال الأمور تبعث على الخوف من أن هناك أشياء أخرى تلوح في الأفق، وسأكون في غاية الترقب لما قد يحدث من مصادمات بين البكوات.

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ١٣.

٥٥ - من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- خورشيد باشا هو الذي دبر ثورة الأرناؤوط بتكليف تلقاه من إسطنبول.
- خورشيد باشا ينتقل إلى القاهرة.
- المماليك لا يزالون يسيطرون على ضواحي القاهرة.
- الموقف أسوأ من ذي قبل.
- دي روسيتي يسدي النصائح لخورشيد باشا.
- لكنه لم يتبع هذه النصائح وظل هدفه جمع الأموال.

---

(١) شخص مكلف بمهمة خاصة، مبعوث خاص، وتعني أيضًا: بوابًا (حاجبًا)، وهذه الكلمة استخدمت هنا بالمعنى الأول.

- شائعات حول وصول الجنود الإنجليز والفرنسيين.

القاهرة: ٣٠ مارس ١٨٠٤

في خطابي الأخير بتاريخ ١٢ من الشهر الحالي مع ملحوظات بتاريخ ١٤ و ١٥ في النسخة الأصلية والصورة، أبلغت معاليكم بالثورة التي وقعت هنا، وأنه قد تم وضع محمد باشا على رأس الحكومة، لكن بعد مرور ٤٠ ساعة، وعلى حين فجأة، قام الأرناؤوط بنقله إلى رشيد مع ابنه إبراهيم باشا. ثم عرفنا بعد ذلك أن ثورة الأرناؤوط ضد البكوات دبرها خورشيد باشا حاكم الإسكندرية، بناء على تكليف وصله من إسطنبول على وعد أن يصبح هو حاكمًا على مصر لمدة أطول، لو نجح في المغامرة؛ كانت المؤامرة تتضمن أن تقوم ثورة تشبه الثورة الصقلية القديمة[1] لكن الضربة لم تتحقق، وانتقل خورشيد باشا في الحال إلى القاهرة، وبادرت بعمل زيارة له حيث قابلني بكل ترحيب.

وجدته مرتبكًا قليلا؛ لأنه كان يعيش في حالة من الفوضى بالفعل. كونه سيد المدينة فقط لم يكن له وضع قوي، فقد ظل البكوات يحتمون بالأنحاء المجاورة، وانضم إليهم الكثير من العرب، وحركة الملاحة مع مصر العليا، والتي تمد العاصمة بالمواد الغذائية، انقطعت، ومن ثم نحن نعيش في ظروف أسوأ من ذي قبل.

لا تزال المناوشات مستمرة، وأعتقد أنها تهدف إلى تحريض الأرناؤوط على الخروج إلى ساحة مفتوحة، ولكنهم يحافظون على أرواحهم في الخنادق. كان يجب على الأرناؤوط انتهاز فرصة الهروب غير المنظم للبكوات لمطاردتهم في الحال، ولكنهم على العكس انشغلوا في أعمال السلب. والآن أصبح إخراج المماليك بعيداً يتطلب أموالا، والموارد ناقصة بصورة كاملة. وأفضل دور يمكن أن يقوم به خورشيد باشا في ظل هذه الظروف، هو أن يستغل الشقاق الموجود بين الألفي بك والآخرين مغازلا الأول بترك حكم مصر العليا له، وهو سيعرف كيف يعثر على الوسائل التي يحطمهم بها انتقاماً من خيانتهم له، وسوف تصبح الملاحة لمصر العليا حرة، وسوف يمكن اتقاء المذابح التي تقوم بها القوات الألبانية من ناحية، والبكوات من الناحية الأخرى، في القرى كلها. وفي تلك الظروف يستطيع الباب العالي أن يقوي سيطرته، وعندما لا يتبقى سوى الألفي بك لن يكون من الصعب تهدئته.

* ثورة حدثت عام ١٢٨٢ م تمرد فيها الصقليون على الحكم الأنجويني وسلموا الحكم للأراجونيين .

رجاني جانب أفندي بالإسكندرية عن طريق نائب القنصل هناك أن أسدي بعض النصائح إلى خورشيد باشا، ومن ثم سارعت بإخباره عن تلك الوسائل المذكورة، ولكن ظهر لي أنه لم يستسغها كثيرا، ولم يبدِ اهتماماً بها سوى رغبته في إيجاد وسائل أخرى لجمع الأموال؛ لكي يفي بالوعود، التي قطعها على نفسه مع الأرناؤوط.

وقد جمع الديوان أمس ليطلب الميري عن عام ١٢١٩ *، الذي لم يكن ليبدأ إلا في العاشر من سبتمبر المقبل، وقال له الجميع إن هذا الأمر سيكون مستحيلا، ومن ثم اضطر للاكتفاء بطلب تسديد الديون للعام الحالي؛ الأمر الذي وافق عليه الجميع، لكنني أعتقد أنها لن تكون مبلغاً كبيراً؛ وخاصة أن تلك الأموال سوف يقتصر جمعها من مصر السفلى فقط، إذ لا يمكن أن يرجى شيئ من مصر العليا، ما لم يتم تدمير البكوات أولا.

مازال المندوب الإنجليزي المقيم موجودا في الإسكندرية، بالإضافة إلى وجود المفتش العام الفرنسي.وعندما كان يقال إن حامية عسكرية إنجليزية سوف تجيء إلى الإسكندرية، كان المفتش الفرنسي ينشر شائعة، ويسر بها لكل واحد على حدة، بأن جيشًا فرنسيًا من ٨٠ ألف جنديٍ سوف يأتي إلى مصر. وفيما يبدو أن الإنجليز قد غيروا خطتهم لتغير الظروف، والفرنسيون كانوا ينشرون تلك الشائعات؛ لكي يخلقوا للإنجليز بعض الصعوبات.

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ١٥.

٥٦ - من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- استعجال عودة المندوب الإنجليزي المقيم والمفتش الفرنسي إلى القاهرة.
- مناوشات حربية بالقرب من الجيزة بين الأرناؤوط والمماليك.
- انسحاب المماليك إلى الفيوم.
- الألفي بك يكتب إلى محمد علي معلنًا بقاءه محايدًا لو حصل على إقليم جرجا.

القاهرة: ١٠ أبريل ١٨٠٤ .

أرسلت إلى معاليكم خطابا آخر بتاريخ ٣٠ من الشهر الحالي، وذلك من أصل وصورة.

* موافق لعام ١٨٠٤ م. «المراجع»

المترجم الموجود في القاهرة من جانب الماجور ميسيه، المندوب الإنجليزي المقيم، قدم طلبًا لخورشيد باشا؛ لكي يكتب خطابا إلى المندوب الإنجليزي، داعيًا إياه ليعود إلى القاهرة، ولما بلغ هذا الأمر للقائم بعمل المفتش العام الفرنسي، هرع هو أيضا ليقوم بالعمل نفسه لصالح المفتش الفرنسي، وكما وافق الباشا للأول، وافق للثاني، والذي يقال إنه جاء برفقة وكيل المفتش الفرنسي الذي وصل مؤخرًا من مارسيليا ليقيم في رشيد.

في ليلة اليوم الرابع من الشهر الجاري خرج كل الجنود الأرناؤوط تراودهم فكرة مباغتة البكوات، الذين كانوا مع عدد كبير من العرب في تخوم الجيزة، لكنهم قاموا بالعديد من المناوشات دون نجاح، وتظاهر البكوات بالانسحاب؛ حتى تتم مطاردتهم ويبتعد الأرناؤوط عن الأسوار؛ وقد ابتعد بعضهم قليلا ومعهم محمد علي، وكانت النتيجة سيئة، فقد فقدوا أربعة رجال في المناوشات كما يقولون.

أخرج الأرناؤوط أول أمس كل المغاربة لمواجهة المماليك، ويقال إن الأمراء [1] انسحبوا إلى الفيوم، أما عن إبراهيم بك وعثمان بك فيقال إنهما في لاون Laun، التي تبعد مسيرة يوم عن الجيزة؛ وإن وراء انسحاب الأمراء بالتأكيد هدفًا.

كتب الألفي بك الكبير، من شرق إطفيح، إلى محمد علي زعيم الأرناؤوط، قائلا له: إنه قرر البقاء محايدا، وإنه يرجوه أن يطلب من خورشيد باشا منحه إقليم جرجا، وسوف يقوم بتسديد الضرائب المعتادة بالضبط، وقد أجيب إلى طلبه بأن هذا الإقليم سوف يسند له، مادام يظل بصورة دائمة ضد البكوات الآخرين.

لو سبق خورشيد باشا ومحمد علي في تقديم هذا العرض للألفي بك، لكان قد أصبح ضد الآخرين جميعا بصورة تلقائية وطبيعية.

ليس هناك تفكير حاليا في شن حملات ضد البكوات، انتظارا لآلاف الذهبيات التي ينتظر وصولها من سوريا.

مع عميق احترامي »

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ١٦.

---

(١) يقصد بالأمراء، البكوات الذين لهم القيادة أو الزعامة على مماليكهم.

٥٧- من دى روسيتي إلى ستورمر

موجز

- الحديث عن صراعات متعددة بين الأرناؤوط والمماليك، لكن بدون معرفة الموقف بالضبط.
- المماليك يبتعدون في اتجاه إقليم الشرقية.
- لا يزال الألفي بك وعثمان بك حسن يواليان موقف الحياد.
- حوادث مقززة نتيجة الضرائب التي فرضها خورشيد باشا.
- حول الهدف من تشكيل حامية عسكرية إنجليزية في الإسكندرية.
- اعتبارات دى روسيتي.

القاهرة: ١٨ أبريل ١٨٠٤.

انتشر الحديث عن الصراعات العديدة بين المماليك والأرناؤوط في القاهرة وذلك حتى اليوم الحادي عشر من الشهر الحالي، وعن مطاردتهم حتى بابها، لكن لم يمكن التوصل إلى معرفة الأمر بالضبط.

ويقال إن هناك بعض البكوات والمماليك قد قتلوا، وفيما بين البكوات خصوا عثمان بك البرديسي، وفيما بعد قالوا إنه مصاب بجرح خطير فقط، الأمر الذي لم يتم التحقق منه.

بات من المؤكد أن محمد علي، زعيم الأرناؤوط، دخل المدينة مرة أخرى مع العديد من جنوده في اليوم الخامس عشر من الشهر الحالي، وفي اليوم السادس عشر تأكد أن البكوات والمماليك ابتعدوا عن القاهرة دون معرفة أي طريق سلكوه، ويقال أيضاً إن جزءاً كبيراً من العرب قد تركوهم، ثم عرفنا أنهم لم يفعلوا شيئا سوى رفع المعسكر، ثم نصبه على مسافة قليلة من إقليم الشرقية؛ الأمر الذي أجبر الأرناؤوط على العودة مرة أخرى إلى الخنادق.

لا يزال الألفي بك في مصر العليا، ولم يتخذ أي موقف وسط هذا النزاع، على عكس عثمان بك حسن*، ولو استمر المماليك على هذا الحال فلن يستطيع الآخرون غير المتحدين القيام بشيء يذكر. لكن التجارة لن تنتعش طالما ظل السكان مقهورين؛ بسبب الضرائب التي يتم جمعها لكي تدفع إلى الجنود الألبان. وقد أثارت الضريبة التي أوضحتها في خطابي السابق بتاريخ ٦ من الشهر الجاري الكثير من القلق وعدم الرضا؛ العشرون كيساً التي فرضها خورشيد

---

* زعيم إحدى فرق المماليك، كان أميل للانحياز إلى العثمانيين والإبقاء على الحياد بين محمد بك الألفي الذى كان منحازا للإنجليز والبرديسي الذى كان منحازا للفرنسين. «المراجع»

باشا ضريبة على اليونانيين بصورة عامة لم يدفعوها بالسرعة التي كان يريدها، ولهذا فقد قام بسجن العديد منهم دون تمييز، ووضع قسماً منهم في الأغلال، وقام بمضاعفة المبلغ عليهم بسبب تأخيرهم. وقد تصادف أن وجد بينهم روسي من المتمتعين بالحماية وواحد من ليفورنو، وبعض اليونانيين من رعايا الإمبراطورية، وأصر الباشا على اعتقال اليونانيين رعايا السيد الأعظم، وأنه لن يفرج عنهم إلا بعد أن يقوموا بدفع الضريبة، وحافظ على كلمته بكل إصرار.

جاءت من مالطة، سفينة راجوزية فارغة إلى الإسكندرية، بها خطاب إلى المندوب البريطاني المقيم، وبعد مرور يومين، وصلت سفينة نمساوية أخرى، بعد رحلة استغرقت ١٢ يوماً، من الجزيرة المذكورة وبها خطاب مماثل؛ ذكر في الخطاب الأول أن السفينة جاءت من ماهون، وأنها كانت قد رست بمالطة بمحض الصدفة؛ وغادرت في الحال.

لا أعرف ما إذا كانت خطة إرسال حامية عسكرية إنجليزية إلى الإسكندرية قائمة أم لا، ولو كانت لا تزال قائمة، فسيكون المطلوب الحصول على موافقة الباب العالي، لكن نظراً لاحتجاجات فرنسا فإنه لن يوافق، رغم أنني أعتقد أن وصول تلك الحامية سيكون مناسبا جدا لكبح جماح الأرناؤوط وإعطاء ثقل أكبر للباشا.

وقد يكون لدى الباب العالي مانع آخر، وهو الخوف من أن الإنجليز ربما يحابون البكوات؛ ولو اقتصرت هذه المحاباة على إعطائهم وجودا في مصر العليا، فإن ذلك لن يكون شيئًا سيئًا بل قد يكون خيراً كبيراً، إلا إذا لم يكن الباب العالي يريد تدمير هذه المملكة بصورة بالغة، فإن من المعروف وهو ما لا يوافقه عليه أحد أنه يمكنه تدمير المماليك تدميرا كاملا، ولكن سوف تظل هناك شوكة قوية لا يستطيع أن يتخلص منها، وهم الأرناؤوط إلا إذا تحولت مصر إلى صحراء جرداء. وفي مثل تلك الحالة فإنه سيكون كمن يعمل ضد مصالحه في استغلاله لعائدات مصر، مما سينجم عن ذلك تدمير تجارتنا، ومن ثم فإني أرغب بشدة أن يعمل لما فيه مصلحته التي ترتكز عليها مصلحتنا أيضا.

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٢٣.

٥٨ - من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- طلب ٣٠٠ كيس من الممثلين الأوروبيين من أجل دفع رواتب الأرناؤوط.
- رفض الممثلين.
- سلوك مختلف للمترجم الفرنسي.
- غضب الباشا وكلماته التهديدية الموجهة إلى القناصل.
- تصرف فعال من دي روسيتي.
- إلغاء المطالب المالية.
- الباشا يدعو دي روسيتي للمجيء إليه.
- دي روسيتي يذهب إلى الباشا، الذي يستقبله بكل احترام ويبرر له مطالبه.
- دي روسيتي يحصل من الباشا على تصريح بمغادرة القاهرة ليستعيد قواه.
- لا يتفق المترجمون على صياغة محضر حول الأحداث التي وقعت.
- الإنجليز يشكون في علاقة الفرنسيين بما يحدث من اضطرابات في البلد.
- ماك أرديل يحل محل دي روسيتي.

القاهرة: ٢٤ أبريل ١٨٠٤

أتشرف بتأكيد خطاباتي الثلاثة السابقة بتاريخ ١٢، و٣٠ مارس، و١٠ من شهر أبريل الجاري، من أصل وصورة عن طريق دمياط والإسكندرية.

في يوم ١٨ من شهر أبريل، أجبر الأرناؤوط الباشا على دفع رواتبهم، فتوجه الباشا إلى السيد أحمد المحروقي، وجورج جوهري، مطالبا إياهما بمبلغ ٥٠٠ كيس.

وقد لجأ هذان الشخصان إلى الكيايا بك، وبالاتفاق معه خفضا نصيبهما إلى ٢٠٠ كيس، وأقنعا الباشا أن يطلب ٣٠٠ كيس المتبقية من الممثلين الأوروبيين.

استدعى كيايا بك المترجمين المعنيين بالفعل لدى الممثلين الأوروبيين، وباسم الباشا طالبهم بدفع تلك المبالغ، وأجابه هؤلاء بأنه من المستحيل أن يستطيعوا الالتزام بما يطلبه، باستثناء المترجم الفرنسي، الذي أعطى رفضا قاطعا، قائلا: إنه لا يمكن أن يلتزم بشيء في ظل غياب المفتش العام. الطلب نفسه تقدم به الباشا، وأجابه المترجمون بالردّ نفسه كما في المرة الأولى، ولم يكن رد المترجم الفرنسي طيباً.

وعقب هذه الردود الرافضة المتكررة أخذ الأمر منحنى مختلفا، حين قال الباشا بصوت عالٍ إن بوسعه أن يقوم بإعدام القناصل أمام أبواب منازلهمو وصرف المترجمين بشراسة، الذين ذهبوا إلى الكيايا بك؛ ليقنعوه بأن يعمل على إلغاء تلك المطالب المالية غير المجدية. وقد تعمد الباشا القول بطريقة كأنها عفوية إنه لو كان المفتش الفرنسي موجوداً في القاهرة، لما احتاج الأمر إلى الكثير من الرجاء، لأن المفتش ليسبس كان قد وعده أن يمده بألف كيس إذا نجح في تدمير البكوات، وكان هذا في حضور المحروقي والجوهري اللذين كانا متواجدين لدى الكيايا بك. وعقب هذا التصريح، لم يكن بإمكان المترجمين أن يقولوا شيئا، فانسحبوا ليكتبوا تقريراً بما حدث.

بمجرد أن غادر المترجمون، شوهدت أعداد من غفر الدرك التابعين لكيايا، كل واحد منهم معه مذكرة استدعاء لجميع الخاضعين للحماية. وأول المستدعين كانوا أولئك الذين يعملون في القنصليات. وبادر المندوب الفرنسي بإرسال محمييه مع أحد الإنكشاريين التابعين له؛ وبمجرد أن قدموا أنفسهم إلى الكيايا بك، الذي كان بصحبته المحروقي والجوهري، أهانوهم مع الإنكشاري الذي كان مصاحبا لهم، وصرفوه وأرسلوا المحميين إلى السجن؛ واستخدموا الطريقة نفسها مع جميع الرعايا الذين صادفهم حرس الدرك في عرض الطريق.

شاع خبر القبض على المترجمين الفرنسيين في الحال، ومن ثم لم أشأ أن أظهر أحدا من أتباعي، وحجزتهم مع حرس الدرك الذين جاءوا في طلبهم، وفكرت في أن أكتب مذكرة إلى واحد من المحركين لهذه الفوضى. وكتبت بالفعل إلى المسئول العام الجوهري بأنني مندهش جدا لأن كيايا بك تم تحذيره من أن يرسل إلى القنصليات لأخذ هؤلاء الذين كانوا في خدمتها؛ وأن الكيايا المذكور يعرف جيدا الامتيازات التي يتمتع بها المحميون، ومن ثم دعوته من جانبي لإبعاد حرس الدرك الذين قد تم إرسالهم إلى القنصليات، وأن يأتي السيد الجوهري عندي ليرى إلى أي مدى قد وصل الأمر. ولم يتأخر الجوهري في المجيء، لكنه جاء مع شريكه المحروقي؛ اللذين تظاهرا بالفزع، وذكرا أن الأرناؤوط كانوا يريدون في التو واللحظة الرواتب التي وعدوا بها، وأن الباشا لم يكن بإمكانه سوى توفير ٢٠٠ كيس، وكان من المناسب له أن يجمعها من المحميين على سبيل القرض. وأوضحت للجوهري أن القناصل لا يحمون سوى الموجودين في الخدمة طبقا لقرارات السلطان وفرماناته، كما شرحت له أن الباشا عندما لا يريد أن يعترف بهذه الوثائق فلن يكون لدينا شيء آخر للدفاع عنهم، وأنه يجب إطلاق سراح المسجونين في الحال، وأن يعوضوا بكل ما يحلو لهم.

وفي الوقت نفسه، تحدث مترجم الباشا قائلا: إنه كان يرجونا ويتوسل لعمل شيء من أجله، وإن سكين الأرناؤوط مسلط على رقبته، ولم أستطع من جانبي أن أدلي بإجابة أخرى سوى التأكيد على ما سبق أن ذكرته.

تم إطلاق سراح المحتجزين، وخلفهم بمباشي مع خمسين من الأرناؤوط، وأتى زعيمهم ليسر إلى المحروقي والجوهري أن محمد علي يريد ٥٠ كيساً في الحال، وقد أخبرهما بهذا الأمر كأنه سر، ولكن بأسلوب يمكن فهمه، وأجابه المحروقي بالأسلوب نفسه بأن ينصرف، حيث إن الساعة كانت الثامنة، وبأنه سوف يجيبه إلى طلبه في اليوم التالي. ولما كنت في فترة النقاهة فقد تظاهرت بأنني لم أسمع شيئا حتى لا أُغضب أحداً في الوقت الذي فرض فيه المحروقي والجوهري ضريبة على الجميع، وانصرفا.

وفي اليوم التالي سارع المحروقي والجوهري بإرسال كافاس Cavas إلى كل فرد لدفع الضريبة المذكورة.

وأرسلت إلى الباشا قائلا له: إنني كنت قد أجلت إجازتي التي نصحني بها الطبيب لكي أغير الجو بعد مرضي، على أمل أن أستعيد صحتي، ورجوته أن يعطيني تصريحاً بالدخول إلى كل البلاد وصولا إلى الإسكندرية، مع وجود حراسة لحمايتي من العرب، الذين كانوا يهاجمون المراكب. ولكن الباشا طلب من المترجم بطريقة فيها إلحاح شديد أن يصرف عن ذهني فكرة المغادرة التي يمكن أن يكون لها تأثير خطير في البلد في الوقت الراهن، وأبلغه أن علي تجهيز أي بيت ريفي أريده في هذه المناطق، موصياً المترجم أن يطلب مني قبول عرضه هذا بأفضل طريقة ممكنة.

بمجرد أن عاد مترجمي ومعه ذلك الرد، جاءني مترجم الباشا الخاص ليبلغني جزيل الشكر بالنيابة عن الباشا، وليجدد فكرة قبول العرض، ويرجوني أن أؤجل فكرة المغادرة، ولأذهب لاحتساء القهوة عنده، ليبرر لي كل ما حدث، وفي الوقت نفسه أمر المحروقي والجوهري بإيقاف تحصيل الضريبة، التي كانا قد فرضاها أيضا على العديد من المسيحيين الأتراك.

كنت أشعر بالسعادة من هذا الاستدعاء فذهبت عنده، حيث استقبلني أفضل استقبال، ورجاني بشدة ألا أسافر وأقسم لي أشد القسم ببراءته واستيائه مما حدث، حينئذ وجهت إليه الكثير من العتاب على ما صدر منه من قول موجه إلى المترجمين، الأمر الذي برره بأنه قد أُستفز وأنهم جعلوه يعتقد أن الرعاية التي كان يوليها للقناصل المسيحيين الأتراك كانت سرية، وبدون

أوراق رسمية من الباب العالي. وأعلن أنه من المطيعين طاعة مطلقة للباب العالي وأوامره، وأجبته أن هذا الإعلان بيني وبينه لا يكفي، بل يجب أن يعلنه في أمر إداري، يتضمن توقيع العقاب على من يتصرفون بطريقة سيئة، مع إلغاء الضريبة، والاسترجاع الفوري لكل ما أخذ منها، ولأنني وبعد أن امتدحت كثيراً تصرفه في الإسكندرية، فإنه يثقل علي كثيراً إبلاغه بمثل هذا الموقف العدائي المنفر، ووعدني الباشا أن يقوم في اليوم التالي بإصدار الإعلان الذي اقترحته، ورجاني ألا أكتب شيئا، مقدماً لي الكثير من الرجاء؛ لكي أقلع عن فكرة السفر، ووعدته أن أرضى بالطلب الأول، لكن فيما يتعلق بالطلب الثاني، الذي يرى هو بنفسه كم أنا متعب، ولابد أن أخشى من حدوث انتكاسة في حالتي المرضية، وهو ما تنبأ به الطبيب، إذا لم أغير الجو، وبالفعل كنت في حالة سيئة، فلم يستطع أن يستمر في إصراره.

في اليوم التالي أرسل قراراً إلى كل ممثل، وبصورة مباشرة إلى المحروقي والجوهري، ومعه أمر باسترجاع كل ما تم تحصيله من أموال من المحميين الموقرين. جاءني الجوهري ليرجوني أن أسمح له بثمانية أو عشرة أيام؛ لتنفيذ ذلك القرار، الأمر الذي لم أستطع رفضه.

اقترح المفتش الفرنسي أن يقوم المترجمون بعمل محضر لما حدث، واستجاب جميعهم إلى ذلك، ولكن عندما وصلوا إلى موضوع كيايا بك، الذي قال: إن السيد ليسبس كان قد وعده أن يقدم له ألف كيس إذا ما نجح في تدمير البكوات، ولم يشأ المترجم الفرنسي أن يضمن هذا في المحضر، قائلاً: إن ليسبس لم يكن يقصد ذلك، ولهذا لم يتم تحرير ذلك في المحضر.

الإنجليز مقتنعون بأنه سواء كانت محاولة اغتيال الألفي بك، أو محاولة اغتيال الأرناؤوط لكل البكوات، كلاهما قد تم إثارته من جانب المندوب العام الفرنسي ليظهر القيمة الضئيلة للحماية الإنجليزية، فإن مصر المسكينة كانت تعاني في الحقيقة من الاثنين معاً.

أرسل الباشا لي الحراسةَ المطلوبة، وأمراً بتوصية مشددة، وعندما أرسلت إليه لأشكره على ما أرسله لي، قلت له إن الأمر الإداري الذي أرسله إلي، والذي يتعلق بإلغاء الضريبة لم يكن يتضمن استرجاع كل ما تم تحصيله من أموال منها، ولم أذكر أكثر من ذلك حتى لا يرتبك سفري المقرر إلى رشيد.

أترك هنا في منصب نائب القنصل تلميذي المستشار جاكومو ماك أردل، حيث إنني أثق في قدرته وأمانته، لدرجة أنه قد يكون بمثابة يد العون المؤثرة للرعايا، كما أنه سيكون مصدراً للمعلومات الصائبة عما سوف يجري؛ الأمر الذي سيساعد في إخبار معاليكم بكل ما سوف يقع من أحداث أساسية ومهمة.

لا يزال الأرناؤوط يرابطون فيما وراء الأسوار زاعمين أنهم يريدون الخروج لإبعاد البكوات، لكنهم حتى الآن لم يتحركوا، والبكوات يسلكون أكثر الطرق يسرًا لهم.

لي الشرف أن أقدم إليكم نفسي، مع أسمى التقدير والاعتبار.

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٢٣.

٥٩ - من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- الألفي بك يرسل خطابًا إلى الباشا، وإلى محمد باشا، تم تلقيهما بصورة جيدة.
- رفض خطاب البكوات المرسل إلى الأشخاص أنفسهم لوقف القتال.
- انتشار شائعة أن البكوات حاصروا القاهرة.
- لا يزال الأرناؤوط قابعين خلف الأسوار .
- سفر محمد باشا.

رشيد: ١٩ مايو ١٨٠٤

مع تأكيدي لمعاليكم على خطابي الأخير بتاريخ ٢٤ من الشهر الماضي، المكتوب قبل سفري، الذي قمت به مساء يوم السابع والعشرين، لي الشرف أن أخبر سيادتكم بما حدث.

في يوم ٢٨ من أبريل الجاري وصل إلى القاهرة كاشف تابع للألفي بك، الذي لا يزال موجودًا في أسيوط، ومعه خطاب إلى خورشيد باشا، وآخر إلى محمد علي، زعيم الأرناؤوط؛ و في هذا الخطاب يعلن الألفي بك طاعته المطلقة للباب العالي، ويرجو منهما أن يتركاه يعيش مطمئناً في مصر العليا إلى أن تصدر أوامر جديدة من الباب العالي نفسه.

تم استقبال الكاشف أحسن استقبال، وتم تقليده معطفًا من الفرو، ثم أرسل مرة أخرى مع رد مرضي.

بعد مرور خمسة أيام، أرسل البكوات الآخرون، الذين كانوا موجودين بصفة دائمة في القرى المجاورة للجيزة، خطابا إلى الباشا وزعماء الأرناؤوط على حد سواء، راجين أن يوقفوا القتال وأن يحددوا لهم أحد الأماكن للعيش بها في هدوء. رفض الباشا الطلب، ويقال إنه على العكس من ذلك هدد باضطهادهم.

نتيجة لذلك الأمر اتحد إبراهيم بك وعثمان بك مع عدد كبير من مماليكهم بالإضافة إلى عدد من العرب، واتخذوا قراراً بعبور النيل، ومحاصرة القاهرة.

وصل إلى هنا أول أمس خطاب من عثمان بك كتبه إلى أحد أصدقائه، يقول له فيه: إنه حاصر القاهرة بعد معركة قصيرة. ويقول الرسول الذي حمل الرسالة :إن سليمان بك مراد نجح في مصالحة الألفي بك، وأن جميع البكوات أصبحوا متحدين، وهو الشيء المحتمل حتى لا يتم تدميرهم، فريقا وراء الآخر، ولكن هذا الأمر ما يزال مشكوكًا في صحته.

يقول الأرناؤوط دائماً: إنهم يريدون الخروج لملاقاة البكوات، ولكنهم على الرغم من ذلك يظلون قابعين خلف الأسوار. والحقيقة أن القاهرة كانت محاصرة بالفعل؛ لأنه منذ اثني عشر يوما لم تصل إليها رسائل مباشرة جديدة، وفي غضون ذلك ليس هناك سوى الاجتياح والفقر، وإذا ما استمر الحصار فسوف يجد سكان العاصمة أنفسهم في وضع أكثر سوءاً.

أبحر اليوم إلى الإسكندرية محمد باشا، نائب الملك (الوالي) السابق على مصر، ثم انتقل من هناك إلى جزيرة رودي، حيث ينتظر أوامر الباب العالي.

مع وافر الاحترام لي الشرف أن أؤكد ... إلخ.

ملحوظة: تلقيت خطابات معاليكم بتواريخ ١٧ و ١٨ و٢٩ فبراير، و١٥ و ٢٧ مارس، وأول أبريل، حيث سيكون لي الشرف أن أجيب عليها بخطابي التالي.

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٢٣.

٦٠ - من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- مقتل بعض البكوات في المناوشات الحربية .
- أخبار عن مصادمات أخرى.
- معلومات عن فيليبو آنيللو.
- ملحوظة: أخبار مختلفة.

رشيد: ١٩ مايو ١٨٠٤

أود أن أضيف في خطابي الحالي أنني تلقيت خطابات من القاهرة بتاريخ ١٤ من الشهر الجاري. الأخبار هي: تم التحقق من وفاة حسين بك، وجيرا بك، وإسماعيل بك، زوج إحدى بنات إبراهيم بك الكبير، وذلك في المناوشات الحربية السابقة.

في يوم ٨ من الشهر الجاري صدر تحذير وإنذار؛ لأن العديد من البكوات والعرب مروا تحت القلعة وأطلقوا العديد من المدافع، كما عسكر بالقرب من بولاق، وعلى بعد مسيرة ساعة من القاهرة علي بك أيوب، وآخرون مع الكثير من العرب، وحظروا في كل هذه المناطق نقل تموين للجيش، والعقوبة لمن يخالف ذلك هي الإعدام. خرجت القوات العسكرية على الرغم من كثرتها لمواجهتهم لكن بدون نجاح.

وصل العديد من المماليك إلى بولاق حيث كانت توجد بها قوات الحصار، وبعد قتال دام ثلاثة أيام استولوا عليها، وقتلوا الجميع بحد السيف باستثناء القادة، الذين تركوهم أحياء، وكتبوا إلى محمد علي يخبرونه أنه إذا كان يريد تحريرهم، فلابد أن يرسل عبد الرحمن بك الذي يحتفظ به رهينة، وهو الأمر الذي لم يوافق عليه.

كان هناك قتال استمر لمدة ١٧ ساعة تجاه الكانكي(الخانكة)، ويقال إنه جرح فيه أحد البكوات وقتل العديد من الأرناؤوط، كان من بينهم الأمير جاكورJakur التابع لخورشيد باشا.

يزيد البكوات الضرائب بصفة مستمرة في إقليم قليوب، ويستطيعون المرور بسهولة إلى دمياط من هذا الإقليم الذي يعيش سكانه في خوف شديد، لدرجة أن صفوة القوم وضعوا أمتعتهم على السفن، واستعدوا للهروب.

وصلني خطاب من إسنا، بتاريخ ٢٢ من شهر أبريل الماضي، من السيد فيليبو أنيللو، عالم الطبيعة، الذي أرسله البلاط الملكي. وقد سافر فيليبو حتى وصل إلى قنا، لكن عثمان بك، الذي أوصيته به، نصحه أن يعود مرة أخرى إلى إسنا إلى أن يتم إيقاف العمليات الحربية.

لي الشرف أن أقدم لمعاليكم عميق التقدير،،،

ملحوظة: ٢٤ مايو. تأخرت المكاتبة أكثر من اللازم حتى وقتنا هذا، مما جعلني أخبر معاليكم بأن الشائعة المنتشرة لم يتم التحقق من صحتها، وهي أن الألفي بك تصالح مع البكوات الآخرين، الذين عسكروا في بلبيس، كما عسكر الجنود الأرناؤوط في الخانكة، أي على بعد مسيرة يوم ونصف من القاهرة، وحتى الآن لم يُعرف أي خبر عن حدوث هجوم آخر.

ولايزال خورشيد باشا مع ألف وخمسمائة جندي في القلعة التي أنزل منها شقيق طاهر باشا بسبب الشكوك حول.....(كلمة لا يمكن قراءتها).

أخيراً توفى الجزار باشا والي عكا.

تعاني مدينة القاهرة من مجاعة شديدة، ومصر كلها تعيش في اشتعال؛ لأن لا أحد يريد أن يتخذ الإجراءات اللازمة لتهدئة تلك الأوضاع.

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٢٣.

٦١ - من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- استقبال الألفي بك أحسن استقبال في لندن .
- يعتقد أن الدولة المنافسة لإنجلترا قامت بالعديد من المحاولات لاغتيال الألفي بك.
- أصبح الباشا بفضل مساندة الأرناؤوط له هو السيد الوحيد على مدينة القاهرة.
- لا يريد الأرناؤوط مغادرة الأسوار لمحاربة المماليك الذين يحاصرون المدينة.
- الباشا يفرض ضرائب فادحة على المحميين.
- احتجاجات نائب المفتش الفرنسي وردٌ جارح من الباشا.
- كيف تم إصلاح المسألة.

رشيد: ٦ يونيو ١٨٠٤

فيما يتعلق بتأثير رحلة الألفي الذي ترغب أن تعرفه، لي الشرف أن أخبر معاليكم أنه قد أُستقبل أحسن استقبال في لندن، ويبدو أن الحكومة الإنجليزية قد حصلت له على فرمان لصالح البكوات جميعا، الأمر الذي أثار غيرة الدولة المنافسة* فقامت بمحاولات عديدة وذلك من أجل مهاجمة الألفي بك في البحر أثناء عودته، ولما لم تنجح هذه المحاولات، أثارت ضده عثمان بك والأرناؤوط ليحاولوا تدميره. ولما فشلت في هذا أيضا بالإضافة إلى توجسها من وصول بعض المساعدات الإنجليزية من مالطة، حفزت محمد بك أحد زعماء الأرناؤوط ليدبر مذبحة مفاجئة لكل البكوات والمماليك. وحتى هذه الخطة لم تنجح. ولا تزال الأوضاع في مصر المسكينة تسير من سيء إلى أسوأ، والتجارة بصفة عامة و تجارة الأوروبيين بصفة خاصة في حالة جمود شديد.

* المقصود بها فرنسا. «المراجع»

ويقال إن رئيس الدولة المشار إليها التزم مع محمد علي، زعيم الأرناؤوط، أن يملكه حكومة مصر. وعليه فإن الباب العالي، سيكون لديه الآلاف المؤلفة من الجنود الذين يتصفون بالشراسة والذين سوف يسببون له القلق وكذلك يزيد من قلق الأوروبيين عند ممارستهم لتجارتهم، فضلا عن أنه لن يتخلص من المماليك، الذين يبلغ عددهم ما بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ رجل لا يمكن تهدئتهم بسهولة.

في تلك الأثناء يمكن القول إن البكوات والمماليك وينضم إليهم الكثير من العرب، أصبحوا سادة المملكة من خارجها، والباشا مع الأرناؤوط سادتها داخل القاهرة فقط.

وبكوات المماليك يستفزون الأرناؤوط باستمرار لكي يسحبوهم إلى الخلاء، لكن هؤلاء لم يجازفوا بالابتعاد عن الأسوار والخنادق، ويتحججون بعدم الرغبة في الخروج لو لم توفَّ إليهم الرواتب المتأخرة أولاً، وأنا أعتقد أنهم لو أعطوهم رواتبهم حتى مقدما فلن يتغير موقفهم في شيء. ولكي يدعم الباشا موقفه، وليقنع الأرناؤوط بأكبر صورة ممكنة، اعتزم أن يأخذ ألفي كيس من المحروقي والجوهري، اللذين يعملان على تحصيل جميع المدخولات، لكنه لم ينجح في ذلك الأمر؛ لأنهما لجئا إلى محمد علي، وفيما بين هذا والكيايا بك نجحا في أن تشمل المطالبة بالضرائب البلاد كلها، أتراكًا أو مسيحيين بما في ذلك المحميين أيضا.

كان لدى الباشا نقطة ضعف تمنعه من تحديد المحميين في القرار الذي أصدره، لكن كانت لديه الفطنة في أن يترك الأمر إلى مترجمه بأن يدفع المحميون الضريبة دون اللجوء إلى الممثلين الموقرين، لكن أولئك الممثلين سرعان ما علموا بالأمر، ومن ثم ذهب نائب المفتش الفرنسي في الحال؛ ليقدم شكواه للباشا، الذي أجابه بمزاج سيئ، قائلاً له: إنه يعرف بأنه يتصرف ضد الاتفاقيات، وأن الممثلين الأوروبيين قد يكتبون ضده لدى الباب العالي، ولكنه بحاجة شديدة إلى المال. ورد عليه نائب المفتش الفرنسي بأنه إذا كان الأمر كذلك فإنه سوف يسحب العلم الفرنسي، ويرحل، فأجابه الباشا غاضبًا ليرحل مع علمه؛ لأنه لا يأبه بهذا!

عاد نائب المفتش إلى منزله، وهو يشعر بالاستياء فاستدعى محمييه، وقال لهم: إنه ليس لديه أسلحة للدفاع عنهم، لكنهم لو كانوا يريدون اللجوء إلى دار المفتشية، فسوف ينطبق عليهم ما ينطبق عليه، لكنهم فكروا في منازلهم الخاصة بهم، بالإضافة إلى أسرهم ومخازنهم، واعتقدوا أن من الأفضل تحجيم هذه المسألة وتقديم ستين كيساً عنهم إجمالا.

أما فيما يتعلق برعايانا، فقد رأى نائبي القنصلي أن يستغل الاحترام الذي يكنه الباشا لنا، والذي لم تتم ترجمته بأية صورة، لكنه حصل عن طريق بعض التدابير الخاصة على الستين كيسا المذكورة من المسيحيين الأتراك مضمونين من الميري. ولكن هذا الميري لن يكون بمقدوره الرد أبداً ما بقي الأرناؤوط في مصر.

تورشيكا ١٨٠٤ رقم ٢٣

٦٢ - من دي روسيتي إلى ستورمر

موجز

- الأرناؤوط يفاجئون الألفي بك وعثمان بك حسن في البساتين ويعلنون عن انتصار عظيم.
- لكن لا يبدو أن هذا الانتصار ذو أهمية.
- مناوشات حربية من الأرناؤوط ضد إبراهيم بك وعثمان بك البرديسي.
- شكوك تحوم حول نتائج المناوشات.
- أخبار حول عالم الطبيعة فيليبو أنبيللو.

رشيد: يوليو ١٨٠٤

أكتب خطابي الحالي، لأضيفه إلى خطابي السابق، وذلك في سرعة خاطفة.

في ليلة الحادي والعشرين من الشهر الجاري فاجأ الأرناؤوط الألفي بك وعثمان بك في البساتين، التي تبعد مسيرة يوم قصير عن بابهم العالي بالمدينة.و في تلك المفاجأة أوقع الأرناؤوط بالبكوات ومماليكهم مذبحة أثارت ضجة شديدة وأشاعت جواً من البهجة والسرور في القاهرة، وتلقى محمد علي، زعيمهم، الكثير من الاستحسان والتكريم من قبل الباشا؛ ولكن تم التحقق من أن ذلك الانتصار اقتصر على مقتل مصطفى كاشف الألفي، وجرح آخر يدعي مصطفى كاشف كان تابعاً لعثمان بك، بالإضافة إلى بعض المماليك والجند والفرسان المختبئين في المعسكر.

وقد احتفظ البكوات على الجانب الآخر من النيل بقوات يقودها محمد بك، أعاد تكوينها الألفي، وشخص ما يدعى شاهين كاشف مع خمسمائة رجل؛ حيث يقومون بغارات سلب ونهب تصل إلى مقربة من الجيزة، ويحتجزون كل قوارب المواد الغذائية التي تأتي من مصر العليا، والتي وصل عددها حتى هذا الوقت إلى مائتي قارب، وهم أنفسهم، مع حوالي ألفي رجل، بما في ذلك

الجنود والعرب، يتحصنون في منطقة التبين، التي تقع على بُعد ميلين من منخفض طرة، حيث يتخندق الألبان، الذين لم يقوموا بعمل أي شيء سوى البقاء في موقعهم الدفاعي، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى موقع آخر على الطرف الأسفل للقاهرة، في قرية تسمى جزيرة بدران المجاورة لبولاق.

وفي يومي ٢٠ و ٢١ من الشهر الجاري، وقعت بعض المناوشات الحربية مع إبراهيم وعثمان بك البرديسي اللذين كانا يحتلان تلك الأحياء، مع حدوث ضجة شديدة لم تسفر عن نجاح كبير، لكن في يوم ٢٢ وقع أمر خطير لم تصلني بعد تفاصيله، فقد كتب أحدُ الشبان الأوروبيين الموجودين في القاهرة، في مساء ذلك اليوم يقول: إنه كان فوق مكان عال ورأى المعركة في شبرا، حيث قتل عدد كبير من الألبان، وقام محمد علي بالانسحاب السريع مع المائتي رجل تقريبا من جنوده الذين نجوا.

أنا لا أريد أن أصدق نبأ هذه الهزيمة، لأنني أعتقد أن الشاب منحاز للبكوات، كما أشك أيضًا في الخبر الذي أُرسل إلى البلاط الملكي مع بعض الرسل التابعين للباشا بالقاهرة، الذي يذكر أن الألبانيين انتصروا في المعركة، وأنهم حملوا معهم سبعة رؤوس، وهناك من يقول إن إحدى هذه الرؤوس هي رأس إبراهيم بك، ومنهم من ينفي ذلك الأمر. ورأس إبراهيم بك معروفة جيدا في القاهرة، فإذا كانت هذه الرأس هي رأسه بصورة مؤكدة، لما كان هناك شك في الأمر. لكن عندما يتحقق هذا الحدث، فلن يكون مع ذلك كافيا لاستعادة الطمأنينة، وإراحة السكان، الذين يلهثون تحت طائلة الجوع، والضرائب المستمرة.

السيد فيليبو آنيللو، عالم الطبيعة المرسل من جانب البلاط الملكي، عاد من مصر العليا، لكن في ظل الظروف الحالية للحرب، وجب عليه أن يمكث في التبين، التي تبعد مسيرة يوم عن القاهرة، وحين أرسل بلاغًا بوصوله، ذهب نائبي القنصلي إلى (التبين) ليتخذ بعض الإجراءات ليمرر قاربه، ويعبر به من معسكر وحدات المدفعية الألبانية ومجالها في أمان تام. وأتمنى ألا يمضي وقت طويل دون أن أسمع خبر وصوله إلى القاهرة.

أرفق بخطابي الحالي جدولا بمواعيد وصول ومغادرة السفن التجارية النمساوية إلى مصر، متضمناً أغلب التصورات الممكنة وأتمنى أن تكون الجداول التالية أكثر تفصيلاً.

لي الشرف أن أكون .... إلخ.

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٢٤.

٦٣ - من دى روسيتي إلى ستورمر

موجز

- انهزام الأرناؤوط في معركة يوم ٢٢.
- لكن في يوم ٢٤، شجعهم محمد علي من خلال حوار فعال، فهاجموا من جديد ونجحوا في الانتصار.
- كم عانت وستعاني مصر بسبب المنافسة بين فرنسا وإنجلترا.
- يحاول خورشيد باشا أن يجتذب الألفي بك إلى جانبه، لكن الوقت بدا متأخراً.
- احتجاج إنجلترا على الخيانة التي يعاني منها الألفي بك.

رشيد : ٣١ يوليو ١٨٠٤

تلقيت تقريراً من القاهرة حول معركة يوم ٢٢، تأكد فيه أن الألبان انهزموا، وأن النصر الذي أخبرت معاليكم في خطابي بتاريخ ٢٨ من الشهر الجاري بأنهم يفخرون به، والذي كانوا قد أرسلوا خبره مع الرسل ليطلعوا معاليكم عليه، إنما هو النتيجة المفترضة لمعركة تالية وقعت في يوم ٢٤.

اجتمع محمد علي، زعيم الألبانيين، الذي فقد ٥٠٠ رجل من جراء هزيمة يوم ٢٢، بكل الزعماء الآخرين والضباط، وأفهمهم جميعاً أنهم أمام خيار صعب، فإما هلاك من جانب البكوات والمماليك، أو سيقتلون من جانب السكان، لو لم يتشجعوا ويخرجوا لمهاجمة العدو.

ترك كلامه هذا تأثيراً كبيراً، وخرج الجميع ليلا، حيث هجموا ببأس شديد، وابتعد البكوات عن ضفة النيل حيث كانوا يتواجدون، ودخلوا في الخلاء خلف بركة الحج [1]،الأمر الذي سمح للعديد من المراكب بأن تواصل طريقها إلى القاهرة.

في هذا الخروج الأخير أحضروا سبع رؤوس، أي ست رؤوس، وواحدة قالوا عنها إنها لإبراهيم بك، ولكنهم اعترفوا بعد ذلك بأنها لم تكن له مطلقا. وقد أحدثوا ضجة كبيرة بهذه الرؤوس السبع، وأبلغ قائد الإسكندرية بصورة رسمية كل الممثلين بالنصر التام مع مقتل البكوات الرئيسيين.

في القاهرة حاول الألبان أن يقنعوا الناس بأن أحد الرؤوس السبعة كانت رأس إبراهيم بك بينما أعلنوا في الإسكندرية أن كل الرؤوس كانت للبكوات. أشفق على الباب العالي إذا كان يسمع عن الانتصارات المتوالية، ولا يتخذ الإجراءات التي قد تكون ضرورية.

(١) بركة الحج : بحيرة تقع فى شمال شرق القاهرة سميت بهذا الاسم، لأنها كانت المكان الذى تتجمع فيه قوافل الحجيج قبل انطلاقهم إلى مكة المكرمة.

مسكينة مصر! كم عانت، وكم تعاني، وكم سينالها من معاناة بسبب المنافسة بين فرنسا وإنجلترا؛ الأولى عرضت دعمها على البكوات لتزداد شوكتهم، وهؤلاء (البكوات) كانت لديهم ثقة أكبر في الثانية (إنجلترا)، ولذا لم يقبلوا العرض الفرنسي، كانت فرنسا تريد أن تخفي على الإنجليز قيام المفتش الفرنسي بتحريض عثمان بك، والألبان ضد الألفي بك، القادم من لندن، وبالتالي قد يقوم الألبان بشن حرب إبادة على البكوات والمماليك المتواجدين في القاهرة، غير أنها فشلت في ذلك، فالبكوات إذا لم يستطيعوا الدخول إلى القاهرة، فسوف ينسحبون إلى مصر العليا في أثناء فيضان النيل، وعند انخفاض منسوبه سينزلون من جديد، ولن تنتهي المجاعة، ولن تتوقف الضرائب، وستصبح الخزانة العامة فارغة دائماً، وسوف يطالب الجنود الألبان برواتبهم، وستستمر الفوضى وتتوقف التجارة.وعن انسحاب المماليك لم نر حتى الآن أية استعدادات.

حاول خورشيد باشا أن يجتذب إليه الألفي بك من خلال الخطابات المتلاحقة، ويقدم له أسخي العروض، وكان من المفروض أن يفعل هذا فور دخوله القاهرة بدلا من الحل البديل وهو تدمير عثمان بك وإبراهيم بك. وبدلا من أن يجعل الألفي يتمادى في العداوة والإصرار على الأخذ بالثأر، كان هو السبب في تصالح المماليك واتحادهم. وعندما أدرك الألفي هذا الأمر أخذ يصر في ردوده على الباشا أنه لن يستطيع قبول عروضه، مادام محمد علي والألبان موجودين في مصر.

عرض المستر لوك Lock، القنصل الإنجليزي العام لمصر، احتجاجاً باسم ملك إنجلترا على الخيانة التي حاقت بالألفي بك. وسوف يكون من دواعي سروري معرفة نتيجة هذا الاحتجاج، وأود كذلك أن تتوافق الظروف بحيث يكون لمعاليكم من السلطة ما يساعد على أن يصرف الميري المبلغ الكبير المدين به لي ولمواطني بلدي، والذي أنتظر الفرمان الذي سبق وأن طلبته من معاليكم بهذا الشأن.

وفيما يتعلق بما تلقيته منكم سابقاً، كتبت إلى خورشيد باشا أن الدائن سوف يرضى بالرهن على جمرك الإسكندرية، طالما أن الظروف تمنع من تسديد ديونه، ولم أتلق منه الرد حتى الآن.

لي الشرف أن أعلن لمعاليكم... إلخ.

تورشيكا ١٨٠٤، رقم ٢٤

فهرست وثائقي

لأهم ما جاء في الرسائل والتقارير التي كان يبعث بها قناصل العموم للنمسا، وتوسكانا، وفينيسيا في مصر إلى الوزراء المفوضين، والرسول البابوي للنمسا، لدى الباب العالي في الأستانة

رقم الوثيقة	محتوى الوثيقة	التاريخ	الصفحة
١	جلاء الفرنسيين عن القاهرة.	١١ يوليو ١٨٠١	٥٩
٢	رحيل الفرنسيين من الجيزة إلى رشيد.	١٦ يوليو١٨٠١	٦١
٣	زيارة الجنرال هاتشينسون للصدر الأعظم والاستعداد لوصول الجيش الإنجليزي إلى الإسكندرية التي كانت محتلة تماماً من قبل قوات الجنرال مينو.	٢١ يوليو ١٨٠١	٦٣
٤	إجلاء الفرنسيين عن مصر بسبب أخطاء الجنرال مينو والقبض على بكوات المماليك الذين وثقوا بوعود الإنجليز بتوفير الحماية لهم على يد السلطات التركية.	٢٣-٢٤ أكتوبر١٨٠١	٦٦
٥	تنكيل الصدر الأعظم وقبطان باشا ببكوات المماليك، وتدخل الجنرال هاتشينسون لصالحهم.	٣٠ أكتوبر ١٨٠١	٦٩
٦	استياء الجنرال هاتشينسون من مذبحة المماليك واتهاماته للصدر الأعظم وقبطان باشا بتدبير تلك المذبحة ورحيله من مصر وتعيين اللورد كافان لقيادة الجيش الإنجليزي ومحاولات لمصالحة بكوات المماليك مع الباب العالي .	١٦ديسمبر ١٨٠١	٧٠
٧	مباحثات بين اللورد كافان، والصدر الأعظم حول النظام الذي سيتبع مع بكوات المماليك وانسحابهم .	١٥ فبراير ١٨٠٢	٧٦

رقم الوثيقة	محتوى الوثيقة	التاريخ	الصفحة
٨	كيفية القبض على دي روسيتي القنصل العام للنمسا في مصر أثناء السيطرة الفرنسية .	١ مارس ١٨٠٢	٨٠
٩	حول تنفيذ الأوامر المتعلقة بجوازات السفر وحركة السفن النمساوية.	٣ مارس ١٨٠٢	٨٢
١٠	الاضطرابات الناشبة في مصر لم تسمح للقنصل العام للنمسا تحقيق رغبته في تسجيل تاريخ الثورات التي ساندها.	٣ مارس ١٨٠٢	٨٢
١١	علاقات دي روسيتي السيئة مع الجنرال مينو على خلاف علاقاته الطيبة مع بونابرت والجنرال كليبر والصعوبات التي واجهها ليظل صديقا للجميع وسط الصراعات التي كانت تمر بها مصر على مختلف المستويات .	مارس ١٨٠٢	٨٤
١٢	الامتيازات التي حققها دي روسيتي للتجارة النمساوية والامتيازات الأخرى التي يرى تحقيقها.	١٠ مارس ١٨٠٢	٨٨
١٣	الفوائد التي تعود على ألمانيا وغيرها من الدول الجديدة التي كانت تابعة للبندقية من استيراد بن مخا بدلا من استيراده من الغرب.	٤ أبريل ١٨٠٢	٩٠
١٤	استهداف الإنجليز لتجارة البحر الأحمر وسفر السير بوفان لتوقيع معاهدات مع شريف مكة وإمام صنعاء.	٤ أبريل ١٨٠٢	٩١
١٥	وصول الجنرال ستيوارت إلى مصر للإشراف على عملية إجلاء القوات الإنجليزية ومحاولة إيجاد حلول لمشكلة بكوات المماليك في الوقت، الذي يصر فيه الباب العالي على طردهم من مصر ومحاولته إقناع الباشا بأن رحيل الإنجليز من الإسكندرية يتوقف على إيجاد حل لمشكلة البكوات .	٣١ أغسطس- ١٢ سبتمبر١٨٠٢	٩٣

رقم الوثيقة	محتوى الوثيقة	التاريخ	الصفحة
١٦	وصول المبعوث الفرنسي فوق العادة الكولونيل سبستياني إلى الإسكندرية من قبل بونابرت القنصل الأول في فرنسا وزيارته لكل من الجنرال ستيوارت، وأحمد خورشيد باشا حاكم الإسكندرية واعتزامه زيارة الوالي محمد خسرو باشا في القاهرة.	٢٠ أكتوبر ١٨٠٢	٩٧
١٧	خطاب اعتماد الكولونيل سبستياني إلى الباشا حول مهمته المزدوجة في إجلاء الإنجليز عن الإسكندرية وتنشيط حركة التجارة الفرنسية في مصر الأمر الذي كان يتطلب تهدئة المماليك.	٣ نوفمبر ١٨٠٢	٩٨
١٨	محاولة الجنرال الإنجليزي التوصل إلى تسوية لإعادة المماليك إلى وضعهم السابق وإنهاء العداء القائم بينهم وبين الباشا من أجل الحفاظ على أمن البلاد.	٢ فبراير ١٨٠٣	١٠٠
١٩	اقتراح الباشا تسوية مشكلة المماليك بخروج الأربعة بكوات الرئيسيين وأن يظل الباقون متفرقين وليسوا متحدين وشكوك في عدم قبول بكوات المماليك لذلك الاقتراح.	٧ فبراير ١٨٠٣	١٠٢
٢٠	نجاح الجنرال ستيوارت في إقناع بكوات المماليك بالانسحاب إلى مصر العليا واشتراطهم تسلم جزء من مخازن الإسكندرية وبدء رحيلهم من مصر السفلى بعد فرضهم الضرائب.	٩ مارس ١٨٠٣	١٠٣
٢١	على الرغم من الامتيازات الكبيرة التى حصل عليها دي روسيتي لصالح التجارة النمساوية إلا أن الدفتردار فرض الضرائب الباهظة عليها مما أدى إلى احتجاج روسيتي ومطالبته بإلغائها.	٩ مارس ١٨٠٣	١٠٥

رقم الوثيقة	محتوى الوثيقة	التاريخ	الصفحة
٢٢	فرمان بإعفاء التجارة النمساوية من الضرائب وتأكيد الدفتردار أن الباب العالي أرسل خط شريف يعارض ذلك الفرمان.	٢١ مارس ١٨٠٣	١٠٧
٢٣	جلاء القوات الإنجليزية عن مصر وانسحاب بكوات المماليك إلى مصر العليا وضرائب باهظة يفرضها الباشا على الأرناؤوط لإبعادهم عن مصر وتوقف تجارة جدة بسبب استيلاء الوهابيين على الحجاز.	٢١ مارس ١٨٠٣	١٠٨
٢٤	ثورة الأرناؤوط للحصول على مستحقاتهم المالية ومحاصرتهم الدفتردار والباشا الذى أمر بإطلاق النيران عليهم ونجاحهم فى الاستيلاء على القلعة والبلاد ثائرة بسبب تجاوزات خسرو باشا والجميع يفضلون طاهر باشا .	٣ أبريل ١٨٠٣	١١١
٢٥	هروب خسرو باشا ودعوة طاهر باشا بكوات المماليك لدخول القاهرة والشك في عدم قبولهم لتلك الدعوة.	١ مايو ١٨٠٣	١١٤
٢٦	معاملة الأرناؤوط للدفتردار معاملة الأسرى ونجاحهم في احتلال القلعة والباشا يلوذ بالفرار ويتم نهب قصره وأصبحت السلطة في يد طاهر باشا .	١ مايو ١٨٠٣	١١٦
٢٧	ملاحقة الأرناؤوط لخسرو باشا عقب فراره.	٢ مايو ١٨٠٣	١١٧
٢٨	إخطار وزراء روسيا وإسبانيا والدانمارك بملاحقة الألبان لخسرو باشا، وأسرهم الدفتردار والكيايا بك.	٤ مايو ١٨٠٣	١١٨
٢٩	حديث لطاهر باشا في مجلس كبير عُقد في منزل القاضي أوضح فيه أخطاء خسرو باشا الجسيمة والوعود التي قدمها كل من طاهر باشا ورجائي أفندي الدفتردار بإلغاء الضرائب والرسوم التي فرضها خسرو واختيار محمد علي قائداً لجميع قوات الأرناؤوط .	٦ مايو ١٨٠٣	١٢٠

رقم الوثيقة	محتوى الوثيقة	التاريخ	الصفحة
٣٠	اقتراب المماليك من القاهرة ووصول قوافل من مكة تحمل أخبارا خطيرة عن انتشار الدعوة الوهابية في الحجاز .	١٨ مايو ١٨٠٣	١٢٢
٣١	خسرو باشا المتحصن في المنصورة يشكو من ثورة الأرناؤوط عليه ويطلب من دي روسيتي الكتابة إلى بكوات المماليك بعدم اتحادهم مع أعدائه وحالة من الفوضى تعم مصر والشرق بأسره.	٢٠ مايو ١٨٠٣	١٢٤
٣٢	طاهر باشا يكشر عن أنيابه التي أوضحت قسوته ونهبه للأموال وسخط الإنكشاريين عليه لقتله اثنين من قادتهم وقيامهم بقتله وفزع الأرناؤوط من جراء ذلك والتفافهم حول محمد علي ودعوته المماليك للمجيء إلى القاهرة وقبولهم لتلك الدعوة، وتولي أحمد باشا والي جدة بمساندة الإنكشاريين حكومة قصيرة الأجل في مصر.	٢٧ مايو ١٨٠٣	١٢٥
٣٣	استدعاء محمد خسرو باشا لتولي حكومة مصر.	٢٨ مايو ١٨٠٣	١٢٨
٣٤	استمرار الاضطرابات في القاهرة والهدوء في الإسكندرية.	٣٠ مايو ١٨٠٣	١٢٩
٣٥	الحكم بالإعدام على قتلة طاهر باشا، ومحاصرة الألبان لأحمد باشا وتسليمه لبكوات المماليك الذين قاموا باختيار المتنفذين الجدد وتشاورهم يوميا مع محمد علي في الشئون الداخلية ولا يعرف إلى متى سوف يستمر الاتفاق بين الألبان والمماليك.	٣١ مايو ١٨٠٣	١٣٠

رقم الوثيقة	محتوى الوثيقة	التاريخ	الصفحة
٣٦	فرض القنصل الإنجليزي ضريبة عالية على تجارة العصفر واحتجاجات دي روسيتي لدى كل من القنصل وإبراهيم بك ووصول أخبار عن هزيمة خسرو باشا في دمياط، وسقوط المدينة ونهبها من قبل قوات عثمان بك البرديسي واستمرار الوفاق بين الألبان والمماليك.	٧ يوليو ١٨٠٣	١٣٢
٣٧	وصول علي باشا الجزايرلي واشتداد المنافسة بين الصدر الأعظم والقبطان حسين باشا وفشل المفاوضات مع بكوا ت المماليك واستيلاء الوهابيين على جدة.	٢٥ يوليو ١٨٠٣	١٣٦
٣٨	الفوضى الناجمة عن صراع طائفتي خسرو والجزايرلي وسيطرة المماليك على رشيد ومحاولات للصلح بين بكوات المماليك وعلي باشا الجزايرلي واحتمالات ضئيلة في نجاحها.	٢٩ يوليو ١٨٠٣	١٣٩
٣٩	رفع العلم الإنجليزي في القاهرة ومطالب المماليك المبالغ فيها وهدنة لمدة ثلاثة أيام بين الأتراك والمماليك .	١ أغسطس ١٨٠٣	١٤٠
٤٠	مطالبة المماليك بالبقاء في القاهرة مع ضمان وضعهم الذي كانوا عليه قبل الغزو الفرنسي وعدم قبول علي باشا الجزايرلي لتلك المطالب وتجدد المنازعات مرة أخرى وقلق الأهالي.	٧ أغسطس ١٨٠٣	١٤٠
٤١	توقع زحف المماليك على الإسكندرية بعد استيلائهم على رشيد وهروب سكان الإسكندرية تحسبا لوقوع كارثة .	١٣ أغسطس ١٨٠٣	١٤٢
٤٢	اقتسام حزبي الصدر الأعظم وقبطان باشا لمدينة الإسكندرية والأخطار التي يتعرض لها الأهالي وعدم استبعاد الأوروبيين من تلك الأخطار .	٢٠ أغسطس ١٨٠٣	١٤٢

رقم الوثيقة	محتوى الوثيقة	التاريخ	الصفحة
٤٣	استيلاء عثمان بك البرديسي على رشيد وإعلانه عدم قدرته على توفير الأمن للحي الإفرنجي، إذا ما تم له الاستيلاء على الإسكندرية، والوصول إلى اتفاق بين المماليك وعلي باشا الجزايرلي يسمح لهم بالاستمرار في وضعهم الراهن.	٢٤ أغسطس ١٨٠٣	١٤٥
٤٤	مطالبة الأرناؤوط بمرتباتهم المتأخرة واتجاه عثمان بك إلى فرض ضرائب على الخاضعين للحماية واحتجاجات ممثلي القوى الأوروبية وتعرض البلاد للفقر بسبب انخفاض مياه النيل.	٢٠ سبتمبر ١٨٠٣	١٤٨
٤٥	احتجاجات قناصل الدول الأوروبية على التجاوزات التي ارتكبتها السلطات في رشيد ضد الأوروبيين وممثليهم ووعد عثمان بك بتقديم ترضية كافية، ومنح الباب العالي العفو للمماليك ومحاولته إيجاد نظام إداري جديد يهدف إلى إصلاح الخزانة العامة وصدور فرمان إلى علي باشا، وتعيين إبراهيم بك قائداً ومسئولا عن القاهرة على أن يتلقى التعليمات من الصدر الأعظم.	١٨ نوفمبر ١٨٠٣	١٥٠
٤٦	الحفاظ على الإسكندرية للباب العالي كان بفضل الأموال المقترضة وتصريح عثمان بك بتنشيط التجارة، وتحقير علي باشا الجزايرلي من شأن الرعايا الأوروبيين وممثليهم.	٢٥ نوفمبر ١٨٠٣	١٥٦
٤٧	محضر اجتماع مجلس القناصل في الإسكندرية لمناقشة اقتراحات علي باشا الجزايرلي فيما يتعلق بإصلاح الإهانات التي وجهها للقناصل وإلى أعلام وشعارات دولهم.	١ ديسمبر ١٨٠٣	١٥٩

رقم الوثيقة	محتوى الوثيقة	التاريخ	الصفحة
٤٨	الإهانات التي وجهها علي باشا للممثلين الأوروبيين سوف تستفز الإنجليز والفرنسيين للتدخل في مصر، وما ترتب على تلك الإهانات من انسحاب القناصل من الإسكندرية احتجاجا على ذلك .	٥ ديسمبر ١٨٠٣	١٦١
٤٩	استمرار الجمود التجاري وإلحاح القناصل على علي باشا العمل على تنشيط التجارة وردوده المراوغة، وكثرة طلب الأموال من علي باشا وخورشيد باشا، وانسحاب المماليك إلى القاهرة مع وجود حامياتهم في رشيد والقرى المجاورة للإسكندرية.	١٠ ديسمبر ١٨٠٣	١٦٦
٥٠	لم يتلق القناصل ترضية من علي باشا على الإهانات التي وجهها لهم، وعلى الباب العالي أن يصلح من تلك الإهانات فيما لو أراد إبطال أية ذريعة لغزو جديد، والتخوف من قدوم علي باشا إلى القاهرة، والتنافس بين الإنجليز والفرنسيين لا يزال قائماً في محاولة كل منهما جذب المماليك إلى جانبه.	١٠ ديسمبر ١٨٠٣	١٦٨
٥١	تقرير القنصل العام لقنصلية السويد في مصر إلى القائم بأعمال صاحب الجلالة السويدي في القسطنطينية بشأن اقتراحات إصلاح الإهانات المقدمة من علي باشا إلى القناصل.	يناير ١٨٠٤	١٧٠
٥٢	فرمان موجه إلى علي باشا وزعيم الأوزبك المكلف بتنفيذ الفرمان الخاص بضمان الأمن المطلق لممثلي القوى الأوروبية وفقا للمعاهدات المبرمة بين الدولة العثمانية وتلك القوى.	١٠ فبراير ١٨٠٤	١٧١

رقم الوثيقة	محتوى الوثيقة	التاريخ	الصفحة
٥٣	عرض إنجلترا على بكوات المماليك وضع حاميات عسكرية للدفاع عن مدينة الإسكندرية وقبول المماليك لذلك العرض، وعودة الألفي من إنجلترا ومؤامرات البرديسي ضد الألفي وأتباعه مع استمرار المنازعات بين الطرفين.	٢٤ فبراير ١٨٠٤	١٧٣
٥٤	استمرار الخلافات بين الأرناؤوط والمماليك وتذمر الأهالي من فرض البرديسي للضرائب الباهظة ليجمع الأموال ويدفعها إلى الأرناؤوط وتحالف محمد علي مع مجلس الشرع وتحريضه الأرناؤوط ضد المماليك ومحاصرتهم للبرديسي وإبراهيم بك في منزليهما ونجاحهم في احتلال القلعة ووضع محمد خسرو باشا على رأس الحكومة ، واحتمال دخول أسطول روسي عثماني البحر المتوسط.	١٢ مارس ١٨٠٤	١٧٨
٥٥	ثورة الأرناؤوط ضد بكوات المماليك كانت مدبرة من حكومة الآستانة على وعد منها لأحمد خورشيد باشا حاكم الإسكندرية بأن يصير واليا على مصر، وانتقاله إلى القاهرة وتركيزه على جمع الأموال.	٣٠ مارس ١٨٠٤	١٨٣
٥٦	مناوشات بين الأرناؤوط والمماليك قرب الجيزة وانسحاب المماليك إلى الفيوم والألفي بك يكتب إلى محمد علي معلنا حياده بشرط حصوله على إقليم جرجا.	١٠ أبريل ١٨٠٤	١٨٥
٥٧	وقوع حوادث مؤسفة بسبب الضرائب الباهظة التي فرضها خورشيد باشا على السكان، ومحاولة الإنجليز إرسال قوات عسكرية لكبح جماح الأرناؤوط، وعدم موافقة الباب العالي بسبب تحيز الإنجليز للمماليك، ونظرا لاحتجاجات فرنسا .	١٨ أبريل ١٨٠٤	١٨٧

رقم الوثيقة	محتوى الوثيقة	التاريخ	الصفحة
٥٨	طلب الباشا من الممثلين الأوروبيين تحصيل مبلغ ٣٠٠ كيس لدفع رواتب الأرناؤوط ورفضهم ذلك الطلب وتهديد الباشا لهم بالإعدام أمام منازلهم ثم إلغاؤه لتلك المطالبة بعد ذلك.	٢٤ أبريل ١٨٠٤	١٨٩
٥٩	انتشار شائعة حصار المماليك للقاهرة ومغادرة خسرو باشا .	١٩ مايو ١٨٠٤	١٩٣
٦٠	مقتل بعض بكوات المماليك في المناوشات التي وقعت بينهم وبين الأرناؤوط وتوقع حدوث مصادمات أخرى ومعاناة القاهرة ومصر كلها من مجاعة شديدة مع اضطراب في الأمن.	١٩ مايو ١٨٠٤	١٩٤
٦١	استقبال الألفي بك في لندن استقبالا حسنا وحصول الحكومة الإنجليزية من الدولة العثمانية على فرمان ملائم لصالح المماليك والمحاولات المتعددة التي قامت بها فرنسا لاغتيال الألفي.	٦ يونيو ١٨٠٤	١٩٦
٦٢	الأرناؤوط يفاجئون المماليك بالهجوم ويعلنون انتصارهم عليهم مع استمرار المناوشات بين الأرناؤوط وبين قوات إبراهيم بك والبرديسي.	يوليو ١٨٠٤	١٩٨
٦٣	انهزام الأرناؤوط أمام المماليك وتشجيع محمد علي لهم على معاودة الهجوم وانتصارهم على بكوات المماليك، وفشل محاولات خورشيد باشا جذب الألفي إلى جانبه، واحتجاج الإنجليز على معاناة الألفي من الخيانة، ومعاناة مصر كلها من استمرار المنافسة بين الفرنسيين والإنجليز من أجل محاولة كل منهم استقطاب المماليك إلى جانبهم.	٣١ يوليو ١٨٠٤	٢٠٠





لقد عرفت مصر منذ فترة مبكرة العناية بالوثائق، ووضع اللوائح والتشريعات المنظمة لها، لكن جاءت العناية بالوثائق بوصفها إحدى الوسائل المهمة لضبط الإدارة، وخصوصاً النواحي المالية، ولا أعتقد أن محمد علي حينما أنشأ الدفترخانة المصرية عام ١٨٢٨ كان يستهدف جمع وتنظيم إدارة الوثائق من أجل أن تكون مصدراً للكتابة التاريخية، لكن الرجل بخبرته الإدارية، وبمشورة أصدقائه من الفرنسيين اعتقد أن العناية بالوثائق وضبط إدارتها والسيطرة عليها، يعد أمراً في غاية الأهمية؛ لضبط إدارة الدولة وجباية مواردها. ولم يكن يعلم، وهو يقوم بهذه المهمة، أنه يقدم خدمة جليلة للتاريخ المصري، وأنه بهذا العمل قد حافظ على الذاكرة التاريخية للأمة المصرية.

د. محمد صابر عرب

لوحة الغلاف للفنان: ديفيد روبرتس

غلاف:

